جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالزقازيق

دراسات فى البلاغة العربية

علم المعانى

(الجزء الأول)

الدكتور
محمد عبد المنعم على متولى
مدرس البلاغة والنقد

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

الإهداء

إلى من غرسا فى نفسى حب الفضائل والشيم النبيلة

إلى من عهدت فيهما نقاء السريرة وصفاء الضمير والهمة العالية

إلى من عهدت فيهما رقة الشعور وعفة اللسان وطهارة النفس

إلى من عهدت فيهما السماحة والطيبة والصبر على المكاره

إلى من قال الله -عز وجل- فيهما:

".....رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا"

إلى الوالدين الكريمين

تحية وفاء وتقدير وعرفان

إبنكم

محمد عبد المنعم على متولى

بسم الله الرحمن الرحيم

"... رب اشرح لى صدرى. ويسر لى أمرى. واحلل عقدة من لسانى. يفقهوا قولى"

صدق الله العظيم

(سورة طه /٢٥-٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان، وعلمه البيان والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله أفصح العرب وأبلغهم وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهديه واقتبسوا من فصاحته وأدبه.

أما بعد،،

فمن الثابت والمعلوم أن من أهم الخصائص الكبرى التى امتن الله -عز وجل- بها على البشر أن وهبهم العقل الذى به الفكر ومحل التدبير والتمييز بين الأشياء ثم وهبهم اللسان الذى هو أداة التعبير وبه النطق والإبانة.

وإذا كان هذا الأمر مسلما به وثابتا فمما ينبغى أن يكون معلوما وثابتا كذلك أن البلاغة إنما تعنى وتقصد إلى البحث عن كيف يكون التعبير والإبانة باللسان عن المعانى والأغراض التى تدور فى الذهن ويرمى إليها المتكلم حتى يأتى الكلام موفيا بتمام المراد والغرض.

فليست البلاغة ترفا من القول يعبر إليها من أراد ويذهل عنها من أراد بل هى حاجة وضرورة لا غناء عنها خاصة والكل يعلم أن أهم مقاصد البلاغة بل وسائر علوم اللسان خدمة القرآن الكريم

واستشراف لطائفه ودقائقه ومحاولة الوقوف على خصائص تراكيبه حتى يكون فهمنا أقرب إلى الصواب ثم ليتأكد لنا أمر الإعجاز الذى هو ثابت منذ نزل وسيظل ذلك شأنه.

فدارس البلاغة لا يطمح إلى الوقوف على حقائق الإعجاز لأن هذا فوق كل جهد وغاية لكن ذلك لا يمنع من التماس بعض من أسراره وخواصه ليكون بمثابة الدال على أمر الاعجاز لمن أراد الدليل وليتيسر بذلك أيضا الرد على أولئك الطاعنين على القرآن الكريم والمترصدين له ممن يثيرون الشكوك والريب حول القرآن الكريم وأساليبه.

وكذلك فإن الأحاديث المشرفة لرسول الله -ﷺ- تعد ميدانا رحبا لدارس البلاغة ولمن أراد تمثل الأنماط العالية من فنون القول حيث يمثل كلامه -ﷺ- أفصح وأبلغ ما قيل وسمع من كلام العرب وهو الأنموذج الأعلى للكلام العربى مما نطق به البشر.

ويبقى من بعد ذلك الأدب منظومه ومنثوره ميدانا آخر لهذا الفن يتجه إليه النقاد ودارسو الأدب والبلاغة تحليلا وكشفا لوجوه الحسن أو القبح فيه.

وهذه دراسات فى البلاغة العربية (علم المعانى) أردت -بعون الله- أن أجعله أجزاء كل جزء يشمل عددا من الموضوعات.

وقد بدأت بالجزء الأول: حرصت فيه على إلمامة بتاريخ البلاغة والنقد وتطورهما إلى أن انفصل كل منها عن الآخر كما ذكرت أشهر المؤلفين قديما وحديثا ثم تحدثت عن مفهوم الفصاحة والبلاغة وبعدها تناولت الباب الأول من أبواب علم المعانى (أحوال الإسناد الخبرى).

وسيتلوه الجزء الثانى بمشيئة الله تعالى وأوله: أحوال المسند إليه.

متحريا فى ذلك كله الجمع بين التأصيل العلمى للمسائل بما يحفظ للأصول البلاغية حقها وبين التحليل الكاشف -قدر الطاقة- عما فى النماذج من أسرار التعبير وطرق الاستعمال.

متوخيا الإيضاح والإبانة بذكر كثير من النماذج قرآنا وأحاديثا وكذا كلام العرب شعرا ونثرا راجيا من الله -عز وجل- أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم نافعا به قراء العربية سائلا الله -عز وجل- أن يمنحنا الهداية والتيسير والتوفيق والسداد إنه على ما يشاء قدير.

"وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"

الدكتور

محمد عبد المنعم على متولى

نبذة عن نشأة النقد والبلاغة

من المعلوم أن العرب طبعوا على الفصاحة والبلاغة منذ القدم فكانوا يهتمون بالأدب ويقيمون له أسواقا تعرض فيها أجود القصائد الشعرية وأرفع المقطوعات النثرية ومن بين هذه الأسواق "سوق عكاظ" وكان الشاعر الذى يستولى على الإعجاب ويتفوق نتاجه على غيره يكرم ويقدر ويكتب شعره بماء الذهب ويعلق فى جوف الكعبة ويسرى اسمه بين القبائل العربية ويصير رمزا للفخار والمجد فالبيان كان من بين الصفات التى تجعل العربى سيدا على قومه وعشيرته ومن أجل ذلك كان بعض الشعراء يعكف على تجويد قصائده وتحسينها ويستغرق فى ذلك حولا كاملا حتى تخرج القصيدة فى ثوب قشيب محكم النسج ومن هؤلاء الشعراء زهير بن أبى سلمى الذى لقبت قصائده بالحوليات.

ولو نظرنا إلى هذا النتاج الأدبى الضخم فى العصر الجاهلى لوجدناه مفعما وزاخرا بالألوان البلاغية المتعددة مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام والافتنان فى معارضه البليغة إلا أن الشاعر أو الناثر أو الحكم لم يكن يعرف اسم المصطلح البلاغى ولكنه كان يحس بذوقه وطبعه أن فى هذا التعبير صورة جميلة أو أن هذا التعبير أجمل من غيره فقد روى أن النابغة الذبيانى جلس يوما فجاءه الأعشى فأنشده فقضى له بالإجادة

ثم جاءه حسان فلم يقض له ثم جاءته الخنساء وأنشدته قصيدتها التى منه:

وإن صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

فأثنى عليها وفضلها على بنات جنسها وقال لها: لولا أن أبا بصير سبقك لقلت: إنك أشعر من بالسوق فغضب حسان بن ثابت -رضى الله عنه- وقال له: أنا أشعر منك ومنها فقال له النابغة حيث تقول ماذا؟ قال حيث أقول:

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما[١]

فقال له النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قللت جفانك وأسيافك يعنى أن الجفنات لأدنى العدد والكثير "جفان" وكذلك "أسياف" لأدنى العدد والكثير "سيوف" وقلت "يلمعن بالضحى" ولو قلت "يبرقن بالدجى" لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف فى الليل أكثر وقلت: "يقطرن من نجدة دما" فدللت على قلة القتل ولو قلت: "يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم[٢]. وقد تولى العلامة قدامة بن جعفر فى كتابه "نقد

١- الجفنات: جمع جفنة وهى القصعة وتجمع أيضا على جفان الغر: البيض يلمعن: يشرقن النجدة: الشجاعة. يصف قومه بالندى والبأس يقول: جفاننا معدة للأضياف وسيوفنا تقطر دما لكثرة ممارستنا الحرب.

٢- الأغانى ٣٤٠/٩.

الشعر"[١] الرد على نقد النابغة لقول حسان بن ثابت -رضى الله عنه- السابق- ويعنينا فى هذه الرواية أن الخلاف قام على مسألة تتصل بالتشبيه والمجاز وهما من المباحث البلاغية.

وأخذت تنمو عناية العرب بإحسان الكلام والافتتان فى معارضه البليغة بعد ظهور الإسلام بفضل ما نهج القرآن الكريم والرسول العظيم -ﷺ- من طرق الفصاحة والبلاغة أما القرآن الكريم فكانت ولازالت -آياته تتلى فى آناء الليل وأطراف النهار وقد تحدى العرب بل الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ولعل الموازنة بين أسلوبه وأسلوب غيره قد استدعت التنبه إلى المميزات اللفظية والمعنوية والتأمل فى طرائق البيان. وقد أكثر القرآن الكريم من ضرب المثل وألوان التشبيه والمجاز والكناية والبديع حتى كاد المتقدمون والمتأخرون يجدون لكل نوع بلاغى يهتدون إليه مثالا فيه وكان تفهمه مدعاة إلى ظهور البحث البلاغى وأما الرسول -ﷺ- فكان حديثه يذيع على كل لسان وكانت خطبه ملء الصدور والقلوب وفى أخباره -ﷺ- ما يدل على أنه كان يعنى أشد العناية بتخير لفظه وأن يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال يوجز فى موضعه ويطنب فى موضعه ويؤكد حين ينبغى التأكيد ويرسل حين يحسن الإرسال بل لقد بلغ من محافظته -ﷺ-

---

[١]- راجع: نقد الشعر ٩٢-٩٤.

على هذه القاعدة أن يتخذ ألفاظ القبيلة الخاصة بها حين يخاطبها كصنيعه فى مخاطبة حمير وغيرها مما يؤكد أنه -ﷺ- اتخذ الاقناع البلاغى سبيلا لنشر الدعوة واذ عنت بعض قبائل العرب له. وسار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول -ﷺ- فى البيان وكانت لهم خطب وأقوال مأثورة وعناية بالشعر والأدب.

وعندما نصل إلى عصر بنى أمية فإننا نجد نقلة هامة فى ميدان البلاغة فقد كثرت الملاحظات البيانية وهى كثرة عملت فيها بواعث كثيرة فقد تحضر العرب واستقروا فى المدن والأمصار ورقيت حياتهم العقلية وأخذوا يتجادلون فى جميع شئونهم السياسية والعقيدية فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون وكان هناك المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة ونما العقل العربى نموا واسعا فكان طبيعيا أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان لا فى مجال الخطابة والخطباء فحسب بل أيضا فى مجال الشعر والشعراء بل لعل المجال الثانى كان أكثر نشاطا لتعلق الشعراء بالمديح والتنافسهم فيه وقد فتح لهم الخلفاء والولاة والقواد والأجواد أبوابهم فوفدوا من كل فج وكانوا يجعلون جوائز كل منهم بقدر شعره وبراعته فيه فاشتد التنافس بينهم[١] وارتفع صوت الهجاء بين فريق من الشعراء فازداد التنافس

١- البلاغة تطور وتاريخ ١٥،١٦.

شدة فكان يتخير كل منهم معانيه وألفاظه بحيث تصغى لها القلوب وتميل نحوها الأسماع فكان ذلك عاملا هاما فى حسن البيان وبلاغة الكلام ونظرا لاستقرار الشعراء فى المدن كثر اللقاء بينهم فى المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب من يمدحونهم وفى حضرتهم فكثرت المحاورات بينهم وكانت تعنى بجودة الأساليب ودلالتها على المعانى فأثمرت هذه االمحاورات فى البلاغة والنقد وتربية الذوق الذى يستطيع أن يميز بين الشعراء. وفى عصر بنى أمية قامت سوق المربد فى البصرة وسوق الكناسة فى الكوفة مقام سوق عكاظ فى الجاهلية بل لقد تحولا إلى ما يشبه مسرحين كبيرين يفد عليهما شعراء البلدتين ومن يفد عليهما من البادية لينشدوا الناس خير ما صاغوه من أشعار واستطاع جرير والفرزدق أن يتطورا فى سوق المربد بفن الهجاء القديم فإذا هو يصبح مناظرة واسعة فى حقائق عشيرة الشاعرين... ويحاكيهما فى ذلك كثير من الشعراء ويتجمع لهم الناس يصفقون كلما مر بهم بيت نافذ الطعنة ويهتفون ويصيحون[١] وكان بعض الخلفاء بدمشق -وخاصة عبد الملك بن مروان- يعلقون على بعض ما يسمعونه بكلمات طريفة فمن ذلك أن ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك قصيدته البائية التى مدحه بها فلما انتهى إلى قوله:

١- الأغانى ١٠/١٥٢.

يأتلق التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب

غضب عبد الملك بن مروان وقال له: قد قلت في مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من اللـ   ـه تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم وأعطيتني من المدح مالا فخر فيه وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذى هو كالذهب فى النضارة[1]. ومما لاشك فيه أن هذه الملاحظات كانت قائمة على الفطرة العربية السليمة وعلى التذوق للشعر والنثر فلم تتأثر الروح العربية بعقليات أخرى ولم تدخلها الفلسفة أو يشوبها المنطق بقوانينه وتعقيداته وأن الاستحسان الصادر من السامع مبنى على ما فى التعبير من حسن تصوير واختيار عبارات وتلاؤم ألفاظ وإظهار الفكرة فى قالب جميل من البيان. وكان النقد بمعنى: تمييز جيد الكلام من رديئه يتداخل مع البلاغة بمعناها الثانى الذى هو: مجموعة الخصائص التى تتوافر فى القول الجيد كما أنها كانت فى هذه العصور (العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام والعصر الأموى) بمعنى حسن البيان وجمال التصوير وكان النقد هو الوسيلة

١- الصناعتين /١١٤.

التى يعرف بها جيد القول من قبيحه فهو عام بالنسبة للبلاغة[١].

ولما جاء العصر العباسى انتقلت هذه الملاحظات من مرحلة النشأة والنمو إلى مرحلة الازدهار والقوة وبعد أن كانت متناثرة على ألسنة الرواة تقال مشافهة وتنتقل من شخص إلى آخر بطريق الرواية أصبحت تأخذ دورا جديدا هو دور التسجيل والتأليف وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث الهجرى وقد لمست عصا الحضارة الحياة العربية فى هذا العصر وانتشرت الكتب المترجمة فأخذت المباحث النقدية والملاحظات البلاغية تعمق.

وإذا بطوائف من الشعراء والكتاب واللغويين والمتكلمين تدعم هذه النظرات وإذا بكتب تظهر فى مجال نقد الشعر والشعراء بوضوح ككتاب: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمجمى "م.ت ٢٣٢ هـ" وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة "م . ت ٢٧٦هـ" وكتاب: قواعد الشعر لثعلب "م.ت ٢٩١ هـ " وكتاب : عيار الشعر لابن طباطبا العلوى "م.ت ٣٢٢ هـ " -رحمهم الله جميعاً- وإذا بكتب أخرى تظهر فى مجال الرد على الطاعنين فى القرآن الكريم أيضاً وفى هذه كثير من النظرات النقدية والبلاغية ككتاب : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه "م.ت ٢٧٦هـ" وقبله كتاب "مجاز القرآن لأبى عبيدة "م.ت ٢٠٧ أو ٢٠٨ أو ٢٠٩ هـ " وكتاب معانى القرآن

١- راجع: تاريخ النقد الأدبى عند العرب أ.د/ محمد زغلول سلام /١٨.

للفراء " م.ت ٢٠٧ أو ٢٠٩ هـ " -رحمهم الله جميعاً- وهناك كتب أخرى لغوية تتناول بعض النقدات والنظرات البلاغية ككتاب سيبويه " م.ت ١٨٠ هـ " الذى أشار إلى أشياء تتعلق بأسرار التراكيب وأوجه الدقة فى استعمال الألفاظ واكتشف بعض الوان من البلاغة كالتشبيه وأورد أمثلة له وكالإيجاز كما تكلم عن المجاز[1] وككتاب : الكامل للمبرد "م.ت ٢٨٥ هـ " وقد عالج فيه الكتابة النثرية والنظم الشعرى والأمثلة والخطب والرسائل وألوانا من البلاغة كالتشبيه والاستعارة والكناية وهناك أدباء أيضاً تناولوابعضاً من هذه المباحث وهى فى مجموعها تدل على امتزاج البلاغة بالنقد فها هو الجاحظ "م.ت ٢٥٥ هـ " يتناول فى كتابه : البيان والتبيين كثيراً من النظرات البلاغية والنقدية فقد تكلم عن الاستعارة وحسن التقسيم وحسن الابتداءات والسجع[2] والكناية وغير ذلك وأكثر من الحديث عن حسن الصوغ وكمال التركيب ودقة تأليف اللفظ وجمال نظمه وأداة شغفه بجودة اللفظ وحسنه وبهائه إلى أن توهم القارىء أنه يقدم الألفاظ على المعانى يقول : المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة

---

١ - راجع : الكتاب ١٦٩/١

٢ - راجع : البيان والتبيين ١١٢/١ ، ١٥٣ ، ٢٣٨ .

السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير "[١] وقد تكلم الجاحظ عن البديع وقال : البديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان "و مع إلمامه بالصور البيانية وكلامه عن البديع إلا أنه لم يحدد ولم يعرف أيا من هذه الصور أو الألوان البديعية بل اكتفى بإيراد نماذج توضح ما أراد .
ثم يظهر شاعر وأديب وناقد هو الأمير العباسى : عبد الله بن المعتز " م.ت ٢٩٦ هـ " الذى ألف كتابه البديع " وأثبت فيه أن البديع معروف فى الأساليب العربية القديمة وأن المحدثين لم يسبقوا اليه وإنما كثر فى شعرهم فعرف فى زمانهم كما وضح أن ألوان البديع ليست مقصورة على الألوان التى ذكرها وليست محددة بالأسماء التى عينها ويعتبر النقاد كتاب "البديع" لابن المعتز نقطة البدء فى طريق العلوم البلاغية فقد عرفت العلوم البلاغية طريق الاستقلال بمؤلفاتها منذ ظهر هذا الكتاب [٢] وابن المعتز فى ذكره الألوان البديعية لم يفرق بين النقد والبلاغة فهما مازالا على معناهما الذى سبق أن قلناه فلم تكن البلاغة قد أخذت التحديد الاصطلاحى بعد ولم تأخذ طريق الانفصال وإنما كانت هناك بوادر إلى الانفصال بتأليف هذا الكتاب .

---

١ – البيان والتبيين ٢٨٥/١

٢ – راجع / الأساس فى النقد والبلاغة أ.د / أحمد الحوفى ٢٥/٢ .

وابن المعتز قد جعل فنون البديع التى بنى عليها الشطر الأكبر من كتابه خمسة هى : الإستعارة والتجنيس والمطابقة ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامى ثم بدأ فى ذكر ألوان أخرى أطلق عليها محاسن الكلام والشعر وذكر من محاسن الكلام ثلاثة عشر لوناً هى : الإلتفات والإعتراض والرجوع وحسن الخروج وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية -فى مبحث واحد- وحسن التشبيه ولزوم مالا يلزم وحسن الابتداء وبهذا يكون مجموع ما بحثه ابن المعتز فى كتابه "البديع" ثمانية عشر مبحثا من صميم البلاغة مع ملاحظة أنه لم يقصد بلفظ "البديع" معناه الذى اصطلح عليه البلاغيون المتأخرون وإنما قصد به فنونا من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم.

ويعد ابن المعتز ظهر لون جديد من البحوث النقدية البلاغية وذلك فى أوائل القرن الرابع الهجرى فلقد ظهرت هذه البحوث محددة تحديدا علميا ومتفاعلة مع الثقافة اليونانية على وجه الخصوص تلك الثقافة التى أثرت فى عالم يعد أول من ظهرت فى أبحاثه آثار أرسطو الفلسفية ظهورا واضحا هذا العالم هو: قدامة بن جعفر "م.ت ٣٣٧هـ" الذى ألف كتابه: "نقد الشعر" رمزا لامتزاج الثقافة العربية باليونانية. ظهر هذا بوضوح فى منهج الكتاب وطريقة

تنظيمه وتقسيماته وتنويعه للمباحث البلاغية وتحديدها. ومن الواضح في كتابه هذا أنه قد أدرج الألوان البلاغية تحت عنوان: "النعوت"[١] أي أنه عدها من محاسن الكلام ولطائفه وهي تعد عنده أيضا من نقد الشعر تمشيا مع عنوان كتابه "نقد الشعر" وبعض هذه الألوان التي أطلق عليها لقب نعوت قد سبق ابن المعتز بها تحت لقب "البديع" وبينما يورد قدامة هذه الألوان البلاغية ويعدها نقدا في كتابه "نقد الشعر" نجده يطلق على هذه الألوان نفسها اسم بلاغة في كتابه "جواهر الألفاظ"[٢] ثم يشرح هذه الألوان ويمثل لها من النثر مما يؤكد امتزاج النقد بالبلاغة عنده وأنه قد اتبع من سبقه من النقاد في أن لفظ بلاغة يراد به "القول الجميل الذي يبلغ به الأديب درجة من الجودة والإبداع"[٣] وأن لفظ "نقد" يدل على وسائل التعرف إلى جيد القول أو قبيحه[٤] وتعد ألوان البلاغة التي ذكرها قدامة وسائل لمعرفة الجيد من القبيح.

وجاء بعد ذلك أبو هلال العسكري "م.ت ٣٩٥هـ" -رحمه الله- الذي تعمقت عنده الروح البلاغية وامتزجت امتزاجا ظاهرا

---

[١]- راجع/ نقد الشعر ٧٣-١٧٠.

[٢]- جواهر الألفاظ ٣-٨.

[٣]- تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري أ.د/ محمد زغلول سلام ٢٩.

[٤]- المرجع السابق ١٤.

بالنقد وكان كما يقولون نقطة تحول النقد إلى بلاغة أو نقطة البدء بتقرير البلاغة وضبط مسائلها وأصولها وإن كان للبلاغة وضبط أصولها بذورا منذ عهد مبكر فقد ظهرت أوائل مسائلها فى كتب النحو والتفسير الأولى. وقد ألف أبو هلال كتابه "الصناعتين - الكتابة والشعر" وجمع فيه مباحث كثيرة بعضها خاص بالنقد وبعضها خاص بالبلاغة وأفاد من سابقيه على هذا الدرب وتتلمذ عليهم وكان لفظ بلاغة عنده يساوى لفظ بديع عند ابن المعتز ويساوى لفظ "نقد" عند قدامة ويساوى لفظ "حسن بيان عند الجاحظ" وغيره أيضا وقد سار أبو هلال على هذا المنوال فأخذ من سابقيه تسعة وعشرين لونا وزعم أنه ابتكر سبعة أخرى فبلغ ما بحثه من هذه الألوان البلاغية ستة وثلاثين لونا.

وجمع أكثر هذه الفنون فى باب عنده عقده "للبديع" خاصة وهى ألوان ليست من علم البديع حسب اصطلاح المتأخرين بل من علوم البلاغة الثلاثة التى هى: المعانى والبيان والبديع. وجاء بعده ابن رشيق "م.ت ٤٦٣هـ" ونقل كثيرا ممن سبقه فى كتابه "العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده" الذى يعد سجلا حافلا للأخبار الأدبية والشعراء القدماء والمحدثين وموضوعات البلاغة والنقد وجاء ابن سنان "م.ت٤٦٦هـ" وألف كتابه "سر الفصاحة" وبين الغرض الذى هدف إليه وهو ما يحمله عنوان كتابه أى الوقوف على أسرار

الفصاحة. وظل البحث البلاغى ينمو ويتطور نحو الكمال حتى وجدنا معظم الألوان البديعية قد استوت على سوقها قبل القرن الخامس الهجرى حيث كانت تولد وتتكاثر وتتكامل أشكالها منذ سيبويه حتى ابن سنان الخفاجي وأما المسائل البلاغية الأخرى فكانت تذكر مجتمعة دون تمييز فلا زالت أبحاثها متشابكة ولم تخضع بعد لمصطلح علمى محدد وإنما كانت ترسل تحت مصطلحات عامة كالبديع تارة والبيان تارة أخرى.

ثم جاء بعد ذلك الامام عبد القاهر الجرجانى "م.ت ٤٧١ أو ٤٧٤هـ" -رحمه الله- ويصل البحث البلاغى إلى قمة ازدهاره على يديه فقد أحكم معاقد هذا العلم وضم شمله وهذب مسائله وأبان عن فرائده بما كان يتسلح به من الثقافة الواسعة والطبع الذى فطر عليه فى تذوق الأساليب وبيان الفروق الدقيقة فى دلالتها والكشف عن مواطن الجودة والرداءة وبيان العلل فيها وقاوم تيارا كان قد سيطر على الأدب فى عصره والعصر الذى سبقه هذا التيار هو: الاهتمام بالألفاظ ومحسناتها حتى طغت على المعانى فقرر: "أن الألفاظ خدم للمعانى" وأودع العصارة البلاغية فى كتابيه: "أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز" وهناك خلاف بين الدارسين فى أسبقية أحدهما على الآخر

فمن قائل بأن "الأسرار" أسبق من "الدلائل" ويدلل على ذلك[1]. ومن قائل بأسبقية "الدلائل" على "الأسرار" ويدلل على ذلك[2]. والواقع أن الإمام عبد القاهر الجرجانى كان يحتشد لفكرته ويجمع لها أمره ويسوق الأدلة والبراهين التى تؤصلها والشواهد التى تؤازرها ويتركها تتفرع طبقا لمنهج تكاملها وتؤتى ثمارها من مناخ وجودها وتعلن عن نفسها من مواقعها ولذلك ترك لفكرة النظم فى "الدلائل" أن تقتنص من القضايا والشواهد ما تلبس به ثوب الجدة والابتكار وترسخ الأساس الذى قام عليه الإعجاز البلاغى فى القرآن الكريم دون أن يقنن لها مسارات معينة وإنما ترك الطبع البصير والذوق الخبير هو الذى يهديها ويحددها كما ترك فى "الأسرار" منهجية البحث العلمى تضع خطة السير فى مسائل بلاغية طالما تناولها العلماء من قبل وهو الحريص على أن لا يطرق الأبواب المولجة أو يسير فى طريق معهود وإنما كانت نفسه نزاعة للإضافات العلمية والبدء من حيث إنتهى الآخرون وبخاصة مسائل البيان التى كانت بحاجة ماسة إلى الوعى والبصر فى تناولها لتتكون منها نظرية علمية متكاملة فى القرن الخامس الذى يعد زمن المخاض فلما

١- راجع النقد الأدبى الحديث ٢٨٩ والصبغ البديعى ٢٣٩ والتصوير البيانى ١٨٢ وأثر النحاة فى البحث البلاغى ٣٦٠.

٢- راجع البلاغة تطور وتاريخ ١٩٠-٢١٧ ونظرية عبد القاهر فى النظم ٨ ومراحل البحث البلاغى ١٥٨-١٦٠.

اختلفت الغاية فى كلا الكتابين اختلفت الوسيلة إليها. واما ما يتضمنه الكتابان فقد تناول فى "الدلائل" مسائل علم المعانى كالفصاحة والبلاغة والحذف والتقديم والتأخير والفصل والوصل والمجاز العقلى والقصر وفى "الأسرار" تناول مسائل علم البيان كالتشبيه والتمثيل والمجاز، والاستعارة إلى جانب الجناس والسجع وقد أكثر من عرض الشواهد وتحليلها وبيان صحيحها من فاسدها وعماده فى ذلك الذوق الأدبى وقد أوفت تلك البحوث على الغاية ووصلت الكمال على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى البليغ المفتن وارتبط ازدهار العلوم البلاغية به وهذا شيء يعرفه المبتدىء المطالع لتراثه ومع ذلك يرى بعض الدارسين أن كونه رائدا من رواد البلاغة أبعد الآراء عن الصحة والصدق[1]. وهذا لجاج وشغب فأبعد الآراء عن الصحة أن يجرد الرجل من حقه ويلبس ثوبا غير ثوبه إن ما سطره الإمام عبد القاهر من الفنون البلاغية التى أخرج دقائقها الفنية هى التى حصحصت فى مدرسة المتأخرين فمن يعد بليغا إذن لم يكن هو؟[2] ثم جاء العلامة محمود بن عمر الزمخشرى "م.ت ٥٣٨هـ" وادخل فى تفسيره (الكشاف) المسائل البلاغية بكل أنماطها من معان وبيان وبديع الميدان التطبيقى غير أنه لم ينظر إلى البلاغة على أنها

١- الدكتور بدوى طبانه فى البيان العربى ٢٥٩.

٢- نظرات فى علم العانى ٥٦.

علم واحد ولكنه أطلق على المسائل المتفرعة من معانى النظم (علم المعانى) كما أطلق على الصور البيانية (علم البيان) ولكن البديع – فى رأيه– لم يكن يرقى أن يعد علما مستقلا بل إنه يراه تابعا لعلمى المعانى والبيان[١].

ثم جاء ضياء الدين بن الأثير "م.ت ٦٣٧هـ" وألف كتابه "المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" كما ألف كتابا آخر سماه: "الجامع الكبير" وهما يعدان موسوعتين جمع فيهما الكثير مما قاله السابقون وكان يناقش آراءهم أو يؤيدها أو يوضح ما غمض منها وأضاف أبوابا جديدة ولكن يؤخذ عليه كثرة التفريعات والتقسيمات وكان ذلك إيذانا بانفصال البلاغة عن النقد على يد العالم: أبو يعقوب يوسف السكاكى "م.ت ٦٢٦هـ" فقد ألف كتابا أسماه "مفتاح العلوم" وقسمه إلى ثلاثة أقسام وتناول البلاغة فى القسم الثالث وقسمها إلى علمى المعانى والبيان وأتبعهما بوجوه تحسين الكلام ومن هنا أصبحت البلاغة تأخذ معنى اصطلاحيا يخالف المعنى الأول والثانى[٢] اللذين كثيرا ما تواردا على ألسنة السابقين. هذا المعنى الاصطلاحى

١– مراحل البحث البلاغى ٢٢٨.

٢– المعنى الأول للفظ هو: القول الجيد وحسن البيان. والمعنى الثانى: هو مجموعة الخصائص التى توفر للقول الجودة وهذه الخصائص هى الألوان البلاغية.

هو ما عرفه المتأخرون بقولهم: "البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته "ثم جاء بعد السكاكى علماء تأثروا به وساروا على طريقته واهتموا بكتابه معجبين بتأليفه وحسن تنظيمه ومن هؤلاء بدر الدين بن مالك "م.ت ٦٨٦هـ" وألف كتابه: "المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع" وكأن البلاغة تعنى علوما ثلاثة: معانى وبيان وبديع. فما كان عند السكاكى "وجوه تحسين الكلام" خصه بدر الدين بـ (البديع) وبذلك وضع المصطلح لهذه الفنون المخصوصة ولكن تعريف هذا المصطلح وتحديد مكانته من علوم البلاغة كان على يد: أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزوينى "م.ت ٧٣٩هـ" الذى اختصر "مفتاح العلوم" للسكاكى وسمى المختصر "تلخيص المفتاح" ثم أحس الخطيب أن مختصره هذا لم يف بالغرض المطلوب لأنه قليل فى أمثلته غير شارح لأكثر الأمور التى تحتاج إلى توضيح فألف كتابا يشرح هذا التلخيص وسماه "الإيضاح لتلخيص المفتاح" وقد جعله غنيا بالأمثلة الكثيرة وذكر فيه آراء بعض من سبقه من البلاغيين وناقشهم ووقف منهم موقف الناقد الحصيف ولكنه لم يخرج عن ترتيب التلخيص وتنظيمه. ثم جاء بهاء الدين السبكى "م.ت٧٧٣هـ" وأعجب بطريقة "تلخيص المفتاح" فشرحه فى كتاب سماه: "عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح" وجاء بعده العلامة مسعود بن عمر بن عبد الله المعروف بسعد الدين التفتازانى -أشهر شراح التلخيص- "م.ت٧٩٢هـ" فشرح

"تلخيص المفتاح" شرحا مطولا وسمى هذا الشرح "المطول" وهو من أحسن الكتب البلاغية التى شرحت "التلخيص" وأورد فيه كثيرا من المسائل التى ذكرها الخطيب القزوينى فى الإيضاح ثم ذكر آراء للإمام عبد القاهر الجرجانى وناقش ذلك كله بأسلوب فيه اطناب وتظهر من خلاله عقلية سعد الدين المنطقية ونظراته الفلسفية. كما ألف كتابا آخر سماه "المختصر" الذى نال شهرة واسعة إذ عنى العلماء بكتابة الحواشى والتقارير عليه مثل: حاشية الدسوقى "م.ت١٢٣٠هـ". ثم جاء "عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الإسفرايينى "م.ت٩٥١هـ" وشرح تلخيص المفتاح أيضا فى كتاب سماه "الأطول" وهو أطول من شرح سعد الدين التفتازانى ونقد فيه كثيرا من بحوثه فى المطول ثم جاء "ابن يعقوب المغربى "م.ت١١١٠هـ" وشرح تلخيص المفتاح وسماه: "مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح" وقد أكثر فيه من طريقة أهل المنطق والفلسفة واللغة والنحو.

هذا:وقد جمعت بعض الشروح التى كتبت على التلخيص فى كتاب من أربعة أجزاء سمى: شروح التلخيص وهى: مختصر سعد الدين التفتازانى ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى وعروس الأفراح للسبكى وتم وضعها فى صلب الصفحة ووضع بالهامش: الإيضاح للخطيب القزوينى وحاشية الدسوقى على شرح المختصر

للتفتازانى. ثم يأتى بعد ذلك علماء يعلقون على المطول والمختصر منهم: السيد الشريف "م.ت٨١٦هـ" والفنرى "م.ت٨٨٦هـ" والحفيد "م.ت٩٠٦هـ" وعبد الحكيم السيالكوتى "م.ت١٠٦٧هـ" ومصطفى بن محمد بن عبد الخالق البنانى "م.ت ١٢٢٠هـ" وتعليقهم يسمى: حواشي وقد ظهر نوع آخر يسمى بالتقرير وهو عبارة عن تعليق على الشرح والحاشية ومن أهم التقريرات: تقرير العلامة شمس الدين الإنبابى المصرى شيخ الجامع الأزهر "م.ت ١٣١٢هـ" فقد كتب تقريرا على ما كتبه السعد فى مختصره وكذلك تقرير الشيخ عبد الرحمن الشربينى المصرى شيخ الجامع الأزهر "م.ت ١٣٢٦هـ" فقد كتب تقريرا على حواشى شرح التلخيص وسمى ذلك: فيض الفتاح على حواشى شرح تلخيص المفتاح".

وغير ذلك من الشروح والتقارير وظلت البلاغة تدرس فى الأزهر الشريف ودور التعليم الأخرى على نمط من دراستها التى وقفت عندها فى عصر السكاكى ومن سار فى طريقه وكانت ولازالت -كتب الخطيب القزوينى وسعد الدين التفتازانى أحظى كتب البلاغة تناولا ثم شاركتها كتب أخرى منها: "أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز" للإمام عبد القاهر الجرجانى وكان الفضل فى ذلك للإمام محمد عبده الذى أمر بطبعهما وتدريسهما فى الأزهر الشريف ودراسة هذين الكتابين أعادت للبلاغة العربية شبابها وحيويتها

ونقاءها وأخذت فى الظهور التفوق وكذلك ظهرت عدة كتب لها أثرها فى ازدهار البلاغة واعتمادها على الشواهد والتذوق وبعدها عن الجفاف والصنعة منها: علوم البلاغة للمرحوم الشيخ أحمد مصطفى المراغى وقد بحث فيه علوم البلاغة الثلاثة ويلاحظ أنه أكثر فيه من الشواهد مع التعرض لتحليل بعضها كما ابتعد عن الخلافات والزيادات. وللشيخ المراغى كتاب آخر يهم المشتغلين بعلوم البلاغة وهو "تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها" تكلم فيه عن تطور البلاغة وترجم لكثير من رجالها وكشف عن تراثهم فسهل بذلك معرفة رجال البلاغة وتطورها على أيديهم. علاوة على أن هناك جهودا كثيرة بذلت من العلماء فى سبيل إحياء البلاغة ودراستها على اساس من العلم والذوق دراسة فيها عمق وتركيز وشمول وتفصيل وإيضاح وتعليق وتذوق.

الفرق بين البلاغة والنقد

١- البلاغة والنقد موضوعهما واحد وميدانهما مشترك وهو النصوص الأدبية فوجودهما يتوقف على الأدب وحياتهما فى حياته ودوامهما فى بقائه. والأدب يستمد منهما خير الطرق التعبيرية وأمثلها ويستفيد منهما القوانين والمقاييس ليصبح قوى التأثير موفور الجمال ومن أجل ذلك فالبلاغة والنقد قد عاشا متآخيين متلازمين يعملان فى ميدان النصوص الأدبية زمنا

طويلا وكان العلماء ينظرون إليهما على أنهما علم واحد وقد ظلا هكذا إلى أن فرق بينهما بفروق. ويمكن أن نمثل للبلاغة والنقد ببيت كبير نريد بناءه فالأسس التى نسير عليها فى عملية البناء إلى أن يتم البيت -من رسم وتفصيل وموقع وغير ذلك- تسمى (البلاغة) وعندما يتم البيت يأتى النقد ويظهر المحاسن والمساوىء ويحاسب المهندس الذى أشرف على البناء فيحكم له بجودة البناء أو يوجه إليه بعض المآخذ فالبلاغة والنقد موضوعهما واحد وهو "البيت" إلا أن البلاغة أعطت القواعد والأسس التى أقيم على أساسها "البيت" والنقد أخذ يوجهنا إلى المحاسن ويضع أيدينا على المساوىء وذلك لنتلافاها ونتلاشاها فى إقامة البيوت الأخرى فالبلاغة والنقد يلتقيان فى العمل من أجل إيجاد إنتاج أدبى سليم ونصوص قويمة وفنون أدبية رفيعة.

٢- البلاغة تهدى الأديب إلى القواعد والأساليب المثالية التى بها يستطيع أن يؤلف كلاما ممتازا مطابقا لمقتضى الحال تتجلى فيه روعة التعبير ودقة التصوير وبذلك يكون قوى التأثير.

٣- والنقد يحاسب الأديب فيوجه إليه الشكر والثناء إن جاء انتاجه رفيع المستوى أو اللوم والعتاب إن خرج النص عن المعايير النقدية.

٤- البلاغة قواعدها أوضح وقوانينهـا أظهر مـن قوانين النقد التـى تدق وتغمض.

٥- وتتفرد البلاغـة بـأعظم هـدف وأسـمى غايـة فبواسـطتها نحـاول الوصول إلى بعض من أسوار الإعجاز القرآنى.

ونستطيع أن نلمس الفرق بين البلاغة والنقد لو قرأنا -مثـلا- قوله تعالى: "والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه"[١] فالبلاغة ترشدنا إلى أن الآية الكريمة:

١- شبهت هيئة الأرض وأنها تحت تصرف الله -عز وجل- بهيئـة الشـىء الذى يكون فى قبضة القـابض يتصـرف فيـه كيـف يشـاء بجامع: الهيئة الحاصلة من مطلق التصرف والتمكن والحرية ثـم ادعى أن المشبه من جنس المشبه به وحذف المشبه واستعير لـه المشبه به على طريق الاستعارة التمثيلية.

٢- وشبهت هيئة السماوات فى تصرفهـا تحـت أمـره وقدرتـه بهيئـة الكتاب المطوى فى يد الإنسان بجامع: الهيئة الحاصلة من وجود شىء يكون تحـت تصـرف مـن هـو متمكـن منـه قـادر عليـه ثـم استعيرت هيئـة المشـبه بـه لهيئـة المشـبه علـى سـبيل الاسـتعارة التمثيلية. فيكون فى هذه الآية الكريمة استعارتان تمثيليتان.

---

[١]- سورة الزمر ٦٧.

٣- ويجوز أن يكون فى الآية المباركة مجازان مرسلان علاقتهما السببية فى كل من "قبضته" و"بيمينه" فالقبضة سبب فى القوة وكذلك "اليمين".

٤- ويجوز أن تكون الآية المباركة كناية عن القدرة والقوة.

٥- ويصح أن تكون الآية واردة على سبيل المبالغة فى كونه مالكا فتدخل فى علم البديع.

هذه هى المقاييس البلاغية -فيما نعرف- بالنسبة للآية المباركة.

أما النقد:

فينبئنا عن العاصفة التى يثيرها هذا النظم المعجز ويخبرنا عن القدرة الهائلة التى تسيطر على السماوات والأرض ويعطينا صورة توضيحية للمعانى وما توحيها من ظلال فنية وتعبيرات أدبية تسحر الألباب وتخطف الأبصار وتأخذ بعقول السامعين والقارئين.

أو قرأنا قول أبى العلاء المعرى:

فإن كنت تبغى العيش فابغ توسطا   فعند التناهى يقصر المتطاول[1]

توقى البدور النقص وهى أهلة   ويدركها النقصان وهى كوامل

---

[1]- وفى رواية فإن كنت تبغى العز ......إلخ.

وكأن الشاعر يريد أن يقول: إن خير الأمور الوسط فإذا أردت أن تعيش سعيدا دائما من غير خوف فعليك بالتوسط فى كل شيء والبعد عن القمة والذروة فمن بلغ الكمال أو وصل إلى العلا لابد له من النقصان مرة ثانية ورجوع الإنسان إلى الوراء يكون شيئا صعبا فالقمر وهو هلال لا يخاف من النقصان ولكن إذا وصل إلى مرحلة التمام وأصبح بدرا فإنه يأخذ فى النقصان وفى الاضمحلال حتى يتلاشى ويصير إلى المحاق.

فالبلاغة:

ترى أن فى البيتين تشبيها تمثيليا فقد شبه الشاعر حال الشخص فى أمنه من النقص عند التوسط فى العيش وعدم أمنه منه إذا بلغ نهايته بحال البدور فى أمنها من النقص وهى أهلة وإدراكه لها بعد كمالها ووجه الشبه: هو الهيئة الحاصلة من بدو الشيء على حال الكمال فى التوسط فإذا اكتمل مال إلى النقصان.

أما النقد:

فيلفت أنظارنا إلى أن بين البيتين وحدة عضوية فهما يتحدثان عن فكرة واحدة وأن الشاعر قد سلك بهما مسلك الحكمة وأن معانيهما واضحة لأن أبا العلاء قد قربها إلينا بالتشبيه فأصبحت مشاهدة أمامنا مألوفة لدينا.

وهكذا فبالذوق السليم وبالخبرة والدراية والدراسة يستطيع الباحث أن يفرق بينهما بخيوط رفيعة دقيقة وذلك لقوة تلازمهما وشدة اتصالهما فالتفريق بينهما صعب مع أن النقد ينظر إلى النص الأدبى من ناحية معينة غير الناحية البلاغية إلا أنهما يعملان من أجل هدف واحد وهو الجودة الأدبية[1].

الغاية من دراسة البلاغة

١- إن الغاية العظمى من دراسة البلاغة هى: محاولة الوصول إلى بعض من أسرار الإعجاز القرآنى وفهم أساليبه الرفيعة وكيف أنه تحدى العرب -وهم ذوو لسن وفصاحة فى أبين سماتهم وأجل صفاتهم بما حواه من محكم الصياغة وروائع البلاغة وبما تضمنه من جوامع الكلم وروائع الحكم حتى وقف بنو العروبة وحاملو لوائها أمامه واجمين وخر له أعلام البيان ساجدين.

وهذه الفكرة هى التى دفعت العلماء والباحثين إلى دراسة البلاغة وتأليف الكتب الجليلة فيها وتقديمها وتفضيلها على سائر العلوم فهذا هو أبو عبيدة "م.ت ٢٠٨هـ" قد وضع كتابه "مجاز القرآن" على إثر سؤال وجه إليه فى مجلس الفضل بن الربيع وزير المأمون عن معنى قوله تعالى: "طلعها كأنه رءوس الشياطين"[2].

١- فى علم المعانى ١/ ٣٠،٣١.

٢- سورة الصافات ٦٥.

وكيف يشبه الطلع برءوس الشياطين وهى لم تعرف بعد؟ أى وينبغى أن يكون التشبيه بشيء قد عرف حتى يتبين الشبه ويتضح فأجاب أبو عبيدة: إنما كلم الله -عز وجل- العرب على قدر كلامهم وهو على حد قول امرىء القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى   ومسنونة زرق كأنياب أغوال

يريد أن المشبه به هنا غير معروف كذلك وأن الغرض من التشبيه فى الآية والبيت عَرْض المشبه وإبرازه فى صورة مستفظعة مخوفة والعرب تشبه قبيح الصورة بالشيطان أو الغول وإن لم يروهما لاعتقادهما أن كلا الشيئين شر محض لا يخالطه خير فينطبع فى مخيلتهم بأقبح صورة فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ثم قام أبو عبيدة من فوره وتقصى ما ورد فى القرآن الكريم من الألفاظ التى أريد بها غير معناها الأول فى اللغة وجمعها فى هذا الكتاب[1].

وهاهو أبو هلال العسكرى "م.ت ٣٩٥هـ" ينص على أن علم البلاغة هو أحق العلوم بالبحث والدراسة بعد معرفة توحيد الله -عز وجل- إذ به يعرف إعجاز كتاب الله -تعالى- الناطق بالحق الهادى إلى سبيل الرشد المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التى رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين وأزالت شبه الكفر

١- راجع مجاز القرآن ١٠/١.

ببراهينها[١].

وهذا أبو بكر الباقلانى "م.ت ٤٠٣ أو ٤٠٤هـ" المتكلم الأشعرى يبين أن البحث فى وجوه إعجاز القرآن وبيان طرق بلاغته وفصاحته أحق بكثير من التصنيف فى دقيق الكلام وغامض النحو[٢]، وأكد هذا المعنى أيضا عبد الرحمن بن خلدون "م.ت ٨٠٦هـ" بقوله: إن ثمرة هذا الفن إنما هى فى فهم الإعجاز من القرآن[٣].

٢- دارس البلاغة والمتمكن منها يستطيع أن ينشىء كلاما بليغا ساحرا مؤثرا وينقل معانيه إلى قلوب سامعيه بألفاظ رشيقة أنيقة ومعان سليمة كريمة كما تكون لديه القدرة على التأثير فى نفوس قارئيه أشد التأثير فالبليغ كما وصفه بشر بن المعتمر "م.ت ٢١٠هـ" هو الذى يفهم العامة معانى الخاصة بألفاظ لا تلطف على الدهماء (عامة الناس وجماعتهم) ولا تجفو عن الأكفاء (المماثلين)[٤].

١- الصناعتين /٩.

٢- إعجاز القرآن للباقلانى/ ٤-٦.

٣- مقدمة ابن خلدون / ٥٥٢.

٤- راجع البيان والتبيين ١٣٦/١.

٣- دراسة البلاغة تمكننا من معرفة أساليب الكلام وفن القول وتمييز الغث من السمين وتفضيل شاعر على آخر وخطيب مصيب على آخر جانبه الصواب فهى تخلق فينا إحساسا مرهفا وذوقا فنيا بهما ندرك ونحكم ونميز أن هذا الكلام مطابق لمقتضى الحال فنحكم له بالصحة أو غير مطابق للهدف فنحكم عليه بأنه غير بليغ وهذه فائدة نقدية.

الفرق بين علم البلاغة وفن البلاغة

عندما نقول: "علم البلاغة" نقصد بذلك القواعد والأسس والنظريات التى بها نعرف إن كان الكلام مطابقا لمقتضى الحال أو غير مطابق بليغا أو غير بليغ وذلك كدراسة الإسناد الخبرى وأحوال المسند إليه وأحوال المسند .... وقواعد التشبيه والاستعارة والكناية...... الخ. كل ذلك يسمى (علم البلاغة).

أما إذا أخذت فى تطبيق هذه القواعد وضرب الأمثلة والشواهد والإتيان بالكلام البليغ الدال عليها كآيات من القرآن الكريم أو أبيات من الشعر أو قطع نثرية فإن ذلك يسمى (فن البلاغة).

فعلم البلاغة:

دراسة القواعد والأسس والنظريات.

وفن البلاغة:

تطبيق على هذه القواعد وتأليف كلام بليغ فهو شىء عملى.
وفن البلاغة يحتاج إلى ملكة وموهبة واستعداد فطرى كما يحتاج إلى تعليم وتدريب وخبرة لكى يأتى الإنسان بالكلام البلاغى المؤثر المعبر.

فالفن البلاغى يأتى إذا توفر عاملان:

الأول: الموهبة وهى من عند الله -عز وجل- **الثانى:** الدراسة لتصقل هذه الموهبة وتنميها وتقويها حتى تؤتى ثمارها المرجوة.

فهيا بنا إلى هذه الدراسة لنتمكن بعون الله وتوفيقه من: علم البلاغة وفن البلاغة.

الفصاحة والبلاغة

اعتاد البلاغيون أن يدرسوا الفصاحة والبلاغة بين يدى دراساتهم لعلم المعانى لأنهم يعدون الحديث عنهما من مقدمات علوم البلاغة التى تبدأ بعلم المعانى ولتوقف معرفة معانيها على معرفة معنى الفصاحة والبلاغة.

واللفظ العربى هو موضوع العلوم العربية من حيث مادته فى متن اللغة أو من جهة نسبة الألفاظ إلى بعضها فى علم الاشتقاق أو من حيث ضبطه أو وزنه أو إعرابه أو بنائه أو تصويره مفردا ومركبا فضلا عن شرحه وبيان معناه فى علمى النحو والصرف، والبلاغة تبحث اللفظ العربى من حيث مطابقته لمقتضى الحال أو إيراده بطرق مختلفة الدلالة وضوحا وخفاء أو من جهة تحسينه

وتزيينه أو حسنه أو قبحه[١].

وقد ذهب الجاحظ رحمه الله (م.ت ٢٥٥هـ) إلى أن البلاغة والفصاحة مما استأثرت به العربية ولا توجدا في غيرها من اللغات[٢]، ولكن الانصاف في ذلك ما ذهب إليه أبو هلال العسكرى (م.ت ٣٩٥هـ) -رحمه الله- من القول بوجود الفصاحة والبلاغة فى كل اللغات وفى ذلك يقول: العجم والعرب سواء فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه فى الأولى[٣].

أقوال القدماء فى معناهما:

اهتم علماؤنا بدراسة الفصاحة والبلاغة وذكروا أقوالا كثيرة فى معناهما ولكنهم كانوا كما قال بهاء الدين السبكى (م.ت ٧٧٣هـ) -رحمه الله- لا يقصدون بها حقيقة الحد ولا الرسم وإنما كانوا يقصدون ذكر أوصاف للبلاغة والتنويه ببعض ما يستحق التنويه من نواحيها[٤]. ومن تلك الأقوال ما حكى عن أرسطو أنه قيل له:

١- رسالة فى أن صاحب المعانى يشارك اللغوى لابن كمال باشا مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٢٦ مجاميع /٢٣.

٢- البيان والتبيين ١٣/٣، ٢١٢.

٣- ديوان المعانى ٨٩/٢.

٤- عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ٣٠/١ من شروح التلخيص.

ما البلاغة؟ فقال: حسن الاستعارة.

ومنها قول أكثم بن صيفي في خطبة له: البلاغة: الإيجاز ومنها قول بعض أهل الهند جماع البلاغة النظر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة[١]. ومنها قول عبد الحميد الكاتب: البلاغة تقرير المعنى فى الأفهام من أقرب وجوه البيان، ومنها قول أعرابى: أبلغ الكلام ما قل مجازه وحسن إيجازه وكثر إعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه " إلى غير ذلك من أقوال القدماء الكثيرة فى البلاغة.

وأما أقوالهم فى الفصاحة فنادرة وكان أكثرهم لا يفرق بينهما فى المعنى. فقد نقل عن أفلاطون: أن الفصاحة لا تكون إلا لموجود والبلاغة تكون لموجود ومفروض.

وقال العاص بن عدى: "الشجاعة قلب ركين والفصاحة لسان رزين واللسان فى كلامه: اللفظ والرزين: الذى فيه فخامة وجزالة[٢] وقال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان[٣] فهى مقصورة على اللفظ أيضا لأن الآلة وهى اللسان تتعلق باللفظ دون المعنى[٤]. ولهذا

١- عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ١٢٦/١،١٢٨.

٢- كتاب الصناعتين /١٨.

٣- نفسه /١٦.

٤- البلاغة العالية، علم المعانى للشيخ عبد المتعال الصعيدى تقديم ومراجعة أ.د/ عبد القادر حسين /٧.

لا يجوز أن يسمى الله -تعالى- فصيحا إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة ولا يجوز على الله -تعالى- الوصف بالآلة ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمام البيان والدليل على ذلك أن الالثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف وقيل زياد الأعجم لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف، فهو أعجم وشعره فصيح لتمام بيانه.

ومثل هذه الأقوال الوجيزة منثورة هنا وهناك بكثرة بالغة ومعظمها يجعل الفصاحةوالبلاغة مترادفتين ولكن الفصاحة والبلاغة قد أخذتا شيئا من التمبيز على يد علماء البلاغة الأوائل إبان القرن الرابع الهجرى وما تلاه. بعد أن كان المراد بهما شيئا واحدا.

ومن ثم فقد رأينا العلامة أبا هلال العسكرى (م.ت ٣٩٥هـ) يقول فى تعريف البلاغة: إنها مأخوذة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ... فهى كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن" فالبلاغة عنده: إيضاح المعنى وتحسين اللفظ معا.

وأما الفصاحة فذكر أنهم اختلفوا فيها فقال قوم: إنها مأخوذة من قولهم: أفصح فلان عما فى نفسه إذا أظهره وعلى هذا ترجع الفصاحة والبلاغة إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما فى اللغة، وقال بعض العلماء: إن الفصاحة تمام آلة البيان وعلى هذا تكون

الفصاحة مقصورة على اللفظ وحده ويكون من الكلام ما هو فصيح وليس ببليغ كما يسمى الببغاء فصيحا ولا يسمى بليغا لأنه يقيم الحروف ولا يقصد إلى المعنى الذى تؤديه. وقال قوم: إن الكلام لا يسمى فصيحا إلا إذا كان واضح المعنى سهل اللفظ جيد السبك غير مستكره ولا متكلف وجمع إلى هذا فخامة وشدة وجزالة وعلى هذا يكون من الكلام ما هو ببليغ وليس بفصيح كقول إبراهيم العباس:

تمر الصبا صفحا بساكنة الفضا ويصدع قلبى أن يهب هبوبها

قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كل نفس حيث حل حبيبها

فالبيت الأول فصيح وبليغ والبيت الثانى بليغ وليس بفصيح لأنه ليس فيه فخامة ولا شدة وجزالة[1]. ولكن أبا هلال عاد بعد هذا فذكر: أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وحده لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى، وإنما الشأن فى جودة اللفظ وصفائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف ولا يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بهذا حتى يكون على تلك الأوصاف السابقة فإن خلا منها لم يكن بليغا وإن بلغ معناه ما بلغ وهذا كقول ابى تمام:

١- الصناعتين ١٥-٢٢.

مستسلم لله سائس أمـــــة بذوى تجهضمها له استسلام[1]

فإنه صواب اللفظ وليس هو بحسن ولا مقبـول وهـذا بخـلاف قول كثير عزة:

ولما قضينا من منى كل حاجـــــة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــــا وسالت بأعناق المطى الأباطح[2]

فليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ولكنها رائقة معجبة وإنمـا هى: ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان وشدت رحالنا على مهـازيل الإبل ولم ينتظر بعضنـا بعضـا جعلنـا نتحدث وتسير بنـا الإبـل فـى بطون الأودية[3].

ولكننا نرى فى هذه الأبيات معنى كبيرا كما نرى أن فى حكم أبـى هـلال ومـن قبلـه كـابن قتيبـــة[4] (م.ت ٢٧٦هـ) جـورا كبـيرا.

١- الجهضمة: الوثوب والغلبة.

٢- أطراف الأحاديث: ما يستطرف منها ويؤثر.

٣- الصناعتين ٧٢-٧٤.

٤- الذى قال فيها: إنها كفارغ بندوق، وذكرها شاهدا- وهو يتحدث عن أقسام الشعر- للضرب الذى حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هنـاك فـائدة فى المعنى (الشعر والشعراء ١٣/١).

وقد أشاد الإمام عبد القاهر الجرجانى وتلاميذ مدرسته بهذه الأبيات وسلكوها فى اطار المجاز العقلى الخاصى النادر والاستعارة الخاصية النادرة[١] وقال ابن رشيق "م.ت ٤٦٣هـ" -رحمه الله- "لا يكون الكلام يستوجب اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك"[٢].

وقال ابن سنان الخفاجى "م.ت ٤٦٦هـ" -رحمه الله- "الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى، وعلى هذا لا يقال فى كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها إنها بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة، فكل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغا، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه والفصاحة على ذلك شطر البلاغة وأحد جزءيها، ولها شروط إذا تكاملت فى الألفاظ فلا مزيد على فصاحتها ويحسب الموجود منها تأخذ القسط من المدح وبوجود أضدادها تستحق الإطراح والذم وتلك الشروط تنقسم قسمين: فالأول منهما يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن يضم إليها شىء من الألفاظ وتؤلف معه، والقسم الثانى يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع

١- دلائل الإعجاز ٧٤، ٧٥، ٢٩٤، ٢٩٦.

٢- العمدة ١/٢٤٥.

بعض[١]، وقد قام كتابه على تفصيل تلك الشروط وبيان ما يخل بالفصاحة والبلاغة فى الكلام وما يتحققان به فيه.

أما الشيخ عبد القاهر الجرجانى "م.ت ٤٧١ أو ٤٧٤هـ" – رحمه الله– فيرى أن كلا من البلاغة والفصاحة وما شاكلهما يرجع إلى حسن دلالة الكلام على معناه فى صورة بارعة من التعبير ولا وسيلة إلى ذلك إلا باختيار العبارة التى هى أشد اختصاصا به وكشفا عنه وإظهارا له. فهما (أى البلاغة والفصاحة) مترادفان عنده[٢].

وقد حاول الخطيب القزوينى (م.ت ٧٣٩هـ) –رحمه الله– أن يجمع بين كلامى الشيخ عبد القاهر فى ذلك بحمل كلامه حيث نفى أن الفصاحة والبلاغة من صفات اللفظ على نفى أنهما من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب وحيث أثبت أنهما من صفاته على أنهما من صفاته باعتبار إفادته المعنى عند التركيب[٣].

وقيل: إن الشيخ عبد القاهر الجرجانى لا يرى الفصاحة والبلاغة فى اللفظ ولا فى المعنى وإنما هما عنده فى نظم الكلام أى فى الأسلوب[٤]، والنظم عنده عبارة عن: توخى معانى النحو فيما بين

١– سر الفصاحة ٥٩ وما بعدها.

٢– دلائل الإعجاز ٤٣–٦٥.

٣– الإيضاح /٩.

٤– البلاغة العالية /٩.

الكلم بمعنى أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه "علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التى رسمت لك، فلا يخل بشىء منها[1] كالتقديم والتاخير والذكر والحذف والتعريف والتنكير وما إلى ذلك كما فى قول إبراهيم بن العباس للوزير محمد بن عبد الملك الزيات:

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسلط أعداء وغلب نصير

تكون عن الأهواز دارى بنجوة ... ولكن مقادير جرت وأمور

وإنى لأرجو بعد هذا محمدا ... لأفضل ما يرجى أخ ووزير

فإنك لا ترى فيه من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة إلا من أجل تقديمه الظرف الذى هو: "إذ نبا" على عامله الذى هو "تكون" وأن قال "تكون" ولم يقل "كان" ثم نكر الدهر وساق هذا التنكير فى جميع ما أتى به من بعد، ثم أن قال "وأنكر صاحب" ولم يقل وأنكرت صاحبا" وكل ذلك من معانى النحو كما ترى وهكذا السبيل أبدا فى كل حسن ومزية رأيتهما قد نسبا إلى النظم وفضل وشرف أحيل فيهما عليه[2].

مع ملاحظة أن الشيخ عبد القاهر لا يريد من هذا أن المزية

١- دلائل الإعجاز ٨١ تحقيق الأستاذ الشيخ/ محمود محمد شاكر.

٢- المصدر السابق/٨٦.

واجبة لهذه المعانى النحوية فى أنفسها وإلا وجب أن يروقك التنكير أبدا أو التعريف ابدا وهكذا. وإنما يحسن ذلك عنده بإصابته مواقعه وموافقته أغراضه[1] على ما سيأتى من اعتبار المطابقة لمقتضى الحال فى معنى البلاغة.

وبهذا يظهر أن اعتبار هذه المعانى عند الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى الفصاحة والبلاغة غير اعتبارها فى علم النحو فاعتبارها فى البلاغة يقوم على تطبيقها على أغراضها ودواعيها فى الكلام واعتبارها فى النحو يقوم على بيانها فى أنفسها، ليكون الكلام صحيحا لا خطأ فيه ولكن يجب أن يعرف أن البلاغة والفصاحة لا تقومان على توخى معانى النحو وحدها عنده كما قيل فيما سبق، بل تقومان عنده على ذلك وعلى غيره من الإيجاز والإطناب والمجاز والكناية، وغير ذلك من المعانى البيانية والبديعية، وقد قال فى البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة:

"إنه لا معنى لهذه العبارات وما يجرى مجراها غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد وذلك بأن تأتى بالمعنى من الجهة التى هى أصح

---

[1]- دلائل الإعجاز ٨٧.

لتأديته وتختار اللفظ الذى هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية[1].

والخلاصة: أن الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- قد ذهب إلى أن الكلمة العربية تكون فصيحة إذا كانت فى اللغة أثبت، واستعمال الفصحاء لها اكثر، والفصاحة والبلاغة عنده بمعنى واحد، وقد أخذ عنه رأيه هذا الزمخشرى (م.ت ٥٣٨هـ) ثم الرازى[2] (م.ت ٦٠٦هـ) -رحمهما الله-.

وأما العلامة السكاكى (م.ت ٦٢٦هـ) -رحمه الله- فقد فرق بينهما فقال: "البلاغة هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها .... وأما الفصاحة فهى قسمان: قسم راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد[3]. وقسم راجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور واستعمالهم لها

---

[1]- دلائل الإعجاز /٤٣.

[2]- راجع نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى تحقيق أ.د/ أحمد حجازى السقا ٥٨، ما بعدها.

[3]- يعنى به التعقيد اللفظى أما التعقيد المعنوى فخلوص الكلام منه يدخل عنده فى البلاغة لا فى الفصاحة. وسيأتى بيانهما إن شاء الله تعالى.

أكثر لا مما أحدثه المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة وأن تكون أجرى على قوانين اللغة وأن تكون سليمة من التنافر[١]. وعلى ذلك لا تكون الفصاحة عنده لازمة للبلاغة كما رأى ابن سنان الخفاجي.

وأما العلامة ابن الأثير (م.ت ٦٣٧هـ) -رحمه الله- فقد ذهب إلى أن فصاحة النظم تقوم على أمرين أولهما: اختيار المفردات، وثانيهما: نظم كل كلمة مع أختها شريطة ألا تكون الألفاظ قلقة ولا متنافرة. ومع مراعاة الغرض المسوق له الكلام بحسب المقامات يتأتى مفهوم البلاغة، وهما معا -أي الفصاحة والبلاغة- تقعان وصفا للكلام والمتكلم على حين أن الفصاحة وحدها تقع وصفا للكلمة المفردة فلا يجوز أن تقول: هذه كلمة بليغة إلا إذا قصدت من الكلمة ما يقصد من الكلام[٢].

ثم جاء الخطيب القزويني (م.ت ٧٣٩هـ) -رحمه الله- بعد هؤلاء الأئمة وفصل في كتابيه "تلخيص المفتاح" و"الإيضاح" ما أجملوه من ذلك أحسن تفصيل وهذبه أجمل تهذيب، فتحدث عن الفصاحة والبلاغة وغيرهما من الألوان البلاغية وبين ما يوصف بكل منهما.

١- مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور /٤١٥، ٤١٦.

٢-راجع المثل السائر ١/١١٢-١٢٠، تحقيق أ.د/ أحمد الحوفى، أ.د/ بدوى طبانة دار نهضة مصر.

أولا: الفصاحة وبيان ما يوصف بها:

إن الفصاحة فى اللغة: تنبىء عن الإبانة والظهور، قال تعالى حكاية عن سيدنا موسى -عليه السلام- "وأخى هارون هو أفصح منى لسانا"[١] أى أبين منى منطقا وقولا. وقال عليه الصلاة والسلام: أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش"[٢] وروى هذا الحديث بلفظ: أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر"[٣]. يقال: أفصح فلان عما فى نفسه أى أعرب عنه، ويقال: أفصح الصبى فى منطقه، وفصح فيه إذا فهم ما يقول أول أمره، أو إذا بان وظهر كلامه، وفصح الرجل: إذا كان لسانه سلسا وبيانه جميلا، كما يقال: أفصح الأعجمى وفصح إذا انطلق لسانه وخلصت لغته من اللكنة وجادت فلم يلحن، ويقال: أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه وانبثق نوره ومنه المثل الشائع الذى يضرب للشىء يظهر بعد استتاره" أفصح الصبح لذى عينين" أى ظهر، كما يقال: هذا يوم مفصح أى واضح جلى لا غيم فيه، ويقال: أفصح اللبن إذا نزعت رغوته، فظهر كما يقال: سقاهم لبنا فصيحا، أى منزوع الرغوة،

١- سورة القصص ٣٤.

٢- قال عبد الله بن رواحة فى مدح الرسول - -:

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت فصاحته تنبيك بالخبر

٣- النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير /١.

ومنه المثل المعروف الذى يضرب للأمر ظاهره غير باطنه: "وتحت الرغوة اللبن الفصيح"[١]. ولعلك تتفق معى بعد قراءة هذه الأمثلة أن الفصاحة لم توضع لمعنى الإبانة والبيان والكشف والظهور وإنما وضعت لمعان يدل جميعها على هذا المعنى بطريق اللزوم، ولعل هذا هو السر فى قول سعد الدين التفتازانى "م.ت ٧٩٢هـ" -رحمه الله- بيانا لمعناها لغة: هى فى الأصل تنبىء عن الظهور والإبانة"[٢].

وأما الفصاحة فى اصطلاح البلاغيين: فتختلف باختلاف ما تضاف إليه إذ يمتنع جمع المعانى المختلفة فى أمر يشملها فى تعريف واحد، فهى تضاف إلى المفرد فيقال: فصاحة المفرد، وتضاف إلى الكلام فيقال: فصاحة الكلام وتضاف إلى المتكلم فيقال: فصاحة المتكلم. كما تقع وصفا كذلك للكلمة والكلام والمتكلم فيقال: كلمة فصيحة، وكلام فصيح ومتكلم فصيح.

وأما الفصاحة عند الخطيب القزوينى فهى: ما يوصف به المفرد والكلام والمتكلم يريد أن معناهما يختلف باختلاف موصوفها وهو أحد ثلاثة: الكلمة والكلام والمتكلم.

غير أن فى تعريف الخطيب القزوينى للفصاحة قصورا إذ لم

---

[١]- راجع لسان العرب لابن منظور مادة: فصح.

[٢]- شرح السعد المسمى مختصر المعانى فى علوم البلاغة ٤/١ تحقيق الشيخ محى الدين.

يشمل المركب الناقص وبيان ذلك: أن المركب الناقص ليس بكلمة لأنها قول مفرد، والمفرد ما قابل المركب. وليس بكلام لأن الكلام خاص بالمركب التام وهو اللفظ المركب المفيد فائدة يحسن السكوت عليها.

فالمركب الناقص إذا خارج عنهما ومقتضى ذلك أن لا يتصف بالفصاحة مع أنه يوصف بها قطعا، فيقال: هذا مركب فصيح كما فى قول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوما   وزججن الحواجب والعيونا

فإن هذا البيت من قبيل المركب الناقص، إذ لا يفيد معنى يحسن السكوت عليه لعدم ذكر الجواب الذى هو محط الفائدة مع أنه فصيح بالإجماع لخلوه من العيوب المخلة بالفصاحة على ما سيأتى:

أجاب محمد بن مظفر الخطيبى الخلخالى (م.ت ٧٤٥هـ) – رحمه الله– ردا لهذا الاعتراض: بأن يعمم فى الكلام، أى أن يراد به المركب مطلقا – تاما كان أو ناقصا على سبيل المجاز المرسل من إطلاق الخاص وإرادة العام، وحينئذ يشمل المركب الناقص كالبيت المذكور، ووافقه على ذلك العلامة السيد الشريف "م.ت ٨١٦هـ" حيث قال فى تعريفه للكلام بأنه هو: المركب مطلقا

مجازا[١].

ورد سعد الدين التفتازانى هذا الجواب: بأنه إنما يصح هذا التأويل لو أن العرب أطلقوا على المركب المذكور كلاما فصيحا ولم ينقل عنهم ذلك بل المنقول عنهم وصفه بالفصاحة لا وصفه بأنه كلام فقالوا فيه: هذا مركب فصيح ولم يقولوا: هذا كلام فصيح ووصف المركب بالفصاحة لا يستلزم وصفه بأنه كلام. فاشتمال الكلام على المركب الفصيح حينئذ غير مسلم. على أن وصف المركب بالفصاحة يحتمل أن يكون باعتبار مفرداته لا باعتبار ذاته فمعنى قولهم: هذا مركب فصيح أن مفرداته فصيحة فيكون حينئذ داخلا فى المفرد من غير تأويل فيه[٢] وعلى ذلك ينهدم الاعتراض المذكور من اساسه.

ويقول العلامة عبد الحكيم السيالكوتى "م.ت ١٠٦٧هـ" – رحمه الله– لا نسلم أن المركب الناقص يتسم بالفصاحة فى نفسه بل اتصافه بها من جهة أن مفرداته متصفة بها وأما باعتبار التركيب فلا، لأنه لا استعمال له إلا بطريق الجزئية للمركب التام، وهذا بخلاف الكلمة فإن استعمالها وإن كان بطريق الجزئية أيضا إلا أن خلوصها أى فصاحتها –غير خلوص–أى فصاحة– الكلام. ومن

١– حاشية السيد الشريف على المطول /١٥.

٢– شرح السعد ١/٤١،٤٢.

ناحية أخرى فإن إدخال المركب الناقص فى الكلام يقتضى اتصافه بالبلاغة وهذا باطل، ويمضى العلامة عبد الحكيم فيقول: إن المركب الناقص ليس من الكلمة ولا من قبيل الكلام ولا يتصف بالفصاحة أو البلاغة فى نفسه[1].

والجواب الذى أميل إليه ردا للاعتراض هو:

أن يعمم فى المفرد بأن يراد به ما ليس كلاما أى مركبا تاما ليشمل المركب الناقص لأنه لم يعهد اطلاق الكلام على المركب مطلقا الشامل للتام والناقص إلا بالحمل على المجاز المرسل كما ذكرنا. أما إطلاق المفرد على ما ليس كلاما فحقيقة عرفية كإطلاقه على ما ليس مثنى ولا مجموعا فى باب الإعراب وكإطلاقه على ما ليس مضافا ولا شبيها بالمضاف فى باب المنادىوكإطلاقه على ما ليس جملة ولا شبيها بها فى باب المبتدأ والخبر والحمل على الحقيقة أولى من الحمل على المجاز لأنه خلاف الأصل والقرينة على أن المراد بالمفرد هنا ما ليس كلاما هى: مقابلة المفرد بالكلام.

وإذا كان الأمر كذلك فما فصاحة المفرد؟

هى: جريان الكلمة على النسق العربى من التلاؤم بين حروفها ووضوح دلالتها وموافقتها للوضع اللغوى وعشق الأذن لها.

---

[1] - حاشية عبد الحكيم السيالكوتى على المطول /٢٣.

وهذا معنى قول الخطيب القزوينى: "أما فصاحة المفرد فهى: خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوى"[١] ووجه حصر فصاحة المفرد فى السلامة من هذه العيوب الثلاثة أن كل مفرد له مادة هى: حروفه، وله صورة هى: صيغته وله دلالة على معناه وحينئذ فعيب المفرد إما فى مادته وهو التنافر وإما فى صورته وهو مخالفة الوضع العربى وإما فى دلالته على معناه وهو الغرابة.

ولاشك فى أنه بسلامة المفرد من هذه العيوب تسلم مادته وصيغته ومعناه من الخلل. وهاك بيان العيوب الثلاثة المخلة بفصاحة المفرد.

١- تنافر الحروف:

وهو: وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللسان ويعسر النطق بها وتكرهها الأسماع وهو قسمان، تنافر شديد ثقيل، وتنافر دون الثقيل وقريب منه.

فالأول: كلفظ: الظش: للموضع الخشن. والقيدحون كحيزيون: للسيء الخلق، والقندحر كجردحل للمتعرض للناس واقد حر بمعنى تهيأ للشرب والسباب والقتال ومنه قولهم: وقعوا فى

١- الايضاح /٤.

قدحرة وقندحرة بحيث لا يقدر عليهم[١]. ومنه أيضا لفظ: زيزيزم: لحكاية أصوات الجن. وكلفظ: "الهعخع" في قول الأعرابي عندما سئل ناقته فقال: تركتها ترعى الهعخع وهو: شجر مر المذاق كريه الرائحة كأنه هذه الكلمة التى لا يطاق النطق بها وقيل: إنها كلمة للمعاياة تحكى صوت المتقىء لا أصل لها وتنطق بصور كثيرة[٢]. ولم لا تكون هذه الكلمة لفظا مخترعا للثقل وأنه لا معنى له؟[٣] ومما يقوى ذلك أنك لن تجدها فى المعاجم اللغوية كالصحاح واللسان وتاج العروس والقاموس المحيط. فهذه الكلمات غير فصيحة لما فيها من تنافر الحروف، تنافرا شديدا يشعر به كل ناطق وهو خلل واقع فى مادتها.

والثاني: كلفظ: النقاخ بضم النون وهو: الماء العذب وذلك فى قول الشاعر:

وأحمق ممن يكرع الماء قال لى   دع الخمر واشرب من نقاخ مبرد

ومنه أيضا لفظ "جعجعة" فى المثل العربى المشهور الذى يضرب لمن يكثر قوله ويقل فعله: أسمع جعجعة ولا أرى طحنا" وكذا لفظ: ارتخش بمعنى اضطرب والسجسج أى الأرض ليست

١- بحوث المطابقة لمقتضى الحال أ.د/ على البدرى /١٢٠،١٢١.

٢- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١/٧٨،٧٩.

٣- راجع خصائص التراكيب /٣٢.

سهلة ولا صلبة. ومن ذلك لفظ: مستشزرات" في قول امرىء القيس وهو يتحدث عن شعر محبوبته ويصفه بالغزارة أو الكثافة والطول:

وفرع يزين المتن أسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثكـل

غدائره مستشزرات إلى العلا   تضل المدارى فى مثنى ومرسل[١]

فالشاعر هنا: يصف محبوبته بكثافة الشعر وغزارته وأنه مرتفع فوق رأسها وأنه لكثافته متنوع الأوصاف وأن أمشاطها تغيب بين الشعر المفتول والشعر المرسل.

أما العلة في تنافر الحروف وثقلها فى الأذن واللسان فقد أرجع البلاغيون أسبابها إلى ما يلى:

١- قرب مخارج الحروف أو بعدها وقالوا: إن البعد الشديد بين مخارج الحروف يكون بمنزلة الطفر -أى القفز أو الانتقال السريع من حالة إلى أخرى- والقرب الشديد بينهما يكون بمنزلة

١- الفرع: الشعر والمتن: الظهر والأثيث: الغزير أو الكثيف الشعر وقنو النخلة: عنقودها، والمتعثكل: المتراكم والغدائر: الذوائب جمع غديرة وهى الخصلة من الشعر، وهى المسماة بالضفيرة والضمير فيها عائد على الفرع فى البيت قبله. ومستشزرات: بكسر الزاى اسم فاعل معناه: مرتفعات وبفتح الزاى اسم مفعول معناها: مرفوعات وتضل: تغيب وتختفى والمدارى: الأمشاط مفردها: مدرى بكسر فسكون والمثنى: المفتول والمرسل: غير أو خلاف المفتول.

مشى المقيد الذى يثقله القيد لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه وكلاهما صعب على اللسان والعرب قد بنيت لغتهم على الخفة ولذا رأيناهم يعمدون إلى إدغام المثلين والمتقاربين نحو: رد ومد وشد واضطر وإلى الإبدال فى نحو اصطبر وذلك دفعا للثقل[١].

وبتطبيق هذا السبب على بعض أمثلة التنافر السابقة نجد أن سبب التنافر فى لفظ "الهعخع" راجع إلى تقارب حروفه فى المخرج لأن الهاء والعين والخاء خارجة كلها من مخرج واحد وهو الحلق إلا أن بعضها خارج من أقصاه وبعضها من قريب منه وكذا لفظ "مستشزرات" لأن حروفه ما عدا الميم خارجة من مخرج واحد هو اللسان غير أن بعضها خارج من طرفه وبعضها من وسطه، وقيل إن التنافر هنا ليس راجعا إلى قرب المخرج وإنما هو تنافر يحسه السمع وتكرهه الأذن، والأذن عند البلاغيين قاض فى النغم نافذ فى القضاء ولذلك نرى بعضهم يضيف إلى الأصول التى ذكرناها فى فصاحة المفرد: أن تكون خالية من كراهة السمع أى أن تحظى موسيقاها عند الأذن بالقبول ومن هنا ردوا كلمة "الجرشى" بكسر الجيم وتشديد الشين بمعنى النفس فى بيت المتنبى وهو يمدح سيف

١- راجع النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل /٨٨ وسر الفصاحة /٦٤.

الدولة:

مبارك الاسـم أغر اللقب كريم الجرشى شريف النسب[١]

لأن المقام مقام مدح ومقام المدح هنا فى هذا البيت تلائمه الكلمة العذبة الخفيفة التى تتلاءم مع بقية الألفاظ المذكورة وتمضى معها فى تناسق تام، ولو كان المقام مقام هجاء لما نفرت الأذن من سماع هذه الكلمة فلو قيل فى مقام ذم: لئيم الجرشى قبيح النسب لاستساغت الأذن ذلك ولم تنفر من قبول كلمة "الجرشى" وبهذا يتضح أن كراهة الكلمة فى السمع يتوقف على المقام وسياقات الكلام فما تكرهه الأذن فى موضع وتأبى سماعه قد تستسيغه وتميل إليه فى سياق آخر[٢].

ونقول إن الكراهة فى السمع لا سبب لها إلا الغرابة التى جاءت من ذات اللفظ "الجرشى" فلو نطق بها إنسان حسن الصوت مثلا فلا ينفى غرابته وقبحه وكذلك لو لهج به إنسان قبيح الصوت فلا يزيل قبحه.

ومع أنه لا يمكن إنكار ما لمخارج الحروف وصفاتها وهيئة تأليفها من أثر فى ثقل الكلمة وخفتها إلا أنه ينبغى أن يكون المعول

١- خصائص التراكيب /٣٣.

٢- علم المعانى ٢٠/١.

عليه فى ذلك هو: الذوق[١] العربى السليم، فنحن نرى الكلمة قد تـألفت من حروف متقاربة وليست ثقيلة نحو قولـه تعـالى: "ألـم أعهـد إليكم يا بنى آدم"[٢] فلا ثقل فى كلمة "أعهد" مع قرب مخرج الهمزة والعيـن والهاء، وكما فى قولنا: "ذقته بفمى" فالباء والفاء والميم أحرف شفوية متقاربة ولا ثقل فيها، كما لا نحس تنافرا فى مثـل: "علـم وملـح" مـع تباعد العين والميم والحاء فى المخرج.

ولو اعتبرنا التباعد فى المخرج أو التقارب فيـه منشـأ للتنـافر المخل بالفصاحة لاقتضى ذلك وقوع غير الفصيح فى القرآن الكريم، وورود غير الفصيح فى القرآن المعدود فى أعلـى طبقـات الفصاحـة مما لا يؤمن به عاقل ويؤيدنا فى ذلك أن القرآن الكريم يبتعد عن كل ما يشوب الكلمة من ثقل أو تنافر فنراه يستعمل جموع بعض الألفـاظ ولم يستعمل المفرد وإذا احتـاج إليـه اسـتعمل مرادفهـا فمثـلا لفظـة: "اللب" فإنها لم ترد إلا مجموعة كقولـه تعـالى: "إن فـى ذلـك لذكـرى لأولى الألباب"[٣] وقوله "وليذكر أولوا الألباب"[٤] ونحوهما، ولم تأت فيه مفردة، بل جاء فى مكانها "القلب" كقوله تعالى: "إن فى ذلـك لذكـرى

١- الـذوق هـو: اسـتعداد خـاص يهيـىء صاحبـه لتقديـر الجمـال والاسـتمتاع بـه ومحاكاته بقدر ما يستطيع فى أعماله.

٢- سورة يس ٦٠.

٣- سورة الزمر ٢١.

٤- سورة إبراهيم ٥٢.

لمن كان له قلب"[١]، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ولا يفضى إلى هذه الشدة، إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة لم تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها "نصبا أو رفعا أو جرا" فأسقطها من نظمه بتة ..... على أن فيه لفظة "الجب" وهى فى وزنها ونطقها ولولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة فى الجيم المضمومة ... وعكس ذلك لفظة "الأرض" فإنها لم ترد فى القرآن الكريم إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة فى كل موضع منه، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التى ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة، وهى فى قوله تعالى "الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن"[٢]، ولم يقل سبع أراضين لما فى هذا من الخلل فى اللفظ وعدم التناسق فى النظم. فهل تتلاحق هذه الأسباب الدقيقة أو تتيسر مادتها الفكرية لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة أو بتكلفة من القول، وإن استقصى فيه الذرائع وبالغ الأسباب، وأحكم ما قبله وما وراءه .. وهل تجد فى سر الفصاحة وفى روعة الاعجاز أروع من هذا؟ وأى عربى

---

[١]- سورة ق ٣٧.

[٢]- سورة الطلاق ١٢.

فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسه ولا يسوغه حقيقة نفسه ولا يجن به جنونا ولا يقول آمنت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالقرآن معجزة"[١] وهذا مما يعلمك أن السر فى ذلك هو الذوق السليم والطبع المستقيم فى التفرقة بين اللفظتين"[٢].

هذا، وثقل الكلمة فى النطق ليس معيبا فى جميع الأحوال وعلى الإطلاق بل إذا اقتضاه المقام كان من أهم مظاهر فصاحة الكلمة من حيث إن هذا الثقل يصور معناها بحق. انظر إلى كلمة "اثاقلتم" فى قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض"[٣] تجد فيها قدرا من الثقل الفصيح لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض واستشعارهم مشقة الجهاد وعزوف أرواحهم عنه وقد دعوا إليه فى عام العسرة، فكان منهم ما وصفت الآية، ولذا جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم فقال سبحانه وتعالى: "إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا"[٤] وانظر إلى كلمة "اطلخم" فى قول أبى تمام:

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى /٢٣٢-٢٣٤.

٢- الطراز ٤٨/٣.

٣- سورة التوبة /٣٨.

٤- سورة التوبة /٣٩.

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت   عشواء تالية غبسا دهاريسا[١]

تجد أن الثقل فيها يتلاءم مع الشدة والظلام والدواهى التى يصورها البيت ومن هنا لا عيب فيها وثقلها من أهم مظاهر فصاحتها، وذهب أحد الباحثين إلى القول بأنه لا يجد عيبا فى كلمة "مستشزرات" فى بيت امرىء القيس السابق لأنها لاءمت المقام، حيث يصف شعرا كثيفا غزيرا قد تراكم وصار كقنو النخلة المتعثكل[٢]. ففى صوت الكلمة حكاية دقيقة لمعناها من حيث إن التفشى الذى تلحظه فى صوت الشين وانتشار الهواء وامتلاء الفم به حين النطق يشبه إلى حد كبير انتشار الشعر وتشعيثه وذهابه هنا وهناك، ولكن بطء الكلمة وثقلها على اللسان يذهب بهذه المزية فيها من حيث إنه يتعارض مع خفة معناها لأنها تصف شعرا جميلا يرتفعع إلى العلا[٣].

٢- وقد يأتى تنافر الحروف وثقلها فى الأذن واللسان، من طول حروف الكلمة بمعنى أن تكون الكلمة مكونة من حروف كثيرة مثل "كلمة سويداواتها" فى قول المتنبى:

١- اطلخم الأمر: اشتد وتعقد، والعشواء: الناقة التى لا تبصر ليلا، وغبسا: جمع غبساء وهى: الظلام الشديد. والدهاريس: جمع دهريس، وهى الدواهى.

٢- علم المعانى د/ بسيونى فيود ١٥/١.

٣- خصائص التراكيب /٣٣.

إن الكرام بلا كرام منهـــــم مثل القلوب بلا سويداواتها[1]

ومثل كلمة "مغناطيسهن" فى قول ابن نباتة:

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم ألا إن مغناطيسهن الذوائب

ومثل كلمة "سراويلاتها" فى قول الشاعر:

إنى على شغفى بما فى خمرها لأعف عما فى سراويلاتها

ورد هذا الرأى أيضا لأن الضابط المذكور غير مطرد، فقد وردت فى القرآن الكريم كلمات طويلة قد يتوهم أنها ثقيلة على اللسان لطولها، مثلا على حين أنها أريد لها -والله أعلم- أن تكون على هذا النحو من الثقل تصويرا لمعناها ومغزاها ووفاء بمقامها ومرماها، انظر مثلا إلى قوله تعالى: "فسيكفيكهم الله"[2]، وقوله تعالى: "أنلزمكموها وأنتم لها كارهون"[3] فإن لفظتى: فسيكفيكهم" و"أنلزمكموها" على ما فيهما من طول وثقل مقصودين فى مقاميهما من السياق القرآنى ليبدوا إيحاؤهما من القوة والتأييد والعون والنصرة فى الأولى، ومن الإنكار على قوم نوح -عليه السلام-

١- سويداواتها: جمع سويداء القلب: حبته والمعنى: إن الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان كرماء من هؤلاء الممدوحين صارت كالقلب بلا سويداء.

٢- سورة البقرة ١٣٧.

٣- سورة هود /٢٨.

لإعراضهم عن رسالته، ومشقتهم فى تنفيذ الآيات وهم لها كارهون -فى الثانى.

وهكذا فى كل لفظة قرآنية قد تلمح فيها ثقلا، فإن واجبك يقتضيك الرجوع إلى النص القرآنى الذى وردت فيه هذه اللفظة لتدرك حقيقة المقام الذى استدعى هذه اللفظة ومن مثله قوله تعالى: "فكبكبوا فيها هم والغاوون"[١]، فإن كثرة الحروف، وزيادتها لزيادة المعنى أى أن تكون زيادة الحروف دائما لزيادة المعنى إذا كان المعنى واحدا ومادة واحدة[٢].

وخلاصة القول: أن التنافر هو: وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها، والحاكم فى التنافر هو: الذوق السليم الذى تربى وقويت أسانيده وصار ذا قدرة على إدراك غث القول من سمينه، فما عده ا لذوق العربى السليم ثقيلا متعسر النطق فهو متنافر سواء أكان متقارب الحروف أم متباعدها وسواء أطالت حروفه أم قصرت وهذا هو الرأى الصحيح.

٢- الغرابة:

وهى: أن تكون الكلمة وحشية غير ظاهرة الدلالة على

١- سورة الشعراء /٨٤.

٢- عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى ضمن شروح التلخيص ٩١/١.

معناها، ولا مأنوسة الاستعمال عند العرب الخلص الذين عاشوا قبل فساد اللسان العربى بالاختلاط وشيوع اللحن، فيحتاج فى معرفة معناها إلى من ينقر عنها فى كتب اللغة المبسوطة. أما المحدثون الذين ظهروا بعد فساد اللغة فلا يعول عليهم فى عد الكلمة وحشية أو غير وحشية. ولذلك نجد أحد العلماء ينبه إلى ذلك فيقول معلقا على قول الخطيب القزوينى: "ينبغى أن يحمل قوله" والغرابة" على الغرابة بالنسبة إلى العرب العرباء لا بالنسبة إلى استعمال الناس ولو أراد الثانى لكان جميع ما فى كتب الغريب غير فصيح والقطع بخلافه"[1].

وللغرابة سببان أو: والغريب -باعتبار سبب غرابته- نوعان:

الأول: عدم تداول الكلمة فى لغة العرب الخلص فتحتاج فى معرفتها إلى بحث وتنقيب فى المعاجم اللغوية فتارة تقع على معناها بعد البحث والتنقيب كلفظتى: "تكأكأتم"، و"افرنقعوا" من قول عيسى ابن عمر النحوى، وقد سقط عن دابته، فاجتمع الناس حوله فقال لهم: ما لكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذى جنة افرنقعوا. فمعنى: تكأكأتم: اجتمعتم، ومعنى: افرنقعوا: انصرفوا.

ومثلها لفظ: رخاخ بفتح الراء فى قولهم: نحن فى رخاخ من

١- عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى ضمن شروح التلخيص ٨٣/١.

العيش، أى فى سعة ورغد. ومثلها لفظ: مسحنفرة: بمعنى: متسعة، فى قول امرىء القيس: رب طعنة مسحنفرة. ومثلها لفظ: اطلخم الليل بمعنى أظلم، ومثلها ألفاظ: زرجون، واسفنط وخندريس التى تطلق على الخمر، و"فدوكس" و"هرماس" على الأسد، و"الحقلد" على سىء الخلق، و"الطرموق على الطين، و"الاستمصال" على الاسهال، و"الاطرغشاش" و"الابرغشاش"[١] على الشفاء، و"الابتشاك" على الكذب.

وتارة لا تقع على معناها بعد البحث والتنقيب كلفظ "جحلنجع" من قول أعرابى يسمى أبا الهميسع: من طمحة صبيرها جحلنجع[٢]، ومثله لفظ "ترللج". فهذه الألفاظ غير فصيحة لغرابتها وعدم تداولها.

الثانى: عدم تداول الكلمة عند العرب الخلص بالمعنى الذى أريد منها، فتحتاج فى معرفتها إلى تخريج على وجه بعيد كلفظ "مسرجا" فى قول رؤبة بن العجاج:

أيام أبدت واضحا مفلجا   أغر براقا وطرفا أبرجا

١- الصناعتين: ٥٦، ٥٧.

٢- طمحة: نظرة و"صبيرها" سحابها المتراكم و"جحلنجع" لا معنى لها ويمكن أن تكون هذه الرواية مفتعلة.

ومقلة وحاجبا مزججـــا وفاحما ومرسنا مسرجا[١]

فالشاعر هنا يصف من محبوبته عدة مواضع منها الأنف فـي قوله "ومرسنا مسرجا" فقد اراد بالمرسن أنفها وهو فى الأصـل أنـف البعير، إذ هو موضع الرسن منه[٢]، ثم أطلق وأريد منـه مطلـق أنـف مجازا مرسلا. وقوله "مسرجا" غير فصيح، لأنه غريب غير ظـاهر الدلالة لعدم استـعماله بـالمعنى الذى أريد منه وهـو خلـل واقـع فـى المعنى وبيان ذلك أن "مسرجا" فى كلام الشاعر اسـم مفعـول مشـتق، وكل مشتق لابد له من أصل يرجع إليه فى الاشتقاق.

ولما لم يعلم ما أراده الشاعر بهذا اللفظ اختلف فـى تخريجـه، فقيل هو: منسوب إلـى السـيف السـريجى نسـبة إلـى حداد يقـال لـه: سريج، كان يتقن صنعها وعلى هذا فإن الشاعر يريـد أن يشـبه أنـف محبوبته بالسيف السريجى، فى الدقة والاستواء. وقيـل هـو: منسـوب

١- ضمير أبدت عائد على محبوبته فى البيت قبله ومعناها: أظهرت وواضحا صفة لموصوف محذوف أى سنا واضحا متميزا، والفلج بالتحريك تباعد ما بين الأسنان والأغر: الأبيض والبراق: اللامع والبرج بيـاض يحيط بسواد العين، والمقلة بياض العين مـع سوادها وقد يـراد بهـا الحدقـة والـتزجيج: التدقيـق مـع تقويس وفاحمـا صفـة لموصـوف محـذوف أى: شـعرا أسـودا كالفحم فهو من نسبة المشبه للمشبه بـه والمرسـن اسم لمحل الرسـن وهـو أنف البعير.

٢- هو مقود البعير.

إلى السراج[1] أى المصباح، وعليه فالشاعر يشبه أنف محبوبته بالسراج فى البريق واللمعان والرونق والضياء، وهذا التأويل قريب من قولهم سرج الله وجهه بمعنى: بهجه وحسنه.

وعلى كلا القولين فإن هذا اللفظ غير ظاهر الدلالة لأن صيغة "فعل" بالتشديد إنما تدل فقط على مجرد نسبة شيء إلى شيء، فيقال: كفر فلان فلانا: نسبه إلى الكفر، أما النسبة التشبيهية التى يكون المنسوب فيها شبيها بالمنسوب إليه فلا تدل عليه الصيغة المذكورة، فأخذ ذلك منها بعيد، ومن ثم كانت غرابة اللفظ وذهب بعض المعاصرين إلى أن أخذ لفظ "مسرجا" من "السراج" لا غرابة فيه من جهة الاشتقاق والتشبيه لأن الاشتقاق من الاسم الجامد، قد جاء فى كلام العرب كما فى قول المفرع:

وبرود مدنرات وقز وملاء من أعتق الكتان

فإن "مدنرات" مأخوذة من الاسم الجامد "الدينار"، فالمعنى فى ذلك على التشبيه، أى برود وشيها كالدنانير[2]. ومع ذلك فإن التردد بين أكثر من معنى ما يزال قائما مما يجعله غريبا، ولا داعى للدفاع عن مثل ذلك، فإن اللغة العربية واسعة غنية بصيغها وأساليبها ولا موجب للدخول فى مضايق أو متاهات.

---

[1]- راجع: الأطول ١٩/١، ٢٠.

[2]- بغية الايضاح ١٥/١.

وقد يظن البعض أن مجرد تردد الكلمة بين أكثر من معنى يجعلها غريبة إذا لم تقم قرينة كقولك: لقيت فلانا فعزرته.

لكنا نقول : إذا قامت قرينة تحدد المراد منها فلا غرابة، كما فى قوله تعالى: "... فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون"[١]. فكلمة ""عزر" من الكلمات المشتركة التى تفيد معنى التعظيم والإهانة إلا أنها انصرفت فى هذه الآية المباركة إلى معنى التعظيم دون[٢] الإهانة وذلك بفضل ذكر الإيمان بالرسول (ﷺ) قبلها ومناصرته بعدها مع دلالة السياق على التعظيم، لأنها جاءت فى أحوال الرسول (ﷺ) مع صحابته الأجلاء، ولا يعقل والحالة هذه أن يراد منها الإهانة، لأنهم آمنوا به واتبعوا النور الذى أنزل معه، ثم حكم لهم بالفلاح فى نهاية الآية وبذا تحققت بلاغتها وتحدد المراد منها -والله أعلم- ولا محالة.

ويتنوع الغريب باعتبار شدة وعورته وغلظ غرابته[٣] إلى نوعين آخرين:

الأول: وحشى غليظ: وهو أن يكون اللفظ -مع كونه غريب

١- سورة الأعراف :١٥٧.

٢- المثل السائر ٢٦١/١.

٣- راجع سر الفصاحة ٦٦-٧٣ والمثل السائر ٢٣٤/١ وما بعدها وحاشية عبد الحكيم ٣٠.

الاستعمال- ثقيلا على السمع كريهــا علــى الــذوق، ويسـمى المتوعـر أيضـا، وذلك مثل: جحيش[1]: للمستبد برأيه، و"اطلخم" بمعنـى اشـتد أو أظلم، و"جفخت" بمعنى فخرت" و"انقحلة" و"مقسئنة" أى: ييـس جلدهـا على عظمها وكبرت، والاطرغشاش بمعنى الشفاء، وغير ذلك ويعـد من مستقبحات الألفاظ.

الثانى: وحشى ليس بالثقل الغليظ ولا الوعورة السـابقة مثـل: **تكأكأتم وافرنقعوا والاستمصال**، وغير ذلـك **والمقيـاس للنوعيـن هـو: الذوق العربى السليم.**

وأما وجه انحصار الغريـب فـى السـببين المتقدميـن فهـو: أن **اللفظ يدل على معناه بجوهره وهيئته، فعدم ظهور دلالته إما باعتبـار** جوهره فيحتـاج إلـى التنقـير والتفتيـش كمـا فـى السـبب الأول، وإمـا باعتبار هيئته فيحتاج إلى التخريج على الوجه البعيد كما فى السـببب الثانى[2].

هذا ولا يجوز أن نطلق على ما خفى علينا معنـاه مـن النظـم الكريم وأحاديث الرسول (ﷺ)، وأشـعار الفحـول مـن الشـعراء بأنـه غريب ومناف للفصاحة لأن الذى يعتد به ويعول عليه فى ذلك -كمـا قال البلاغيون- إنما هـم العـرب الخلـص الذيـن سـلمت سـليقتهم ولـم

---

[1]- مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٨٣/١.

[2]- المنهاج الواضح ٣٠/٣.

تفسد طباعهم وبلغتهم نزل القرآن الكريم، وبلسانهم جاء الرسول (ﷺ)، ويمكننا تقسيم الغرابة إلى نوعين: نوع فصيح، وهو تلك الألفاظ المستعملة التى جرت على ألسنة الخلص والفحول وإن خفى علينا معناه وغمض، ومن هذا النوع غريب القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف.

ونوع معيب مخل بالفصاحة: وهو تلك الألفاظ التى أهملها الخلص وهجرها الفصحاء فلم يستعملوها وبقيت فى بطون أمهات كتب اللغة المطولة أو استعملوها، ولم تتداول بالمعنى الذى أرادوه منها، فاحتاجت إلى تأويل وتخريج على نحو ما شاهدنا فى الأمثلة، ومع أنه لا يمكن إنكار ما لغرابة الكلمة من أثر فى الحكم عليها بعدم الفصاحة إلا أن هذه الغرابة قد تكون هى السبب فى الحكم عليها بالفصاحة وبيان ذلك أنه إذا كانت الكلمة الغريبة يتطلبها المعنى، ولا يغنى عنها غيرها فإنها تكون قد تحددت بذاتها، وبذلك لا تكون معيبة، بل تكون فصيحة تمام الفصاحة، وذلك ككلمة "ضيزى" فى قوله تعالى فى معرض الإنكار على الكفار والتوبيخ لهم لادعائهم أن الملائكة بنات الله :ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى"[١]، فكلمة "ضيزى" قد تكون نادرة الاستعمال وفيها غرابة ولكنها فى الوقت نفسه دقيقة فى موضعها تمام الدقة، بحيث لو حاولنا أن نضع

---

[١]- سورة النجم ٢١،٢٢.

غيرها مكانها فإنه لا يغنى غناءها، فلو قال قائل: قسمة جائرة فإن المعنى سيظل ناقصا، لأن معنى "ضيزى" -والله أعلم- الجور الشديد الذى لا جور بعده، ولو قال: قسمة جائرة جورا شديدا، لظلت "ضيزى" تمتاز بالوفاء بالمعنى مع تمام الإيجاز ومن ذلك نعلم أن "ضيزى" دقيقة فى موضعها، ولا يغنى عنها غيرها فى مكانها فهى فصيحة[1]. وكأن الله -عز وجل- أراد -والله أعلم- أن يعبر بهذا اللفظ الغريب عن المعنى الغريب الذى قالوه.

٣- مخالفة الوضع:

وإنما آثرت هذا التعبير على قولهم: "مخالفة القياس"[2] لأنه أنسب بالمعنى المراد منه وهى: أن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت عن الواضع سواء أكانت مخالفة للقياس الصرفى أم لا - إذن مدار المخالفة على ما ثبت عند الواضع بغض النظر عن القياس المذكور.

فمثال ما خلاف الأمران معا لفظ "بوقات" جمع مؤنث مفرده "بوق" وهو المزمار فى قول المتنبى يمدح سيف الدولة:

فإن يك بعض الناس سيفا لدولة ... ففى الناس بوقات لها وطبول

فإن المعنى: إذا كنت سيفا حاميا لدولتك ومدافعا عنها وله أثره وخطره فسواك من الملوك والحكام فى دولهم كأنهم مزامير

---

[1]- راجع المثل السائر ١/٢٢٩،٢٣٠.

[2]- الايضاح ٤.

وأدوات لهو لا أثـر لهـا ولا غنـاء فيهـا، فلفـظ "بوقـات" غـير فصيـح لمخالفته ما ثبت عن الواضع والقياس الصرفـى معـا، إذ الثـابت عـن الواضع جمعه جمع تكسير، والقياس الصرفـى أيضـا يقتضـى جمعـه هذا الجمع فيقال أبواق، لأن القياس أن لا يجمع جمع مؤنث سالماً إلا ما كان عاقلا و"بوق" غير عاقل، فجمعه على بوقات مخالف للقياس.

ومثله لفظ "نواكس" فى قول همام بن غالب:

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم   خضع الرقاب نواكس الأبصار

فهذا اللفظ غير فصيح لمخالفته ما ثبت عن الواضع والقيـاس الصرفى إذ الثابت عن الواضع جمعه جمع مذكر سالما، وقد ورد فى القـرآن الكريـم مجموعـا جمـع مذكـر سـالما والقـرآن الكريـم مـيزان الفصاحة، قال تعـالى: "ولـو تـرى إذ المجرمـون ناكسـوا رؤوسـهم"[١] والقياس الصرفى لا يجيز جمعه على فواعل لأن صيغة "فاعل" التـى جـاء عليهـا المفـرد "نـاكس" إذا كـانت لمذكـر عـاقل فـلا تجمـع علـى "فواعل" والجمع الصحيـح لـه "ناكسـى الأبصـار". وإنمـا يجمـع علـى "فواعل" من صيغة "فاعل" ما كان وصفا لمؤنـث عـاقل كحـائض، أو لمذكر غير عاقل كسابق أو لجماد كحائط.

ومثله لفظ "ضننوا" بمعنى بخلوا فى قول الشاعر:

١- سورة السجدة ١٢.

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى   أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

يخاطب الشاعر من لامته على احسانه إلى من بخلوا عليه فيقول: اقصدى من لومك وهونى على نفسك الأمر، فقد عرفت أن من خلقى مجازاة من يسيىء إلى بالاحسان إليه لأنى إنما أصنع المعروف للمعروف لا لشىء وراءه، فلفظ: "ضننوا" غير فصيح لأنه مخالف لما ورد عن الواضع والقياس الصرفى. إذ الوارد عن الواضع "وإن ضنوا" بالإدغام لا بالفك، والقياس الصرفى أيضا يقتضى إدغام المثلين المتحركين المتواليين فى كلمة واحدة، ففكهما مخالف للواضع ولقواعد الصرف.

ومثله لفظ "الأجلل" فى قول أبى النجم:

الحمد لله العلى الأجلل   الواهب الفضل الكريم المجزل

إذ القياس "الأجل" بالإدغام لا الفك، لأن فكه مخالفة للواضع وللقانون الصرفى لعدم اتصال المدغم بضمير رفع متحرك. ولا يقال إن المخالفة هنا لضرورة شعرية، فالضرورات الشعرية إنما تجوز إذا كانت ثابتة فى كلام العرب الموثوق بعربيتهم، وفك الادغام لم يثبت عنهم، فيعد مستقبحا وهناك ضرورات شعرية جائزة عندهم مثل: مد المقصور، وقصر الممدود، وتنوين الممنوع من الصرف، لأن ذلك قد ثبت عنهم.

وهناك ألفاظ مخالفة لما ثبت عن الواضع، ولكنها موافقة للقياس الصرفى، ومثل هذه الألفاظ تكون غير فصيحة فمثل "استحاذ" فى قولنا مثلا: "استحاذ عليهم الشيطان" غير فصيحة، لمخالفتها الواضع وإن كانت موافقة لقانون الصرف الذى يوضح أن الأصل "استحوذ" تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا تمشيا مع قاعدة الصرف التى تقرر ذلك، لأن السماع هو الأصل الذى بنى عليه العلماء قواعدهم فمرتبته فى الاعتبار هى الأولى فإذا غير فى المسموع لاتباع القاعدة خرج من الفصيح وصار مخالفا للواضع، ولكن عندما نقول: "استحوذ" تكون قد أبعدناها عن العيب لموافقتها الواضع وإن كانت مخالفة لقانون الصرف، وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم لب الفصاحة والبلاغة، بالصورة التى وافق فيها الواضع، وخالف فيها القانون الصرفى، وذلك فى قوله تعالى: "استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله"[1] وورودها فى القرآن الكريم جعلها فى قمة الفصاحة.

ومثلها كلمة "عار" فى قولنا "عارت عينه" فإنها غير فصيحة لمخالفتها الواضع وإن كانت موافقة للقياس الصرفى، والصحيح أن نقول: "عورت عينه"، لموافقتها الواضع.

ومثلها أيضا قولك: "يأبى" بكسر الباء مضارع "أبى" فهو غير

١- سورة المجادلة /١٩.

فصيح، لأنه مخالف لما ثبت عن الواضع، إذ الثابت عنه "يأبى" بفتح الباء لا بكسرها فى حين أنه موافق للقياس الصرفى، لأن "فعل" بفتح العين لا يأتى مضارعه على "يفعل" بفتح العين إلا إذا كان عين ماضيه، أو لامه حرف حلق كسأل ومنع وليس "أبى يأبى" من هذا القبيل، كذلك لا يأتى مضارعه على "يفعل" مضموم العين إلا إذا كان مضعف العين متعديا كمده يمده" أو أجوف واويا، كـ "قال يقول" أو ناقصا واويا كـ "سما يسمو" وليس أبى يأبى أحد هذه الأنواع فكسر عين مضارعه حينئذ موافق للقياس الصرفى، ولكنه مع ذلك غير فصيح لمخالفته ما ثبت عن الواضع.

وعلى هذا فالكلمات التى جاءت على خلاف القانون الصرفى ولكنها وافقت الوضع تكون فصيحة، وقد اعتبرت فى حكم المستثناه من قانون الصرف مثل "أبى يأبى" بفتح الباء، والقياس الصرفى كسرها فى المضارع -كما ذكرت- وقطط شعره أى قصه والقياس "قط" بالادغام، و"آل وماء" والقياس الصرفى "أهل وموه" كل ذلك يعد فصيحا لموافقته ما ثبت عن الواضع وإن كان مخالفا للصرف.

ويمكننا من هنا معرفة الفرق بين : مخالفة القياس ومخالفة الواضع. ومن أبرز الذين اشترطوا موافقة القياس اللغوى فى الفصاحة هو ابن سنان الخفاجى الذى أرجع المخالفة إلى مجموعة

من الأسباب ذكرها فى سر الفصاحة[١].

هذا: ويدخل فى مخالفة القياس اللغوى، كل ما تنكره اللغة لمأخذ لغوى مثل لفظ "الأيم" فى مقابلة البكر فى قول البحترى:

يشق عليه الريح كل عشية   جيوب الغمام بين بكر وأيم

فقد وضع كلمة "الأيم" مكان "الثيب" مع أن الأيم فى اللغة هى التى لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا. ومثل حذف النون من كلمة "لكن" فى قول النجاشى:

فلست بآتيه ولا أســـــتطيعه   ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل

أراد: ولكن اسقنى[٢] فالعبرة إذا فى مخالفة الوضع هى: مخالفة الكلمة ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القياس الصرفى أولا.

ربط الفصاحة باستعمال العرب:

لمعرفة فصاحة الكلمة سبيلان: **أولهما**: إذا لم يكن للكلمة مرادف فدليل فصاحتها كثرة استعمال العرب الخلص لها، وهم الذين يوثق بعربيتهم[٣].

١- راجع سر الفصاحة /٧٧ وما بعدها.
٢- بغية الإيضاح ١٦/١.
٣- بحوث المطابقة /١٢٦.

وثانيهما: إذا كان للكلمة مرادف فعلامة فصاحتها غالبا كونها أكثر استعمالا عندهم من الأخرى أو الأخريات المرادفات لها، فمثلا لفظ "الأسد" أفصح من الهزبر، مع أنهما بمعنى واحد لكون الأسد أكثر استعمالا عند الفصحاء من الهزبر وهكذا، وهذا هو معنى قول الخطيب القزوينى "ثم علامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيرا أو أكثر من استعمالهم ما بمعناه"[1].

وإذ قد انتهينا من المقاييس التى تحقق بها فصاحة المفرد، والعيوب المخلة بفصاحته، فإنى أدعوك إلى حديث آخر عن فصاحة الكلام.

فصاحة الكلام

هى: كون الكلام جاريا على النسق العربى من تلاؤم أجزائه، وقوة تأليفه ووضوح معناه، مع فصاحة كلماته، وهذا معنى قولهم: خلوصه من تنافر الكلمات وضعف التأليف والتعقيد بنوعيه اللفظى والمعنوى، غير أن سلامة الكلام من هذه العيوب مشروطة بسلامة أجزائه من العيوب التى تخل بفصاحة المفرد ووجه حصر فصاحة الكلام فى السلامة من هذه العيوب الثلاثة هو:

---

[1]- الايضاح /٤.

أن كل كلام له مادة هى أجزاؤه، أى الكلمات التى تركب منها، وله صورة هى هيئة تأليفه من هذه الكلمات، وله دلالة على معناه، فعيبه إما فى مادته وهو: التنافر أو فى صورته وهو ضعف التأليف أو فى دلالته على معناه وهو: التعقيد.

وإليك بيان العيوب التى تخل بفصاحة الكلام:

١ – تنافر الكلمات:

وهو: وصف فى الكلمات مجتمعة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها، وإن كانت كل كلمة منها على حدة فصيحة لا ثقل فيها، وهذا التنافر على نوعين:

الأول: تنافر شديد بالغ الشدة كما فى قول الشاعر:

وقبر حرب بمكـــان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر [١]

فإنك تلمح فى مصراعه الثانى تنافرا شديدا، بين كلماته المتعادية التى ينفر بعضها من بعض حتى لا يستطيع اللسان النطق بها مجتمعة، بل إن البيت كله كسلسلة يتبرأ بعضها من بعض

---

[١]– القفر: الخالى وقيل: قفر بالرفع نعت لمكان على القطع للضرورة وان لم يتعين المنعوت بدون هذا النعت، وقيل: هو خبر لقبر ومعنى كون القبر قفرا على هذا القول قيامه وحده فى هذا المكان. وقرب: ظرف مكان خبر ليس مقدما ولفظ قبر: اسمها مؤخرا.

ولا تجد أحدا يردده أكثر من مرة، إلا تعثر لسانه. ومع هذا فمفرداته فصيحة كل منها على انفراد. أى أن مرجع التنافر والثقل إلى النظم الذى عليه البيت ولو جردت الكلمات من نظمها لصارت فصيحة خالية من الثقل: (قرب – قبر – حرب) ولم تحد ظاهرة التنافر من قدرتها على إظهار المعانى وإنما كل الذى حدث لها من التنافر هو الثقل على اللسان، وصعوبة النطق بها مجتمعة مرات عديدة مثل قراءة رسالة قبيحة الخط فقارؤها يفهم ما بها، ولكنه يتعب فى قراءتها، يقول الرمانى (م.ت ٣٨٦هـ) -رحمه الله-: "والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ وتقبل المعنى له فى النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة، ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب فى أحسن ما يكون من الخط والحرف وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط، فذلك متفاوت فى الصورة وإن كانت المعانى واحدة"[١].

وبالتأمل فى هذا البيت نلاحظ:

١- أن الكاف قد ذكرت خمس مرات.

٢- أن الباء قد ذكرت أيضا سبع مرات.

٣- أن الراء قد ذكرت سبع مرات.

---

[١]- النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل /٨٨.

٤- أن كلمة (قبر) ذكرت بلفظها ثلاث مرات.

٥- أن معظم كلمات البيت تشترك مع كلمة (قبر) فى حرفين أو ثلاثة، أى أن القاف والباء والراء واردة -وهى مجتمعة تقريبا- فى أكثر الكلمات، فكلمة (قبر) تشمل الحروف الثلاثة، وكلمة (حرب) التى ذكرت مرتين تشمل الراء والباء وكلمة (قفر) تشترك مع كلمة (قبر) فى القاف والراء، كما أن الحرف المختلف وهو (الفاء) يشترك فى المخرج مع الباء والميم والواو وهى حروف شفوية، وأن الحروف التى وردت فى البيت كله هى ثلاثة عشر حرفا فقط.

ومن ثم نستطيع أن نفسر الثقل أو التنافر فى هذا البيت بعدة أشياء:

١- أن البيت قد ا شتمل على حرف القاف خمس مرات وهو حرف يحتاج فى نطقه إلى جهد عضلى أكثر من غيره، ووروده فى البيت بهذا العدد يزيد بكثير عن عادة العرب فى استعماله أو نسبة شيوعه فى كلام العرب، وهذه النسبة مرة أو مرتان فقط، وذلك كما استقرأها أحد الباحثين المعاصرين[1]، وما يصدق على القاف يصدق أيضا على (الراء) التى وردت فى البيت سبع

١- الأصوات اللغوية أ.د/ إبراهيم أنيس.

مـرات، ونسـبة شـيوعها لا تتعدى مـرة أو مرتيـن فـى الشـطر، وكذلك (الباء) التى ذكرت بهذا العدد ولا يستساغ ورودهـا أكـثر من مرتين أو ثلاث فقط، وهذا التكرار يعنـى أننـا ننطـق حروفـا كثيرة مـن مخـارج واحـدة، وبغير انتظـام بالإضافـة إلـى اتحـاد مخارج (البـاء والفـاء والميـم والـواو) ونحـن ننطـق فـى الحقيقـة ثلاثة عشر حرفا من مخارج متقاربة تقاربا ملموسا.

٢- ومن أسباب التنافر فـى البيت كذلـك تكـرر الكلمـة بلفظهـا عـدة مرات، كما رأينا فى كلمة (قبر) أو تكرر ألفـاظ متجانسـة معهـا وقد لاحظ ابن سنان الخفاجى ذلك فقال: "وإذا كـان يقبـح تكـرار الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع[١].

٣- ومن أسباب الثقل أيضا فى هذا البيت كون القاف مهموسة، ومن المعـروف أن الحـروف المهموسـة أثقـل مـن المجهـورة لأن المهموسة تحتاج إلى جهـد عضلـى أكبر حتـى تتضـح وتظهـر. وذلك المجهود العضلى يتمثل فى انقباض الرئتين بقوة حتى تدفع أكبر كمية من هواء الزفير، أما الصوت المجهور فـإن الوتريـن الصـوتييـن يغنيـان عـن الانقبـاض الشـديد فـى الرئتيـن لأن اهتزازهما يزيد الصوت وضوحا[٢].

---

[١]- سر الفصاحة /٩٧.

[٢]- علم الفصاحة العربية د/ محمد على رزق الخفاجى /٢١٨،٢١٩.

وقال العلامة يحيى بن حمزة العلوى (م.ت ٧٤٩هـ) -رحمه الله- "فهذه القافات والراءات من الأحرف قد تكررت وتقاربت فأكسبت الكلام ثقلا وركة تبعد به عن الفصاحة، وتتأى لأجله عن البلاغة"[١].

وهذا البيت لا يعرف قائله وقيل هو: من نظم شيطان صاح بحرب بن أمية لأنه قتل حية منهم فقتله الجان فرثاه به ودفنه بمكان موحش[٢].

ومنه قول المتنبى:

وقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا   قلاقل عيس كلهن قلاقل[٣]

فتكرير القافات واللامات فى النظم جعل الكلام مسترذلا فى النطق والسمع ولذا يقول العلوى -رحمه الله- "فالقاف وإن كانت من أنصع حروف العربية وأثبتها جرسا وأصفاها فى النطق وأوضحها مخرجا خلا أنها لما تكررت كانت بمنزلة مشى البغل

١- الطراز ٥٢/٣.

٢- البلاغة ذوق ومنهج /٢٣٧.

٣- قلقل: حرك. الحشا: ما انطوت عليه الضلوع، العيس: الإبل، وقلاقل: جمع قلقلة والأولى: الناقة السريعة والثانية الحركة، والمعنى: حركت بسبب الهم الذى أصاب قلبى الإبل السريعة.

يتقدم وهو يخطوا إلى الوراء"[١].

ومنه قول الشاعر:

لو كنت كنت كتمت السر كنت كما كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

فألفاظ البيت يتبرأ بعضها من بعض، ويرجع ذلك إلى سوء النظم الذى سلكت فيه إذ تركبت من مادتين متقاربتين فى الحروف هما: الكون والكتم..

ومنه قول الشاعر يصف فرسه:

أزج زلوج هزرفى زفازف هزف يبذ الناجيات الصوافنا

فإن اللسان ليتعثر عند النطق به أيما تعثر[٢].

<u>الثاني</u>: تنافر خفيف أو قريب من المتناهى فى الثقل، كقول أبى تمام يمدح موسى الرافقى:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

فإن الشاعر يصف ممدوحه بالكرم والسخاء، وأنه إذا ما جرى لسانه بمدحه رأى الناس عامة ألسنة مدح وثناء معه لفيض

١- الطراز ٣/٥٤.

٢- أزج، زلوج، هزرفى، زفازف، كلها أوصاف الفرس معناها خفيف سريع. وهزف: الجافى أو الطويل، ويبذ: يسبق، والناجيات الصوافنا: الخيل القوية.

إنعامه وعموم أياديه، وإذا ما هم بلومه لم يتبعه فيه أحد لبراءته مما يقتضى اللوم.

هذا: وعندما يقرأ صاحب الذوق السليم هذا البيت يشعر بما فيه من الثقل والتنافر نتيجة تكرار كلمة "أمدحه .... أمدحه" لكنه تنافر خفيف غير متناه فى عسر النطق. وليس فى مجرد الجمع بين حروف الحلق، "الحاء والهاء" ثقل يعتد به كما قيل - كيف وقد وقع ذلك فى القرآن الكريم البعيد كل البعد عن الثقل ا لمخل بالفصاحة لأنه تنزيل حكيم خبير، كما فى قوله تعالى: "ومن الليل فسبحه وأدبار السجود"[١]، و"ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم"[٢]، و"ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا"[٣].

غير أن الجمع بينهما -فى قول الشاعر- مع تكرار الكلمة ضاعف الثقل وأحدث التنافر المخل بالفصاحة لكنه أقل من التنافر الذى لمسناه فى الأبيات قبله.

وذهب أحد الباحثين المعاصرين إلى القول بخلو هذا البيت من التنافر فقال: "على أننا نرى أن هذا البيت خال من التنافر حتى مع هذه الصعوبة التى تحس بها حين نطقه لأن أبا تمام يريد تأكيد

١- سورة ق ٤٠.

٢- سورة الطور ٤٩.

٣- سورة الإنسان ٢٦.

ما يقول ومن ثم يجب أن ننطق بهذه الكلمة -أمدحه- على صورة خاصة من الابطاء حتى تستقر فى ذهن السامع، ويعيننا على ذلك التصور وسائل كثيرة مثل النبر والتنغيم[١].. إلخ، ومعنى هذا أن البيت ينبغى أن لا ننشده وفق التقطيع العروضى وإنما ينبغى أن ينشد على الوجه التالى:

كريم، متى أمدحه، أمدحه والورى معى، وإذا ما لمته، لمته وحدى على أن يراعى أن يكون النبر على المقطع الأخير من كلمة "أمدحه" الأولى للإشعار بأن هناك جوابا لهذا الشرط المتمثل فى الأداة "متى" ومثل ذلك يقال فى كلمة "لمته" الأولى[٢]. وقد يساعد وجهة النظر هذه أننا إذا نطقنا "أمدحه" وحدها لا نجد فيها ثقلا يعتد به، ولعل هذا هو السر فى أن علماء النقد والبلاغة مع تعرضهم لهذا البيت من قديم فإنهم لم يذكروه شاهدا على تنافر الحروف فى الكلمة.

وقيل: إن العيب فى هذا البيت يعود إلى أن الشاعر قد قابل المدح باللوم، وإنما المدح يقابل الذم والهجاء[٣] ولعل أبا تمام أراد أن

١- النبر: إبراز أحد مقاطع الكلمة عند النطق، التنغيم: توالى درجات صوتية مختلفة أثناء النطق مثل اختلاف التنغيم فى عبارة (لا يا شيخ).

٢- قضايا ومواقف فى التراث البلاغى أ.د/ عبد الواحد علام /٤٠.

٣- الكشف عن مساوىء شعر المتنبى للصاحب بن عباد /٧١٦ نشر مكتبة القدسى ١٣٤٩هـ.

ينفى الذم عنه بنفيه اللوم بطريق أولى. أو آثر التعبير باللوم دون الهجاء المقابل للمديح، ليفيد أن الممدوح ربما يلام على شيء وقع منه عفوا ولكنه لا يفعل ما يستحق عليه الهجاء. ولكن يؤخذ على الشاعر إدخاله "إذا" التى تفيد تحقق الوقوع على اللوم. ولو عبر "بإن" دون "إذا" لكان أولى، وأبلغ فى المديح.

هذا: وقد أرجع البلاغيون سبب التنافر فى الكلمات وثقلها على اللسان إلى ما يلى:

١- أن يتكون النظم من كلمات حروفها واحدة أو متشابهة أو من كلمات مأخوذة من مادة واحدة أو من مادتين متقاربتين فى الحروف كما شاهدنا فى الأمثلة السابقة لنوعى تنافر الكلمات.

ونقول: إن تكرار الحروف فى الكلمات ليس سببا مطردا فى التنافر لأن القرآن الكريم قد تكررت حروف معينة فى كلماته وعلى الرغم منها يشهد الذوق السليم ببلاغة نظم القرآن وإعجازه، ولك أن تتأمل قوله تعالى: "كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا"[١]. وقوله تعالى: "قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم"[٢]. وقوله

١- سورة طه ٣٣-٣٥.

٢- سورة هود ٤٨.

تعالى: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها"[١]. فالآية الكريمة الأولى تكررت فيها الكافات والآية الثانية جمعت ستة عشر ميما، والآية الثالثة تكرر فيها ضمير الغائبة المؤنثة، وعلى الرغم منها فالآيات بالغة حد البلاغة المعجزة، التى لا ترى فى غير القرآن الكريم.

٢- أن يتركب النظم من كلمات تتوالى فيها أدوات الربط (أى تتوالى فيها حروف الجر ومجروراتها)، كقول أبى تمام يصف مصلوبا:

كأنه فى اجتماع الروح فيه   له فى كل جارحة من جسمه روح

فأنت ترى أن الجار والمجرور قد تواليا فى البيت ثلاث مرات: "فيه. له. فى كل" فأكسب ذلك التوالى النظم شيئا من الثقل.

ومن ذلك أيضا قول المتنبى يصف فرسه:

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة   سبوح لها منها عليها شواهد

يقول عن فرسه إنها تنجيه من شدة بعد أخرى، وإنها سريعة مريحة للفارس فهى تجرى وكأنها تسبح فى الماء، وإن لها من نفسها علامات شاهدات بنجابتها. وقد جاء التنافر من تكرار وتوالى حروف الجر ومجروراتها "لها منها عليها". وهذا مخل بفصاحة البيت.

٣- قد يكون النظم متنافرا بسبب توالى الإضافات وتتابعها

١- سورة الشمس ٨،٧.

في الكلام، كقول أبى العناهية:

سبحان ذى الملكوت أية ليلة مخضت بوجه صباح يوم الموقف

فمعظم كلمات البيت قد أضيفت كل منها إلى ما بعده (سبحان ذى الملكوت. أية ليلة. بوجه صباح يوم الموقف) ولهذا كان نظمها بعيدا عن الفصاحة ونحوه، قول ابن بابك:

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع[1]

فلما أضاف حمامة إلى جرعى، وأضاف جرعى إلى حومة، وأضاف حومة إلى الجندل أكسبه ذلك تنافرا وركة[2]. ونقول ليس تتابع الإضافات فى النظم مخلا بالفصاحة دائما، فقد ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: "ذكر رحمة ربك عبده زكريا"[3]، وفى قوله - عز وجل- "مثل دأب قوم نوح"[4]، وقد اجتمع التكرار وتتابع

١- جرعى: اسم مكان ذى حجارة سود، والحومة: معظم الشيء والجندل: بفتح الجيم وكسر الدال وبضم الجيم وفتح النون وكسر الدال: الموضع الذى تجتمع فيه الحجارة الصلبة، وقد قصر جرعى للضرورة وهى تأنيث الأجرع. وسجع الحمام: هديره وكأن الشاعر يريد أن يقول: يا حمامة جرعى اسجعى فهنيئا لك أن تراك وتسمعك سعاد.

٢- الطراز ٥٨/٣.

٣- سورة مريم ٢.

٤- سورة غافر ٣١.

الإضافات فى قول الرسول (ﷺ): "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"[١]، فقد اجتمع فى الحديث الشريف الأمران.

وواضح أن الإضافات فى الآيتين الكريمتين متداخلة بأن يكون الأول مضافا إلى الثانى والثانى مضافا إلى الثالث، أما الاضافات فى الحديث فغير متداخلة، فتتابع الإضافات تشمل المتداخلة وغير المتداخلة، ومن المعلوم أن تتابع الإضافات والتكرار لم يقدح فى فصاحة النظم والحديث النبوى الشريف، لأنها لم توجب ثقلا على اللسان.

وكذلك جاء التكرار فى قوله تعالى: "وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا"[٢]، وورد تتابع الإضافات فى قوله تعالى: "هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا"[٣]. فقد أضاف "بعض" إلى آيات وآيات إلى رب ورب إلى الكاف.

مما يؤكد أن كثرة التكرار وتتابع الإضافات لا يخلان فصاحة

---

[١]- فتح البارى ٤٨٢/٦.

[٢]- سورة آل عمران ١٤٧.

[٣]- سورة الانعام ١٥٨.

الكلام كما قال الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- "لكنه إذا سلم من الاستكراه لطف وملح.

ومما حسن فيه قول ابن المعتز:

وظلت تدير الراح أيدى جآذر عتاق دنانير الوجوه ملاح[١]

فقد أضاف "عتاق" إلى "دنانير" المضافة إلى "الوجوه" ولم يخل ذلك بالفصاحة وكيف نعد تتابع الإضافات على الاطلاق من عيوب الفصاحة؟ وقد عدها البلاغيون من الاطراد الذى عد من المحسنات البديعية بشرط ألا يكون متكلفا كقول الشاعر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب[٢]

فالشطر الثانى به تتابع إضافات - أى اطراد ولم يقل أحد أنه مناف للفصاحة.

٤- أن يتركب النظم كاملا أو أكثره من أفعال كما فى قول المتنبى:

أقل أنل أقطع احمل عل سل أعد زد هش بش تفضل أدن سرصل[٣]

---

[١]- دلائل الاعجاز /١٠٤، الراح: الخمر والجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية والعتاق: جمع عتيق، بمعنى كريم.

[٢]- بغية الايضاح ٧٢،٧١/٤. ثللت: هدمت.

[٣]- أقل: من الإقالة اقطع: من الأقطاع لأرض ونحوها. عل: من العلو. سل: أى بالعطية ونحوها.

فهذه الألفاظ جاءت على صيغة واحدة وهي مثال الأمر كأنه قال: "افعل افعل" وهكذا إلى آخر البيت. فما هذا حاله فتكرير للصيغة وإن لم يكن تكريرا لحروف المعانى وفيها ما ترى من الثقل على الأسماع من أجل تكريرها على هذا الوجه وقد تضمن سياقها تركيبا وتداخلا مكروها.

وقد يرد هذا اللون من النظم البغيض مع واو العطف كما فى قول عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن:

أحل وامرر وضر وانفع ولن واخـ   ـشن ورش وأمر وانتدب للمعالى

فهذا كالأول فى التكرير خلا أن هذا ليس فى الكراهة، كقول المتنبى السابق فى الثقل وما ذاك إلا من أجل توسط الواو فأكسبته خفة ورقة محدودة. ولاشك فى ثقل صور النظم السابقة لثقلها الملحوظ على الألسنة والأسماع، وذلك لتوالى الأفعال فيها على نحو شائن بغيض، ولهذا كانت غير فصيحة مع أن كلا من كلماتها على حدة مقبول فصيح. ولا يقال لو كان هذا الثانى -أى تركيب النظم من أفعال مع واو العطف- مكروها لم يرد فى كتاب الله تعالى وقد ورد كقوله تعالى: "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد"[1] لأنا نقول: هذا فاسد فإنه لم يتكرر مع الواو إلا قوله تعالى: "وخذوهم واحصروهم" فأما الجملة

---

[1]- سورة التوبة ٥.

الأولى فهى مغايرة لتعلقها بقوله سبحانه: "حيث وجدتموهم" وهكذا حال الرابعة، فإنها متعلقة بغيرها فلم يبق إلا قوله تعالى: "وخذوهم واحصروهم" وقد تضمنا الواو وفيهما من حسن السبك، وجودة التأليف وخفته على الآذان ما لا يخفى، فأين هذا من ذاك؟[1]

٥- توارد صفات متعددة على نسق واحد كقول المتنبى:

دان بعيد محب مبغض بهج   أغر حلو ممر لين شرس

ند أبى غر واف أخى ثقة   جعد سرى نه ندب رضى ندس[2]

فلما حصلت هذه الأوصاف على هذه الصفة ثقلت على الألسنة ومجتها الآذان وصارت بمنزلة سلسلة بلا شك وقطع فضة أو ذهب مبددة من غير سبك.

ونقول: ليس تتابع الصفات مخلا بالفصاحة دائما، فقد جاء سهلا مقبولا فى قوله تعالى فى وصف المجاهدين فى سبيله: "التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر

---

[1]- الطراز ٣/٥٥-٥٦، وانظر المثل السائر ١/٤٠٥،٤٠٦.

[2]- الشرس: الصلب، والغرى: المغرى بفعل الجميل. والجعد: الماضى فى الأمور والسرى: الشريف والنهى: العاقل، والندب: السريع فى أموره والندس: العارف البحاثة يريد أن يقول: إنه يحب أهل الفضل ويبغض أهل النقص يحلو لأوليائه ويمر على أعدائه.

المؤمنين"[١]، وفى قوله تعالى: "هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر"[٢]، وفى قوله تعالى: "عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا"[٣]، ومع كونها أوصافا متعددة من غير واو لكن بينها بعد لا يدرك أمده، ولا ينال حصره ولا عدده، فى حسن التأليف وجودة السبك ولذة السمع وسهولة الأسلوب.

وجملة القول: أن تنافر الكلمات يتحقق إذا لم يكن بين الكلمات مجتمعة انسجام وتآلف وتثقل على اللسان ويعسر النطق بها عند اتصال بعضها ببعض وإن كانت كل كلمة على حدة لا ثقل فيها، ولا يرجع فى إدراكه إلى ضابط معين معروف أو قاعدة مطردة، وإنما المعول عليه هو:

الذوق العربى السليم، الذى يميز غث الكلام من سمينه وجيده من رديئه وغليظه من رقيقه.

ولعلك قد أدركت معى الفرق بين التنافر فى الكلمة، والتنافر فى الكلمات وبيانه: إن التنافر فى الكلمة ناشىء من اجتماع حروف

١- سورة التوبة ١١٢.

٢- سورة الحشر ٢٣.

٣- سورة التحريم ٥.

معينة فيها بحيث يؤدى فى نهاية الأمر إلى صعوبة فى نطقها، وأما التنافر فى الكلام فناشىء من اجتماع الكلمات فيه اجتماعا معينا، وإن كانت كل كلمة من هذه الكلمات خالية من التنافر.

٢- ضعف التأليف: وهو أن يكون الكلام فى تركيبه مخالفا للمشهور من قوانين النحو وأحكامه التى اعتمدها جمهور النحاة وذلك مثل:

١- الإتيان بالضمير المتصل بعد "إلا".

٢- حذف "أن" الناصبة للفعل المضارع مع بقاء عملها.

٣- الإضمار قبل ذكر المرجع لفظا[١] ومعنى[٢] وحكما[٣] أو: عود

---

[١]- التقدم اللفظى هو: أن يتقدم المرجع على ا لضمير لفظا أى أن ينطق به أولا وبالضمير ثانيا كما فى قوله تعالى: "واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين" (سورة يونس ١٠٩) وكما فى قولك: أكرم محمدا صديقه فمرجع الضمير فى الأول لفظ الجلالة وفى الثانى محمدا، وقد تقدم كلاهما على الضمير لفظا غير أنه فى الأول تقدم لفظا ورتبة وفى الثانى تقدم لفظا فقط لأنه مفعول، فمرتبته بعد الفاعل.

[٢]- التقدم المعنوى هو: أن لا يتقدم المرجع على الضمير لفظا لكن هناك ما يقتضى تقدمه معنى كأن يدل عليه لفظ سابق من جنسه أو ترشد إليه قرينة حال أو كانت مرتبته التقدم على الضمير، فمثال ما دل عليه لفظ سابق قوله تعالى: "اعدلوا هو أقرب للتقوى" (سورة المائدة ٨) فمرجع الضمير هو "العدل" المدلول عليه بلفظ "اعدلوا" فهو لم يتقدم معناه فى الفعل المذكور.←

← ومثال ما أرشدت إليه قرينة حال قوله تعالى: "يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك .." (سورة النساء ١١) -فمرجع الضمير المستتر فى "ترك" هو "الميت" ولم يدل عليه لفظ سابق من جنسه كما فى "اعدلوا" بل دلت عليه قرينة حال هى أن الكلام مسوق لبيان الإرث، ومثال ما مرتبته التقدم وإن تأخر فى اللفظ قولك: فى داره صديقك وقولك: رفع قبيلته عنترة، فمرجع الضمير فى الأول "صديقك" وفى الثانى "عنترة" وقد تأخر كل منهما عن الضمير فى اللفظ ولكن مرتبة التقدم عليه لأنه فى الأول مبتدأ وفى الثانى فاعل ومرتبة المبتدأ التقدم على الخبر كما أن مرتبته الفاعل التقدم على المفعول.

٣- التقدم الحكمى هو: ألا يتقدم المرجع لفظا وليس ثم ما يقتضى تقدمه سوى حكم الواضع بأن المرجع يجب تقدمه غير أنه خولف فيه حكم الواضع فأخر لنكتة بلاغية والمتأخر لغرض متقدم حكما كما فى باب "نعم وبئس" -على رأى من يجعل المخصوص مبتدأ لخبر محذوف أو العكس- وكما فى: ضمائر "رب والشأن والقصة" نحو: "نعم فصيحا سحبان"، وبئس عييا باقل: ونحو: "ربه فتى" ومثل قول الشاعر:

هى الدنيا تقول بملء فيهـــا حذار حذار من بطشى وفتكى

وقوله تعالى: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور" (سورة الحج ٤٦) فالمرجع فى "نعم وبئس" هو المخصوص بالمدح أو الذم وفى "رب" هو "فتى" وفى الحال والشأن هو لفظ "الدنيا" وفى ضمير القصة فى الآية المذكورة من سورة الحج يعود على الحال والشأن والقصة المفسرة بالجملة بعدها. وهو فى كل هذه المثل لم يتقدم لفظا ولا معنى ولكنه متقدم حكما من حيث إن وضع الضمير على أن يعود إلى متقدم وإنما أخر هنا←

الضمير على متأخر لفظا ورتبة. فمثال الأول قول الشاعر:

وما علينا إذا ما كنت جارتنا   ألا يجـــاورنا إلاك ديـــار

وقول الشاعر:

ليس إلاك يا على همام   سيفه دون عرضه مسلول

والأصل أن يقال: "إلا إياك" -بكسر الكاف بالنسبة للبيت **الأول**: وبفتحها بالنسبة للثانى- لوجوب انفصال الضمير بعد "إلا" وفقا للقاعدة النحوية المشهورة، كما فى قوله تعالى: "وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه"[١].

ومثال الثانى: قول طرفة:

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

وقول الآخر:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه   ويذكر عيبا فى أخيه قد اختفى

← لنكتة هى: البيان بعد الإبهام لتمكين المعنى فى ذهن السامع والمتأخر لنكتة حكمه التقديم. فكل ما سبق من الأمثلة مما تقدم فيه المرجع على الضمير لفظا أو معنى أو حكما فصيح لخلوه من ضعف التأليف إذ أنه جرى على المشهور من قوانين النحو وأحكامه التى اعتمدها جمهور النحاة. (راجع حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ٩٧/١، ٩٨).

١- سورة الإسراء /٦٧.

فقد نصب "احضر" و"ينسى" و"يذكر" بأن المحذوفة دون مقتض لإضمارها قبل الفعل المضارع[١] والأصل: أن أحضر وأن ينسى وأن يذكر.

ومثال الثالث: أى عود الضمير على متأخر لفظا ومعنى وحكما قول سليط بن سعد:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

يدعو الشاعر على أبى الغيلان أن يجازيه أولاده فى الكبر وأن يسيئوا إليه جزاء لحسن صنيعه معهم، كما جوزى سنمار الذى بنى قصرا مشيدا للنعمان بن امرىء القيس تحدث عنه الناس ثم جازاه النعمان على هذا بأن ألقاه من أعلى القصر فمات لوقته وذلك حتى لا يبنى لغيره قصرا مثل هذا القصر، وضرب به المثل لكل من يجازى على الخير بالشر، والشاهد فيه قوله فى المصراع الأول: "جزى بنوه أبا الغيلان" حيث عاد الضمير فى "بنوه" على متأخر فى اللفظ وهو ظاهر ومتأخر فى المعنى حيث لم يكن هناك ما يقتضى تقدم المرجع فى المعنى، أى لم يدل عليه لفظ سابق من جنسه أو ترشد إليه قرينة حال أو كانت مرتبته التقدم على الضمير، فالضمير

---

[١]- إنما تضمر (أن) ويبقى نصبها للفعل المضارع إذا سبقه حروف معينة هى: لام الجحود أى النفى، و"أو" العاطفة التى بمعنى "حتى" أو إلا، وحتى الجارة للمصدر المنسبك من "أن" والجملة المضارعية، وفاء السببية، وواو المعية.

هنا اتصل بالفاعل وهو "بنو" ورتبته التقديم وعاد على المفعول وهو "أبا الغيلان" ورتبته التأخير عن الفاعل ولذلك قيل: عاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة.

ومثل ذلك أيضا قول الشاعر:

ألا ليت شعرى هل يلومن قومه   زهيرا على ما جر من كل جانب

فقد عاد الضمير من الفاعل "قومه" على المفعول به "زهيرا" وهو غير فصيح كسابقه، لأنه من عود الضمير على متأخر لفظا ومعنى وحكما، ولهذا حكم عليهما صاحب المطول -رحمه الله- بالشذوذ وعدم القياس عليهما[١].

ومثل قول حسان بن ثابت -رضى الله عنه- يرثى مطعم بن عدى:

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا   من الناس أبقى مجده الدهر مطعما[٢]

فإن الضمير في "مجده" راجع إلى "مطعما" المتأخر لفظا ورتبة وهو لم يذكر قبل الضمير لفظا وهو ظاهر ولا معنى لأنه مفعول به ولا حكما لأنه محكوم عليه بالتأخير لمفعوليته.

١- راجع المطول: ٢٠.

٢- هو مطعم بن عدى أحد رؤساء مكة وكان يدافع عن النبى -ﷺ- ضد المشركين. ومعنى البيت لو أن المجد يخلد صاحبه لكان مطعم الممدوح أحق الناس بأن يخلد لأنه صاحب سيادة وكرم وسؤدد.

ومثل قول الشاعر:

جزى ربه عنى عدى بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل[١]

فالضمير فى "ربه" يعود إلى "عدى" المتأخر لفظا ورتبة لأنـه مفعول.

وقد أجاب البعض بأن الضمير فى "مجده" و "ربه" يعود علـى المصدر المدلول عليه بالفعل السـابق لا علـى المفعـول المتـأخر عـن الفاعل أى: مجد الإبقاء ورب الجزاء على حد قولـه تعـالى: "اعدلـوا هو أقرب للتقوى" فالضمير المنفصل "هو" يعود على العـدل المفهـوم من: "اعدلوا" الدال عليـه. وهـذا قيـاس مـع الفـارق لأن الضمـير فـى الآية المباركة ظاهر العود إلى العدل وفى البيتيـن ظـاهر العـود إلـى المفعولين "مطعما وعديا" ولا داعى لارتكاب مثل هذا التكلف الذى لا موجب له.

أما إذا عاد الضمير على متقدم لفظـا أو معنـى أو حكمـا فـإن الكلام يكون صحيحا خاليا من ضعف التأليف كمـا فـى قولـه تعـالى: "ذلك الكتاب لا ريب فيه"[٢] وقوله تعالى: "اعدلوا هو أقـرب للتقـوى"[٣]

١- جزاء الكلاب العاويات: الضرب بالحجارة وجملة "جزى ربه" دعائيـة يعنـى أنه يدعو عليه بذلك لما فعله معه من الإساءة إليه.

٢- سورة البقرة ٢.

٣- سورة المائدة ٨.

وقوله تعالى: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور"[١].

هذا: وقيد ضعف التأليف بالمخالفة لجمهور النحويين لأن المخالفة لجميع النحويين كجر الفاعل ورفع المفعول ونصب المجرور أو رفعه وغير ذلك مما أجمع عليه النحاة واتفقوا عليه لا يطلق عليها ضعف تأليف وإنما يسمى ذلك فساد وخطأ لا يسمح به ولا يقال وهو من باب أولى غير فصيح. وضعف التأليف متفق على عدم فصاحته عند جميع البلاغيين وإن كان غير متفق على مخالفته للنحو عند جميع النحويين بل عند جمهرتهم.

ولعلك قد أدركت معى الفرق بين مخالفة الوضع وبين ضعف التأليف.

فالأول: من العيوب المخلة بفصاحة الكلمة والعبرة فيه تكمن فىمخالفة الكلمة ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القياس الصرفى أو لا.

والثانى: من العيوب ا لمخلة بفصاحة الكلام والعبرة فيه تكمن فى مخالفة الكلام لقوانين النحو المعتبرة عند جمهور النحاة.

١- سورة الحج ٤٦.

٣- التعقيد:

وهو: كون الكلام مغلقا يتوعر على الذهن تحصيل معناه أى لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد منه لخلل واقع فيه إما فى النظم والتركيب بألا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير أو غيره وإما فى الانتقال من المعنى الأول المفهوم بحسب وضع اللغة إلى المعنى الثانى المقصود[١].
فالأول يسمى: التعقيد اللفظى والثانى يسمى: التعقيد المعنوى.

التعقيد اللفظى:

أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى المراد لخلل واقع فى نظمه وتركيبه بحيث لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير أو فصل بين الأشياء الواجب تواليها فى النطق والكتابة أو حذف أو نحو ذلك مما يسبب صعوبة فى فهم المعنى المراد.

كقول الفرزدق يمدح إبراهيم المخزومى خال هشام بن عبد الملك:

وما مثله فى الناس إلا مملكا   أبو أمه حى أبوه يقاربه[٢]

فالشاعر أراد أن يقول: إن ممدوحه قد بلغ من الفضائل مبلغا

١- راجع أسرار البلاغة ١٤٢ تحقيق محمود شاكر.
٢- أبو أمه: جده.

لم يلحقه فيه أحد من الأحياء إلا حى واحد له صلة بهذا الممدوح فهو ابن اخته وهو ملك أيضا. وترتيب البيت على النظم الصحيح:

وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه.

ولكن الشاعر تعسف فى التركيب والتوى فى التعبير وارتكب عدة من مخالفات أحدثت خللا فى النظم وصعوبة فى فهم المراد وهذه المخالفات هى:

١- قدم المستثنى "مملكا" على المستثنى منه "حى" بمعنى أحد.

٢- فصل بين المبتدأ "أبو أمه" وبين الخبر "أبوه" بأجنبى وهو "حى".

٣- فصل بين البدل "حى" والمبدل منه "مثله".

٤- فصل بين الموصوف "حى" والصفة "يقاربه" بأجنبى وهو "أبوه".

فصار البيت فى غاية التعقيد اللفظى واستغلق على الذهن وبدا غير مفهوم لاجتماع سوء الترتيب كما رأينا وسلوك الطريق الأبعد حيث قال: أبو أمه أبوه "وكان يكفيه أن يقول "خاله" وجاء بمشترك الألفاظ فى قوله "حى يقاربه" فحى كلمة تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان.

ولعل الفرزدق كان يقصد بهذا الصنيع التهكم بالممدوح والاستخفاف به وهذا لا يبعد إذا علمنا ولاء الفرزدق للعلويين وعداءه لبنى أمية والممدوح منهم. وقيل: يمكن أن يخرج هذا البيت على وجه لا تعقيد فيه وهو: جعل "مملكا" مستثنى من الضمير المستتر فى متعلق الجار والمجرور "فى الناس" الواقع خبر "ما" أو خبر "مثله" على الخلاف فى جعل "ما حجازية، أو تميمية ويجعل "أبو أمه" مبتدأ و "حى" خبر أول و "أبوه" خبرا بعد خبر والجملة صفة لـ "مملكا" و"يقاربه" صفة ثانية أى إلا مملكا موصوفا بهذه الصفة وبأنه يقارب خاله فى الفضائل وعلى هذا القول يكون المراد بالحياة فى قوله "حى" القوة الشبابية الكاملة وغاية ما يرد على هذا الوجه أن فيه نصب "مملكا" والمختار رفعه لتأخر المستثنى عن المستثنى منه بعد النفى[1] وقد حاول أحد الباحثين المعاصرين[2] الاعتذار والدفاع عن هذا البيت قائلا: ألست ترى معى أن المعانى قد تزاحمت فى ذهن الفرزدق فتزاحمت الألفاظ واختلط بعضها ببعض بينما الشاعر فى شغل عنها وقد تملكته العاطفة وسيطرت عليه الفكرة فلم يعبأ بنظام الكلمات على النحو المألوف للناس ... فإذا سيطرت عليه الصورة سيطرة تامة فقد يسوق لنا مثل هذا النظام

١- تجريد البناني ١/٨٧.

٢- من أسرار اللغة د/ إبراهيم أنيس ٣٣٠.

الغريب الذى نراه فى بيت الفرزدق.

والحقيقة أننا لا نرى ما رآه هذا الباحث فلا المعانى تزاحمت فى ذهن الشاعر ولا الصورة تملكته ولا نتفق معه فى الاعتذار عن الشاعر بهذا لأن المعنى فى البيت ساذج ليس مصورا ولا مصنوعا فأى صنعة فى أن يمدح الشاعر خال الخليفة بأنه لا مثيل له إلا ابن أخته وهو الخليفة بل وأية غرابة فى هذا المعنى إنه يقع من الصبية والعامة من الناس هذا من جهة ومن جهة ثانية لو كان كل من تملكته الفكرة وسيطرت عليه اختل كلامه لكان مقياس الجودة هو اختلال الكلام أو الكلام المختل ولما كان هناك موجب للإعجاب بالنماذج الرائعة من الشعر والنثر حتى رأيناها تعمل عمل السحر فى النفوس فتحيل البخيل الجمود إلى كريم معطاء بل تحيل القاسى الغليظ القلب إلى سمح أليف فمما هو مشهور معلوم أن الحجاج أتى بقبيلة متمردة فأعمل السيف فى الرقاب ثم جيء بشاب منها فاستأذن فى الكلام ثم قال: أما والله لئن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو فالتفت الحجاج إلى القتلى وقال: تبا لهذه الوجوه أما كان فيهم من يحسن مثل هذا القول وعفا عن الباقين أعتقد لو أن المعانى تزاحمت على هذا الشاب فقال مثل ما قال الفرزدق لكان ذلك مدعاة للمبالغة فى قتله وقومه ولما ظفر هو ومن معه ومن بعده بالعفو[١].

١- من سمات البلاغة أ.د/ جلال الذهبى ٤٤/١،٤٥.

ومثل ذلك قول ذى الرمة وهو يشبه صوت الرحل الجديد من ثقل ما يحمل بأصوات الفراريج:

كأن أصوات من إيغالهن بنا   أواخر الميس إنقاض الفراريج[١]

يريد أن بعض الرحل يحك بعضه فيحصل صوت شبيه بصوت صغار الدجاج من شدة السير واضطراب الرحل. وقد فصل الشاعر بين المضاف "أصوات" والمضاف إليه "أواخر الميس" بأجنبى "من إيغالهن بنا" وتقدير البيت: كأن أصوات أواخر الميس انقاض الفراريج من إيغالهن بنا.

ومن هذا القبيل أيضا قول الشاعر يصف دارا بالية:

فأصبحت بعد خط بهجتها   كأن قفرا رسومها قلما

وترتيب البيت كان ينبغى أن يكون هكذا: فأصبحت قفرا بعد بهجتها كأن قلما خط رسومها ولكن الشاعر عقد نظمه بفصله بين الفعل الناسخ "أصبح" وخبره وفصل بين أداة التشبيه "كأن" ومعموليها

---

[١]- عيار الشعر ٨٢، وأسرار البلاغة ١٩٢/١. والإيغال: مصدر او غل فى السير إذا أبعد وأسرع والضمير للإبل والأواخر جمع آخرة. الميس: شجر صلب تتخذ منه الرحال والمراد هنا: الرحال نفسها مجازا مرسلا من اطلاق الكل على الجزء أو من اطلاق الشىء على ما يؤول إليه. والرحال جمع رحل وهو: العود التى يستند إليها الراكب. والانقاض مصدر أنقضت الدجاجة: صوتت والفراريج جمع فروج وهو: صغير الدجاج.

أيضا وقدم خبرها عليها "جملة خط" ومن ثم بعد النظم كل البعد عن المقاييس الذوقية.

ومثل ذلك قول المتنبى يمدح قوما بحسن الصفات وعراقة الأصل:

جفخت وهو لا يجفخون بها بهم   شيم على الحسب الأغر دلائل[١]

يريد أن يقول هؤلاء القوم افتخرت بهم طبائع دالة على ما كان لآبائهم من مفاخر ومآثر وهم لا يتباهون بها لأنهم محققون لما هو أفضل منها وأوفى. وأصل الكلام "جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر وهم لا يجفخون بها". ولكن الشاعر فصل بين الفعل "جفخت" وبين فاعله "شيم" بأجنبى وهو جملة "وهم لا يجفخون بها" الواقعة حالا وكذلك بين الموصوف "شيم" وبين صفته وهى "دلائل" بالجار والمجرور على أن فى الفعلين "جفخت" و"يجفخون" تنافرا ملحوظا بين حروفهما بحيث ينبو عنهما الذوق السليم.

ولعل من أقبح صور هذا اللون من التعقيد قول الشاعر:[٢]

عق آب الوكر عن صيد الحبارى   إلى زيدا أخاك فريخ نسر

وحق النظم أن يكون هكذا: عق زيدا أخاك عن صيد الحبارى فقد آب إلى الوكر فريخ نسر. ولكن الشاعر وضع الكلمات

١- جفخت: افتخرت. أغر: واضح. دلائل: علامات ظاهرة. شيم: طبائع.

٢- بحوث المطابقة ١٤٠.

أمامه وكأنها أحجار على رقعة وراح ينقل الكلمة من موضعها ولا يعنيه أن يفهم الناس مراده أم يجهلوه وإنما الذى يعنيه فقط المحافظة على وزن البيت وفى سبيل الوزن ارتكب المخالفات التالية:

١- نقل حركة همزة الفعل آب إلى القاف قبلها فأصبحت الكلمتان كأنهما كلمة واحدة "عق آب".

٢- قدم المجرور "الوكر" على حرف الجر "إلى" وفصل بينهما وهذا التقديم وذلك الفصل قبيحان إلى أبعد غايات القبح.

٣- فصل بين الفعل "آب" وبين فاعله "فريخ" وأدخل حرف الجر "إلى" على المفعول "زيدا" وهذا عمل بالغ القبح.

٤- الإخلال بالمعنى حيث حذف كلمة "فقد" التى لا يتم المعنى بدونها والإخلال معيب عند البلاغيين وبهذا أصبح نظم البيت رديئا معقدا تعقيدا لفظيا بشعا.

هذا: وقيل لا داعى لذكر التعقيد اللفظى بعد ذكر ضعف التأليف لأن ذكره مغن عن ذكر التعقيد اللفظى إذ لا سبب لهذا التعقيد سوى ضعف التأليف بل لقد ذهب بعضهم إلى أن ذكر أحدهما مغن عن ذكر الآخر. أما إغناء الضعف فلما ذكرنا من أنه لا سبب للتعقيد اللفظى سواه وأما إغناء التعقيد فلأنه لازم للضعف إذ أن تأليف الكلام إذا لم يكن على وفق المشهور من قوانينهم يوجب

صعوبة فى فهم المراد منه لا محالة وذكر اللازم يغنى عن ذكر الملزوم كالضاحك للإنسان فإن ذكر الضاحك يغنى عن ذكر الإنسان[١].

ونقول: إن معرفة ضعف التأليف لا تغنى عن معرفة التعقيد اللفظى لأن مبنى ضعف التأليف على المخالفات النحوية وحدها فإذا ما روعيت القواعد النحوية سلم النظم من ضعف التأليف ومبنى التعقيد اللفظى على الخلل الواقع فى تركيب الكلام بعدم جريانه على القوانين المشهورة فى نظام الجملة وترتيب أجزائها بالتقديم والتأخير وما شاكله مما تكفل بتحديده علم النحو وقد يوجد التعقيد اللفظى مع سلامة القواعد النحوية فى النظم بدون ضعف التأليف كما فى قولنا: إلا عليا القوم هازم محمد "ففى هذا التركيب تقدم المستثنى على المستثنى منه والمفعول على اسم الفاعل والخبر على المبتدأ وكل هذه الأمور أجازها جمهور النحاة لجريانها وفق المشهور من قوانينهم والتركيب مع ذلك معقد لصعوبة فهم المراد منه والأصل: محمد هازم القوم إلا عليا.

وقد يوجد ضعف التأليف بدون التعقيد اللفظى كما فى قولنا: "فهم خالد بالصرف" فقد دخل حرف الجر على المفعول وهو عمل بالغ القبح لمخالفته قانون النحاة وهو مع ذلك خلو من التعقيد اللفظى

١- المنهاج الواضح ٤٠/٣.

لظهور المعنى المراد منه.

وقد يجتمعان كما في قول الفرزدق السابق: وما مثله في الناس إلا مملكا .. إلخ وقول ذى الرمة السابق أيضا: كأن أصوات من إيغالهن بنا ... إلخ وقول الشاعر "عق آب الوكر عن صيد الحبارى ... إلخ.

فبينهما عموم وخصوص وجهى ومعرفة أحدهما لا تغنى عن معرفة الآخر.

التعقيد المعنوى:

وهو: أن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد **بسبب صعوبة انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب وضع اللغة إلى المعنى الثانى المقصود بحيث يكون إدراك المعنى الثانى من الأول بعيدا عن الفهم يحتاج إلى تكلف بسبب استعمال اللفظ فى معنى خفى لزومه للمعنى الأول.**

كقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وهو من الشواهد العتيقة لهذا اللون من التعقيد فلا يكاد يخلو منه مصدر أو مرجع من مصادر ومراجع البلاغة التى بين أيدينا وكأن الشاعر كان يريد أن يقول: أنه سيطلب البعد عن أحبته غير

مبال بما يعانيه فى ذلك من غصص الفرقة وآلام النوى كما يطلب اكتواءه بنار الأسى على فراقهم وبلوغه الشوق إليهم عساه فيما بعد يحظى بوصل مقيم وفرح لا يزول وكأنه بهذا الطلب يخادع الزمان ويغالطه ليوافيه بضد ما يطلب على عادة الدهر من محاربته الناس فى مطالبهم ووقوفه حائلا دون ما يأملون وبذلك يتم للشاعر فى غفلة الدهر ما أراد من لقاء الأحبة والابتهاج والأنس بهم[١]. ولقد أحسن الشاعر فى تصويره سكب الدموع على ما يوجبه فراق الأحبة من الغم والحزن إذ البكاء عادة أمارة الحزن كما أن الضحك آية السرور والفرح لكن الشاعر قد أساء التصوير فى جمود العين كناية عن سرورها بقرب الأحبة واجتماع شمله بهم فلم يوفق الشاعر فى قوله "لتجمدا" لمجافاته للذوق العربى لأن الجمود معناه: البخل عند الحاجة يقال: سنة جماد أى بخيلة بالقطر كما يقال: ناقة جماد أى لا لبن فيها[٢] وقد ورد هذا المعنى فى قول الخنساء وهى ترثى أخاها صخرا:

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

أى لا تبخلا بالدمع فالشاعرة قد جعلت جمود العين على أصله كناية عن بخلها بالدمع ساعة الفواجع – والعياذ بالله–

١- المنهاج الواضح ٢٢/١.

٢- راجع دلائل الاعجاز ٢٦٨-٢٧٠.

وبهذا تكون الكناية عن السرور بجمود العين كناية خاطئة بدليل أنه لا يصح عند أهل صناعة الكلام أن يقال فى مقام الدعاء للمخاطب بالسرور: لازالت عينك جامدة على معنى: لا أبكى الله عينك لأنه دعاء عليه بالحزن لا بالسرور. وبهذا تكون الكناية فى قول العباس ابن الأحنف كناية خاطئة خارجة عن العرف المألوف المسموع ويأباها البلاغيون والنقاد لأن المعنى الذى أراده الشاعر وهو: "السرور" لا يفهم من "الجمود" إذ لا يدل عليه اللفظ لا لغة ولا عرفا.

وقد حاول البعض الدفاع عن الشاعر فى استعماله ذاك بطريقة متمحلة وهى:

أن يستعمل جمود العين الذى هو خلوها من الدمع وقت الحزن الشديد مجازا مرسلا علاقته الملزومية ثم يستعمل فى خلوها من الدمع مطلقا على سبيل المجاز المرسل من استعمال المقيد فى المطلق ثم يكنى بخلوها من الدمع مطلقا عن دوام السرور الذى أراده الشاعر لأن المسرور عادة تخلو عينه من الدمع وبهذا نصل إلى ما قصده الشاعر[1].

ونقول: إن استعمال الجمود فى مطلق الخلو من الدمع – مجازا مرسلا– ثم الانتقال منه إلى السرور على سبيل الكناية فيه تعسف وتكلف بتقدير الوسائط الخالية من القرائن الدالة على

١- بغية الإيضاح ٢٢/١.

المقصود وفيه مخالفة لاستعمالاتهم لأن الجمود لا يدل على السرور لا فى اللغة ولا فى العرف ولهذا كان الكلام معقد المعنى وعلى كل فالمسألة كلها عمادها الذوق البلاغى الرفيع الذى ينفر من التعمية ويفر من الخفاء.

وأحسب أنك قد أدركت معى الفرق بين التعقيد وبين الغرابة فالتعقيد عيب فى الكلام بخلاف الغرابة فهى عيب يعتور الكلمة وإن كان يجمع بينهما الخفاء إلا أننا نفرق بينهما بأن الغرابة بحسب الوضع بينما التعقيد لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به وهذا ناشيء عن الاستعمال لا عن الوضع.

وبعد: فإذا كنا قد عرفنا ما يعرض للفظ -كلمة أو كلاما- من عيوب وما ينتابه من خلل فجدير بنا أن نعرف:

بم نتقى هذه العيوب ونتجنب هذا الخلل فى كلامنا حتى يخرج اللفظ سليما معافى فى جوهره وصيغته ومعناه لا يشكو عيبا ولا يحس نقصا وفى الإجابة عن ذلك نقول:

١- التنافر فى الكلمة والكلام: والمرجع فى معرفة هذا العيب هو الذوق السليم المدرب.

٢- مخالفة الوضع: ويمكن الاحتراز عنها بمعرفة الألفاظ الموافقة لما ثبت عن الواضع فى معاجم اللغة.

٣- الغرابة: ويمكن اجتنابها بالاطلاع على علم متن اللغة فبه يمكن الوقوف على معانى المفردات المستعملة حتى يبتعد عن غيرها مما يحتاج إلى بحث وتنقيب فى معاجم اللغة أو يحتاج إلى تخريج على معنى بعيد غير سالم من الغرابة.

٤،٥- ضعف التأليف والتعقيد اللفظى: ويمكن تجنبهما بمعرفة قواعد علم "النحو" فهو ذو أصول وقواعد تبحث عن كيفية استعمال **الألفاظ المركبة على الوجه الصحيح**[١].

٦- التعقيد المعنوى: ويتجنب بدراسة علم البيان الذى يعرف به كيفية إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة

---

[١]- قد يتبادر إلى الذهن اعتراض فحواه: أن التعقيد اللفظى قد ينشأ من أمور يجيزها النحو كتقديم المفعول على الفاعل أو تقديم المستثنى على المستثنى منه فكيف نعد ذلك تعقيدا لفظيا وهو جائز فى النحو؟ والجواب على ذلك: أن النحو يبين أن الأصل مثلا تقديم الفاعل على المفعول أو تقديم المستثنى منه على المستثنى فإذا عكس الأمر كان مخالفا للأصل وأحيانا تكون هذه المخالفة سببا فى التعقيد اللفظى إذ قواعد النحو يمكن الاحتراز بها عن التعقيد اللفظى لأنها تبين ما خولف فيه الأصل حتى نشأ التعقيد بسبب هذه المخالفة هذا والتقديم والتأخير بين أجزاء الكلام إنما يؤدى إلى التعقيد إذا انعدمت القرينة الدالة التى تعين المعنى وتحدد المراد من الكلام أما إذا قامت القرينة الدالة على المراد فعندئذ لا يؤدى التقديم إلى التعقيد والغموض بل يكون من اسباب حسن المعنى وجماله وداعيا من دواعى فصاحته وبلاغته.

وبمعرفة هذه الطرق والوقوف على مباحثها ومسائلها يبتعد عن التعقيد المعنوى.

فصاحة المتكلم:

وهى ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح. والملكة: كيفية ثابتة راسخة دائمة يستطيع المتكلم أن يعبر بها عن مقصوده فى أى وقت شاء بلفظ فصيح ولهذا قيل "ملكة" ولم يقل صفة فلو عبر عن مقصوده بلفظ فصيح دون أن تكون هناك كيفية ثابتة فى نفسه فلا يسمى فصيحا. وقال "يقتدر" ولم يقل يعبر بها ليشمل حالتى النطق وعدمه وقال "بلفظ فصيح": ليشمل المفرد والمركب أى الكلمة والكلام.

وتكوين هذه الملكة واكتسابها إنما يكون بممارسة أساليب العرب الفصحاء والوقوف على أسرارها وحفظ كثير من الأشعار والنثر حفظا دقيقا واعيا متأملا وقبل هذا وبعده حفظ كتاب الله -عز وجل وحديث رسول الله- ﷺ والتفقه فيهما.

وبتكوين تلك الملكة يستطيع المتكلم أن يعبر عما يقصده بلفظ فصيح ويوصف هذا المتكلم بالفصاحة فيقال له: متكلم فصيح.

هذا: وبعد أن انتهينا من دراسة الفصاحة فلننتقل إلى دراسة البلاغة.

البلاغـــــــة

البلاغة فى الأصل اللغوى: تنبىء عن الوصول والانتهاء إلى الغرض وأما فى اصطلاح البلاغيين من المتأخرين فتخلتف باختلاف موصوفها وهو أحد اثنين: الكلام والمتكلم ولا توصف بها الكلمة فلا يقال: هذه كلمة بليغة لعدم ورود السماع بذلك أما المركب الناقص فعلى رأى من يدخله فى الكلمة لا يوصف بالبلاغة أيضا وعلى رأى من يدخله فى الكلام يوصف بها غير أن وصفه بالبلاغة على هذا الرأى محل نظر لأن بلاغة الكلام -على ما سيأتى- هى: مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولا يكون الكلام مطابقا حتى يكون تاما مفيدا.

بلاغة الكلام:

هى: مطابقته لمقتضى حال الخطاب مع سلامته من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة أجزائه.

وهذا تعريفها المشهور عند البلاغيين كما بين ذلك الخطيب القزوينى[١] وغيره -رحمهم الله- ومقامات الخطاب متعددة فهناك مقام الوصل، ومقام الفصل ومقام الإيجاز أو الاطناب أو المساواة أو غير ذلك وهناك خطاب الذكى والخطاب الغبى وهكذا وواضح أن لكل مقام مقالا كما قال الحطيئة لعمر بن الخطاب -رضى الله عنه:

١- الإيضاح ٧.

تحنن على هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

فالحال أو المقام الذى ورد فيه الخطاب هو:

الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يعتبر فى كلامه خصوصية ما .... ومثاله ذكاء المخاطب، أو غباؤه، واتساع وقته أو ضيقه .... إلخ. والحال والمقام بمعنى واحد فهما متحدان ذاتا أو هما كما يقول صاحب المطول -رحمه الله-: متقاربا المفهوم والتغاير بينهما اعتبارى فقط بالنسبة للزمان والمكان[١]. فإن اعتبر ذلك الأمر الداعى أنه زمان لورود الكلام فيه سمى "حالا" وإن اعتبر أنه محل لوروده سمى "مقاما" وكل ذلك لا يعدو التوهم والاعتبار وإلا فليس الأمر الداعى كالإنكار مثلا زمانا ولا مكانا وإنما هو سبب لورود الكلام على صورة خاصة غير أنه لما كان لابد لهذا الأمر من زمان ومكان يقع فيهما سمى بأحدهما تارة وبالآخر أخرى فالتسمية حينئذ لأدنى ملابسة.

ومقتضى الحال أو الاعتبار المناسب هو:

تلك الصورة الخاصة التى ورد عليها كلام المتكلم أو هو: الخصوصية التى يقتضيها المقام كما يقول العصام -رحمه الله- إن

١- المطول ٢٥.

مقتضى الحال خصوصيات وصفات قائمة بـالكلام[١]" وذلك كالايجاز والإطناب والتـأكيد وعدمـه والحـذف والذكـر والتقديـم والتـأخير .... إلخ.

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال هى:

اشتماله على ذلك الشيء الزائد على المعنى الأصلى. فإنكار المخاطب مثلا: حال لأنه يدعو المتكلم إلى اعتبار خصوصية هى: التأكيد فى كلامه لإزالة هذا الإنكار وصورة التأكيد التى جاء عليها الكلام هى: مقتضى الحال واشتمال الكلام على هذه الصورة هو معنى: المطابقة[٢].

وتطبيق ا لكلام على مقتضى الحـال هـو الـذى يسميه الإمام عبد القاهر الجرجانى بالنظم حيث يقول: ا لنظم هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام[٣].

فمقتضى الحال شيء يرتفع الكلام بمطابقته إياه وكل شيء يرتفع بمطابقته الكلام هو اعتبار مناسب للحال ومن هنا تكمن ركائز

١- الأطول ٣٤،٣٣/١.

٢- وقد خالف صاحب المطول -رحمه الله- الجمهور فى تحديد معنى: مقتضى الحال ومطابقة الكلام لمقتضى الحال واتفق معهم فى الحال (راجع المطول ٢٥-٢٨).

٣- دلائل الاعجاز ٨١.

بلاغة الكلام فى:

١- الحال.

٢- الخصوصية.

٣- المطابقة.

هذا: ومراتب البلاغة تتفاوت فى العلو والانحطاط بتفاوت مراعاة تلك المقتضيات وهذه الاعتبارات المناسبة للمقامات فكلما كانت رعاية تلك المقتضيات أو فى بالغرض وأليق بالمقام كان الكلام أبلغ وأسمى وكلما كانت تلك الرعاية أقل وفاء وأبعد لياقة كان الكلام أحط مرتبة وأقل بلاغة.

فإذا كنت مثلا تخاطب ذكيا منكرا لأمر من الأمور فإن الواجب عليك أن تراعى فى خطابك ذكاءه وإنكاره معا فتوجه كلاما موجزا مؤكدا إليه يلائم ذكاءه بالإيجاز ويناسب إنكاره بالتوكيد.

إنك إن التزمت ذلك بلغت الذروة فى التعبير لأنك سلكت طريق الكمال فى تحقيق المطابقة أما إن راعيت أحد الأمرين بأن أوجزت ولم تؤكد أو أكدت ولم توجز كان كلامك أدنى منزلة وأحط درجة فى البلاغة.

ومن أجل هذه الرعاية نرى القرآن الكريم فى أعلى طبقات البلاغة لصدوره عمن هو أعلم بكافة الأحوال ظاهرها وخفيها

وأدرى بمقتضياتها واعتباراتها "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير"[١].

ويتضح اختلاف الأسلوب تبعا لاختلاف الحال أكثر ما يتضح فى القرآن الكريم فمن الملحوظ أن الأسلوب القرآنى يتسم بالهدوء حين يتطلب الموقف الهدوء والتأمل والتدبر ولذلك نرى هذه السمة واضحة فى الآيات التى تدعو إلى إعمال الفكر وتحث على إمعان النظر خذ مثلا الآيات التى تسوق دلائل كثيرة على قدرة الله جلت قدرته: "الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم ا ستوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون"[٢]. فأنت ترى أن هذه الآيات تدور حول فكرة واحدة هى بيان أن الله قادر على كل شىء وأنه هو الخليق بالعبادة وحده وقد ساقت الآيات هذه الدلائل فى أسلوب هادىء مقنع للذين

١- سورة هود ١.

٢- سورة الرعد ٢-٤.

يتفكرون ويعقلون أما إذا كان الموقف يتطلب أن يتدفق الأسلوب في جمل قصيرة سريعة ليثير الانفعال السريع العنيف وذلك كالموقف الذى يستدعى هجوما من الحق على الباطل عنيفا مثيرا فإن القرآن الكريم يسوق من الآيات السريعة القصيرة ما يمثل هذا العنف المثير خير تمثيل استمع إلى هذه الآيات: "ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر"[١] وهكذا لو تتبعنا الأسلوب القرآنى فإننا سنجده متفقا مع الحال تمام الاتفاق وعليه فللبلاغة حدان أو طرفان أو مرتبتان:

١- أعلى:

إليه تنتهى البلاغة وهو حد الإعجاز وما يقرب من حد الإعجاز.

وحد الإعجاز هو:

أن يرتقى الكلام فى بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر

١- سورة المدثر ١١-٢٨.

ويعجزهم عن معارضته وهو مختص بالقرآن الكريم فقط بخلاف حد الإبداع الجمالى فإنه يشمل السنة المطهرة وليس المقصود منه التحدى بخلاف الإعجاز فإنه مقصود به التحدى إذ القرآن الكريم نمط من التعبير لم تصل إليه مدارك البشر ولن تصل مهما تطاول الزمان.

٢- أسفل:

منه تبتدىء وهو إذا ما غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة[١] حسب تفاوت البلغاء فى التعبير والوفاء بمقتضيات الأحوال وقد أنكر فخر الدين الرازى -رحمه الله- أن يكون الطرف الأسفل من البلاغة لأن منزلتها عنده أعلى منه[٢]. بخلاف الرمانى -رحمه الله- الذى جعل لها ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا فالعليا هى بلاغة القرآن الكريم والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغة البلغاء من البشر[٣].

ومن الوضوح بمكان أن تحقق الفصاحة فى الكلام والكلمة شرط أساسى لتحقيق الكلام البليغ بخلاف الفصاحة فى الكلام فإنها

١- الإيضاح ٩.

٢- نهاية الإيجاز ٦٤.

٣- النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ٦٩.

قد تتحقق بدون البلاغة إذ ليست البلاغة شرطا فى الفصاحة. فإذا قلت لمنكر: إن أنف هند لمسرج أو قلت: والله ليس بقرب قبر حرب قبر أو قلت: إن محمدا أكثر مودة من أخيه لم يكن كلامك بليغا رغم أنه مطابق لما تقتضيه حال المخاطب -ذلك لفقدان شرط الفصاحة فيه أما فى المثال الأول فلكون بعض أجزائه وحشيا غريبا وأما فى الثانى فلكونه متنافر الكلمات مجتمعة وأما فى الثالث فلكون بعض أجزائه مخالفا لما ثبت عن الواضع وللقياس الصرفى من وجوب إدغام المثلين المتحركين.

وإذا قلت لمن ينكر إمارة شوقى للشعر:

شوقى أمير الشعراء من غير تأكيد كان كلامك فصيحا رغم عدم مطابقته لمقتضى حال المخاطب إذ أن حاله تقتضى التأكيد محوا لانكاره وإنما كان فصيحا لسلامته من العيوب المخلة بالفصاحة.

ولما كانت الفصاحة داخله فى تعريف البلاغة عند الخطيب القزوينى والمتأخرين كانت البلاغة أخص من الفصاحة وبهذا يصح القول: كل كلام بليغ فصيح ولا عكس "لأن الأخص يستلزم الأعم كقولنا "كل إنسان حيوان ولا عكس" فالإنسان يحتوى على الحيوانية مع زيادة قيد النطق. والبلاغة تحتوى على معنى الفصاحة مع زيادة قيد المطابقة لمقتضى الحال فإن وجد هذا القيد فى الكلام الفصيح كان مع فصاحته بليغا وإلا فهو فصيح غير بليغ أما إذا كان الكلام

غير فصيح ابتداء فلا يدخل مجال البلاغة بحال من الأحوال لأنه إذا انتفى الأعم انتفى الأخص من باب أولى وقد بينا ذلك بالأمثلة آنفا.

ومن الأساسيات فى هذا أن البلاغة صفة راجعة إلى النظم لا إلى اللفظ ولا إلى المعنى.

بلاغة المتكلم:

هى: ملكة يستطيع المتكلم بها أن يعبر متى شاء بكلام بليغ فى أى معنى يريده ولو لم يقع منه ذاك التعبير بالفعل ويشترط فيه أن يكون فصيحا وتتكون تلك الملكة لديه بكثرة المران والقراءة ومعايشة التراكيب الجيدة والتعبيرات الرفيعة وتأملها تأملا واعيا وإدراكها إدراكا تاما ويضاف إلى هذا أن يكون ذلك المتكلم ذا طبع وذكاء يستطيع بهما الابتكار وتوليد المعانى عندئذ يستحق أن يوصف بالبلاغة فيقال له: متكلم بليغ ويحدد أبو هلال العسكرى –رحمه الله– مقومات تلك الملكة فيقول:

أول آلات البلاغة جودة القريحة وطلاقة اللسان وذلك من فعل الله تعالى لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها .... ومن تمام آلات البلاغة التوسع فى معرفة العربية وجودة الاستعمال لها والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها ومتخيرها ورديئها ومعرفة

المقامات وما يصلح فى كل واحد منها من الكلام[١].

هذا: ومما تجب ملاحظته أن المتكلم البليغ أخص من المتكلم الفصيح لأن المتكلم البليغ يشترط فيه القدرة على صياغة كلام بليغ والكلام البليغ هو المطابق لمقتضى الحال مع فصاحته وفصاحة مفرداته أما المتكلم الفصيح فهو الذى يستطيع التعبير فى أى وقت عن مقصوده بكلام فصيح دون أن تشترط مطابقة الكلام لمقتضى الحال فلو استطاع المتكلم أن يؤلف كلاما فصيحا غير مطابق لمقتضى الحال فإنه لا يقال عليه بليغ لعدم مطابقة كلامه لمقتضى الحال ويقال عليه فصيح وكذلك إذا عبر عن مقصوده بألفاظ مطابقة لمقتضى الحال ولكنها غير مستوفية شروط الفصاحة فإنه لا يسمى بليغا لاشتراط الفصاحة فى بلاغة الكلام والمتكلم وعلى هذا يمكن أن يكون المتكلم فصيحا ولا يكون بليغا إذا عبر عن المقصود بكلام فصيح غير مطابق لمقتضى الحال ولا يسمى بليغا إلا باجتماع الأمرين: فصاحة الكلام ومطابقته لمقتضى الحال ولذا قالوا: إن كل بليغ كلاما كان أو متكلما فصيح وليس كل فصيح بليغا[٢].

ومما سبق نعلم أن البلاغة تتوقف على أمرين:

الأول: الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد أى البعد

١- كتاب الصناعتين ٣٠، ٣١.

٢- الإيضاح ٩.

عن الخطأ وتجنبه فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ويمكن البعد عن هذا الخطأ بدراسة علم "المعانى" الذى يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق الكلام لمقتضى الحال وأحوال اللفظ هى الأمور العارضة له من: تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وإثبات وحذف وتأكيد وعدمه وفصل ووصل وغير ذلك. وبمعرفة هذه الأحوال والوقوف على أسرارها يمكن البعد عن الخطأ فى تأدية المعانى المرادة.

الأمر الثانى: سلامة الكلام من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة أجزائه.

وقد سبق أن جليت هذه العيوب والسبيل إلى الوقاية منها.

ولا تقع البلاغة وصفا للكلمة المفردة إلا إذا أريد بها الكلام المركب التام كالخطبة أو القصيدة أو الجملة أو الجمل فتوصف بالبلاغة على هذا الاعتبار فيقال كلمة بليغة وليس المراد بها اللفظ المفرد وقد أطلقت الكلمة على الكلام كما فى قوله تعالى: "قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ..."[١]، وكما قال ابن مالك:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثم حرف الكلم

[١]- سورة المؤمنون ٩٩،١٠٠.

واحده كلمة والقول عم　　　وكلمة بها كلام قد يـــؤم[1]

علوم البلاغة:

البلاغة تنحصر فى ثلاثة علوم هى:

١- علم المعانى: ووجبت دراسته لأنه السبيل إلى تجنب الخطأ فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال إذ هو معرفة خواص تراكيب الكلام.

٢- علم البيان: ولزم تناوله لأنه الطريق إلى معرفة صياغات المعانى ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها ومساعدة الأديب أو المتكلم على البوح بما فى نفسه وإبرازه مثل التشبيه والمجاز والكناية وكما ذكرت سابقا: بدراسة علم البيان نتجنب التعقيد المعنوى.

٣- علم البديع: وبه نعرف الوجوه التى تحسن الكلام وتزينه وتخلع عليه البهجة والرونق وتبرزه فى صورة تأسر اللب.

وكثير من البلاغيين يسمى هذه العلوم الثلاثة: علم البيان لأن البيان هو: المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير والعلوم الثلاثة لها تعلق بالكلام الفصيح تصحيحا وتحسينا.

وبعضهم يسمى الأول: علم المعانى والثانى والثالث: علم

---

[1]- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/١٣.

البيان وبعض آخر يسمى الثلاثة: علم البديع لبداعة مباحثها ومنهم من يسمى الأول والثاني: علم البلاغة لأنهما يبحثان في صلب المعنى المراد فتأثيرهما في الكلام ذاتي لا عرضي.

ولكني أميل إلى أن البلاغة: بناء أي نظم - معاني وصورة أي بيان وبديع ولكل وجهة لكن المهم هو: المضمون والمحتوى.

"علم المعانى"

هو: علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال. وينحصر هذا العلم فى ثمانية أبواب هى:

١- أحوال الإسناد الخبرى.

٢- أحوال المسند إليه.

٣- أحوال المسند.

٤- أحوال متعلقات الفعل.

٥- القصر.

٦- الإنشاء.

٧- الفصل والوصل.

٨- الإيجاز الإطناب والمساواة.

وذلك لأن الأسلوب العربى إما خبر وهو: ما يحتمل الصدق والكذب لذاته نحو: محمد ذاكر البلاغة. وإما إنشاء وهو: ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته نحو: هل ذاكر محمد البلاغة؟ والجملة الخبرية لابد لها من مسند إليه ومسند وإسناد مثل: محمد رسول الله. فمحمد "مسند إليه" و"رسول" مسند وإثبات الرسالة لمحمد إسناد وهذه هى الثلاثة الأولى من بحوث علم المعانى. والمسند قد يكون له

متعلقات إذا كان فعلا أو ما فى معناه كـالمصدر واسم الفـاعل واسم المفعول والظرف ونحو ذلك مثل: حفظ محمد القـرآن ونحـو: محمد نجح أو محمد ناجح فى الامتحان وهذا هو المبحث الرابـع وكـل مـن الإسناد والتعلق إما بقصر نحو: ما محمد إلا رسول. أو بغير قصـر نحو: محمد رسول وهذا هو الباب الخامس. والإنشاء قسيم الخبر هـو المبحـث السـادس والجملـة قـد توصـل بـأخرى أو تفصـل وهـذا هـو المبحث السابع والكلام البليغ إمـا أن يكـون مسـاويا للمعنـى أو زائـدا عليه أو ناقصا عنه لفائدة وهذا هو المبحث الثامن[١].

ولصـاحب المطـول -رحمـه اللـه- طريقـة أخـرى فـى وجـه حصر علم المعانى فى الأبواب السابقة هى:

أن اللفظ العربى إمـا مفـرد وإمـا جملـة وأحـوال الجملـة هـى الباب الأول والمفرد إما عمـدة أو فضلـة والعمـدة إمـا مسـند إليـه أو مسند فهذه أبواب ثلاثة وبعض أحوالها غامض متشعب البحوث وهو القصر فجعل بابا خامسا ومن أحوال الجملة مالـه شـرف زائـد وهـو الفصل والوصل فجعل بابا سادسا وهناك بحوث راجعة إلـى الإنشـاء وهـو البـاب السـابع وبحـوث أخـرى راجعـة إلـى الإيجـاز وصاحبيـه فجعل بابا ثامنا[٢].

---

[١]- راجع الإيضاح /١٠.
[٢]- المطور /٣٨.

وإذا كان علم المعانى قريبا من النحو أو هو توخى معانى النحو فإنه يختلف عنه فى معالجة الموضوعات، وقد فصل القول فى ذلك الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- وانتهى إلى أننا لا نريد المعانى الأول وإنما المعانى الثوانى وهى عنده: معنى المعنى[١]. ولخص المتأخرون فائدة علم المعانى فقال بهاء الدين السكى -رحمه الله- ولعلك تقول أى فائدة لعلم المعانى فإن المفردات والمركبات علمت بالعلوم الثلاثة -اللغة والنحو والصرف- وعلم المعانى غالبه من علم النحو؟ كلا إن غاية النحوى أن ينزل المفردات على ما وضعت له ويركبها عليها ووراء ذلك مقاصد لا تتعلق بالوضع مما يتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه لا تتناهى وتلك الأسرار لا تعلم إلا بعلم المعانى والنحوى وإن ذكرها فهو على وجه إجمالى يتصرف فيه البيانى تصرفا خاصا لا يصل إليه النحوى وهذا كما أن معظم أصول الفقه من علم النحو والحديث وإن كان مستقلا بنفسه واعلم أن علمى أصول الفقه والمعانى فى غاية التداخل فإن الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعانى هما موضوع غالب الأصول وإن كل ما يتكلم عليه الأصولى من كون الأمر للوجوب والنهى للتحريم ومسائل الاخبار والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد والإجمال والتفصيل والتراجيح كلها ترجع إلى موضوع علم المعانى وليس فى

---

[١]- دلائل الإعجاز /٢٦٣.

أصول الفقه ما ينفرد به كلام الشارع عن غيره إلا الحكم الشرعى والقياس وأشياء يسيرة"[١] وهذا ما أطال الكلام عليه الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- الذى قال إن الصحة فى الكلام هى الخطوة الأولى أما الخطوة الثانية فهى فهم الكلام واستخلاص ما فيه من المعانى الثوانى الذى يدل عليها ولذلك كان علم المعانى ضروريا فى فهم الأساليب واستخلاص الأسرار البلاغية الكامنة وراء التعبير بها، بعد أن أصبح علم النحو قواعد لا تعنى إلا بالإعراب والبناء والعوامل والجدل المنطقى الذى لا يخدم اللغة بقدر ما يعوقها عن النمو والازدهار.

ولما كان الإسناد الخبرى والإنشائى ضمن أبواب وموضوعات علم المعانى كان لزاما علينا أن نبدأ بمقدمة عن تعريف كل من الخبر والإنشاء ثم ندخل فى تفاصيل كل باب على حدة.

الخبر والانشاء

للبلاغيين المتأخرين وقفة عند الخبر ودلالته وقد عادوا فى بحثه إلى منهج المعتزلة وأدخلوا فيه المباحث الفلسفية والعقائدية[٢].

---

[١]- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١/٥١-٥٣.

[٢]- راجع: نهاية الإيجاز /١٠١ ومفتاح العلوم /١٦٤-١٦٧ والإيضاح /١٠ وشروح التلخيص ١/١٨٣.

وصفوة القول والمشهور المتعارف هو أن الخبر: كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته بصرف النظر عن القائل أو الواقع. أى يمكن تصور الصدق والكذب فيه ويمكن أن يقال لقائله: إنه صادق أو كاذب بأن يكون القول مطابقا للواقع أو غير مطابق فقولك: خالد شجاع "خبر لأنه يحتمل أن يكون "خالد" شجاعا فى الواقع فيكون الخبر صادقا وألا يكون شجاعا فيكون الخبر كاذبا.

هذا: وقيل "لذاته بصرف النظر عن القائل أو الواقع "فى تعريف الخبر: لأن احتمال الصدق والكذب منظور فيه إلى ذات الجملة الخبرية لا إلى القائل أو الواقع ونفس الأمر ولهذا دخلت الأخبار المقطوع بصدقها كأقوال الله تعالى وأقوال أنبيائه عليهم السلام فى هذا الضرب من الكلام لأنها فى ذاتها تحتمل الصدق والكذب وكذلك البديهيات المسلم بصدقها بداهة مثل: السماء فوقنا والأرض تحتنا والخمسة نصف العشرة والأربعة ضعف الاثنين لأنه يتصور فيها الصدق والكذب. كما تدخل الأخبار المقطوع بكذبها فى قسم الخبر أيضا كأقوال مسيلمة الكذاب فى دعواه النبوة وكقول فرعون موسى: "أنا ربكم الأعلى" وكمخالفتك للبديهيات كقولك مثلا: الأرض فوقنا والسماء تحتنا. وما أشبهه حيث يتصور فى مثل ذلك الصدق والكذب باعتبار ذات الخبر.

والإنشاء هو:

الكلام الذى لا يحتمل الصدق ولا الكذب لذاته بصرف النظر عما يستلزمه الكلام من جمل خبرية أى لا يمكن أن نتصور فيه صدقا ولا كذبا ولا يقال لقائله أنت صادق أو كاذب ولا واقع له حتى يقال إنه مطابق للواقع أو غير مطابق فقولك مثلا: اكتب يا محمد يستلزم جملة خبرية هى: أنا أطلب منك الكتابة والأخيرة تحتمل الصدق والكذب ولكن العبرة بذات الجملة الإنشائية لا ما تستلزمها من خبر ولهذا قيل فى تعريف الإنشاء "لذاته" وللإنشاء أنواع سنتناولها بالتفصيل أثناء الكلام فى باب "الإنشاء" بعون الله تعالى.

صدق الخبر أو كذبه

وفى ذلك آراء كثيرة أبرزها ثلاثة مذاهب هى:

- مذهب الجمهور.
- مذهب النظام.
- مذهب الجاحظ[1].

---

[1]- ومن العلماء الأوائل الذين عرضوا لموضوع صدق الخبر أو كذبه أيضا ابن قتيبة الدينورى "م.ت ٢٧٦هـ" فى مقدمة كتابه أدب الكاتب/١١ وقدامة بن جعفر "م.ت ٣٣٧هـ" فى الكتاب المنسوب إليه "نقد النثر ٤٤/٤٧" وأحمد بن فارس "م.ت ٣٩٢هـ" فى كتابه الصاحبى /١٧٩.

أولاً: مذهب الجمهور:

ويرى أن الخبر ينحصر فى الصدق أو الكذب ولا ثالث لهما وصدق الخبر عندهم يتحقق بمطابقته للواقع أى مطابقة مضمون الكلام ومدلوله للواقع ونفس الأمر وكذب الخبر عندهم يتحقق بعدم مطابقته للواقع أى لا يكون مضمون الكلام مطابقا للواقع ونفس الأمر وتفصيل ذلك: أن الكلام المخبر به له نسبتان:

الأولى: مفهومة من الكلام وهى مضمونه ومدلوله وتسمى "نسبة كلامية".

الثانية: نسبة مفهومة من الخارج والواقع أى يكون مضمون الكلام حاصلا وواقعا فى نفس الأمر بغير اللفظ المنطوق وتسمى هذه النسبة: "نسبة خارجية أو واقعية".

وعليه فإن قول المنافقين للرسول -ﷺ- "نشهد إنك لرسول الله"[١] خبر صادق من حيث مطابقته للواقع مع أن ذلك يخالف اعتقادهم وأما قول المنافقين: محمد ليس برسول فهو خبر كاذب لأنه خالف الواقع ووافق اعتقاد القائلين.

ثانيا: مذهب أبى إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام "م.ت ٢٢١ أو ٢٣١هـ" -رحمه الله- وهو أستاذ الجاحظ.

---

[١]- سورة المنافقون /١.

وخلاصة هذا المذهب: أن الخبر ينحصر فى الصدق والكذب أيضا إلا أنه اختلف مع الجمهور فى تفسير كل من الصدق والكذب فقال:

صدق الخبر مطابقته لاعتقاد المتكلم سواء طابق الواقع أو لم يطابقه، وكذبه عدم مطابقته لاعتقاد المتكلم سواء طابق الواقع أو خالفه فقول القائل: السماء تحتنا -معتقدا ذلك- صدق وقوله السماء فوقنا -غير معتقد ذلك- كذب.

واستدل النظام لرأيه بما يلى:

١- أن من اعتقد أمرا فأخبر به ثم ظهر أن خبره مخالف للواقع لا يعد كاذبا وإنما يعد مخطئا وقد روى عن عائشة -رضى الله عنها- أنها قالت فيمن شأنه كذلك: "ما كذب ولكنه وهم".

٢- قول الله تعالى: "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" فقد كذبهم الله تعالى فى قولهم للنبى -ﷺ- ما حكاه عنهم القرآن الكريم فى قوله تعالى "إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله" مع أن شهادتهم بالنبوة أمام النبى -ﷺ- خبر مطابق للواقع ولكن اعتقادهم لم يكن كذلك فهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم فتكذيب خبرهم هنا إنما هو بالنسبة لاعتقادهم وحده وإلا فهو صادق بالنسبة للواقع ومن هنا -كما يقول النظام- يكون صدق

الخبر وكذبه إنما هو بالنسبة لاعتقاد المخبر لا لمطابقة حكمه للواقع وإلا لما صح هذا التكذيب القرآني للمنافقين في قولهم: "إنك لرسول الله" لأنه مطابق للواقع.

وقد رد الاستدلال الأول:

بأن المنفى تعمد الكذب لا مطلق الكذب فقول السيدة عائشة -رضى الله عنها- "ما كذب" معناه: ما كذب عامدا أى لم يتعمد الكذب. ويشهد لذلك أننا نكذب الكافر إذا قال: الإسلام باطل مع صدور هذا القول عن عقيدة وأننا نصدقه إذا قال: الإسلام حق مع عدم اعتقاده ذلك فالعبرة بمطابقة الخبر للواقع.

ورد الاستدلال الثاني بعدة أوجه منها:

١- ان المنافقين أكدوا شهادتهم بإن واللام واسمية الجملة فهم على هذا يزعمون أن هذه شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم فالتكذيب في قولهم: "نشهد" لا فى قولهم: "إنك لرسول الله" فالتكذيب إذن فى الشهادة لا فى المشهود به.

٢- إن الله -عز وجل- كذبهم فى تسمية إخبارهم هذا شهادة لأن الشهادة فى الحقيقة إخبار واطأ فيه القلب اللسان أى إخبار على وفق الاعتقاد وما قالوه لا مواطأة فيه بين قلوبهم وألسنتهم فهم منافقون غشاشون فقولهم هذا إخبار لا شهادة فى الحقيقة.

٣- إن المعنى فى قوله تعالى: "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" أى قولهم "نشهد إنك لرسول الله" فهم كاذبون فى قولهم عند أنفسهم لاعتقادهم أن قولهم هذا خبر على خلاف ما هم عليه فى الواقع ونفس الأمر. فالتكذيب فى المشهود به لا باعتبار الواقع بل باعتبار زعمهم الفاسد واعتقادهم الباطل لأنهم يعتقدون أنه غير مطابق للواقع فيكون كاذبا باعتقادهم وإن كان فى الحقيقة صادقا فكأنه قيل: إنهم يزعمون أنهم كاذبون فى هذا الخبر الصادق وحينئذ لا يكون الكذب إلا بمعنى عدم المطابقة للواقع[١].

وذكر العلامة سعد الدين التفتازانى[٢] -رحمه الله- رأيا ولعله قد انفرد به وهو: أن يكون تكذيب الله -عز وجل- للمنافقين راجعا إلى حلف المنافقين وزعمهم أنهم لم يقولوا: لا تنفقوا على من عند "رسول الله حتى ينفضوا"[٣] لما ذكر فى صحيح البخارى عن زيد بن أرقم أنه قال: كنت فى غزاة فسمعت عبد الله بن أبى يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمى -أو لعمر- فذكره للنبى ﷺ فدعانى فحدثته فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله

---

[١]- راجع: الكشاف ٥٣٨/٤ وشرح السعد ضمن شروح التلخيص ١٨١/١.
[٢]- المطول /٤٠.
[٣]- سورة المنافقون /٧.

ابن أبى وأصحابه فحلفوا ما قالوا فكذبنى رسول الله ﷺ وصدقه فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط فجلست فى البيت فقال لى عمى: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك فأنزل الله تعالى : "إذا جاءك المنافقون" فبعث إلى النبى -ﷺ فقرأ فقال: إن الله قد صدقك يا زيد"[١]. وبهذا استراحت نفسه -رضى الله عنه- وعرف الناس أنه لا يحلف كاذبا إلا منافق خبيث.

وذكر صاحب الأطول -رحمه الله- أن بعض الأفاضل قد قال: إن المعنى أنهم قوم عادتهم الكذب وإن صدقوا فى هذا القول فلا تعتمد عليهم فيما يقولون ويحتمل أن يكون المراد -والله أعلم- أن قول المنافقين "نشهد إنك لرسول الله" مقيد بحضورك وحضور المسلمين فإذا ما خلوا إلى شياطينهم فحالهم خلاف ذلك والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" فيما ينفاقون ويضمرون ولهذا أعاد الاسم الظاهر ليسند الكذب إلى صريح لفظ المنافقين لا لضميرهم[٢].

وبعد: فالنظام كالجمهور يحصر الخبر فى الصادق والكاذب وإن خالفهم فى مرجع الصدق والكذب فيه.

ثالثاً: مذهب أبى عثمان الجاحظ "م.ت ٢٥٥هـ" -رحمه الله-

---

[١]- فتح البارى ٥١٢/٨.

[٢]- الاطول ٥٠/١.

ويتلخص فى: أن الخبر لا ينحصر فى الصدق والكذب ورأى أن صدق الخبر مطابقته للواقع مع الاعتقاد وكذبه عدم مطابقته للواقع والاعتقاد معا.

والخبر يتنوع إلى ثلاثة أنواع:

الأول: الخبر الصادق وهو: ما طابق الواقع والاعتقاد معا كقول المؤمن: الله موجود.

الثاني: الخبر الكاذب وهو: الذى لا يطابق الواقع مع الاعتقاد أو طابق الاعتقاد دون الواقع كأن يخبرك أحد قائلا: "إن أمريكا تسلك فى قضايا السلام والتحرر مسلكا حكيما عادلا" وكان يعتقد صحة ما يقول. لأن هذا الخبر غير مطابق للواقع لما نعلمه من انحياز سياسة أمريكا إلى بعض الكتل المناوئة للسلام والعدل.

ومثال الخبر الكاذب أيضا قول المؤمن: الإسلام باطل فهو خبر غير مطابق للواقع وغير مطابق للاعتقاد أيضا لأن المؤمن يعتقد أن الاسلام حق والواقع كاعتقاد المؤمن.

الثالث: خبر ليس بصادق ولا كاذب بل هو واسطة بين الصادق

والكاذب وهو محصور عنده فى أربع صور[١] هى:

١- الخبر المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق.

٢- الخبر المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلا.

٣- الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق.

٤- الخبر غير المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلا[٢].

وقد استدل الجاحظ لرأيه هذا بقوله تعالى " أفترى على الله كذبا أم به جنة"[٣] فقد رأى الجاحدون أن دعوى النبى -ﷺ- الرسالة وإخباره بالبعث والجزاء إما أن تكون افتراء وإما أن تكون جنونا وزعموا أنه لا يخلو عن أحدهما أى الافتراء أو الجنون.

وإخباره حال الجنون لا يسمى كذبا لأنهم جعلوا الافتراء فى مقابلته فهو قسيمه لأن المعنى: أكذب أم أخبر حال الجنون وقسيم الشىء يجب أن يكون غيره. كما لا يسمى صدقا لأنهم لم يعتقدوا

---

[١]- وقيل بل الأقسام ستة لأن مطابقة الخبر للواقع إما مع وجود اعتقاد موافق أو مع وجود اعتقاد مخالف أو بدون وجود اعتقاد أصلا وتجىء هذه الثلاثة مع غير المطابق للواقع أيضا فهذه ستة أقسام (مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ١٨٣/١، وانظر المطول ٤٠،٤١ والأطول ٥٠/١.

[٢]- شرح السعد ضمن شروح التلخيص ١٨٢/١-١٨٤.

[٣]- سورة سبأ /٨.

صدقه وبهذا يكون من الخبر ما ليس صدقا ولا كذبا.

وقد رد هذا الدليل:

بأن الافتراء كذب عن عمد والإخبار حال الجنون كذب أيضا لكنه لا عن عمد لأن المجنون لا يتعمد شيئا والتقسيم في الآية الكريمة السابقة للخبر الكاذب لا للخبر مطلقا والمعنى: أفترى أم لم يفتر وأطلق على عدم الافتراء قوله تعالى: "أم به جنة" لأن المجنون لا افتراء له وكذبه غير متعمد لأنه ليس له قصد يعتد به[١].

وبعد:

فإذا تأملت وجدت الجاحظ يجمع في الخبر الصادق بين مذهبي الجمهور والنظام لأن الجمهور كما علمت يشترطون في صدق الخبر مطابقته للواقع. وكذلك قال الجاحظ لكن مطابقة الواقع وحدها لا تكفي عنده لصدق الخبر بل لابد من مطابقة الاعتقاد حتى يكون صادقا. ومطابقة الاعتقاد كما علمت هي شرط صدق الخبر عند النظام.

كما تلمس تأثر الجاحظ في رأيه بعقيدته الاعتزالية التي تقول بوجود منزلة بين المنزلتين في كل شيء حتى في الإيمان والكفر كما

---

[١]- راجع الايضاح ١١-١٢ والمطول ٣٩-٤١ وشروح التلخيص ١/١٨٥-١٩٠.

هو رأيهم في من يرتكب الكبائر من المسلمين وهذا واضح في الصور الأربع عنده: واحدة صادقة وأخرى كاذبة واثنتان خاليتان من كل من الصدق والكذب على حد سواء.

وبالرد على رأيي النظام والجاحظ يسلم لنا رأى الجمهور ونراه أصلب عودا لعدم الاعتراض عليه وإن كان كل منهما وجيها في نظرته.

أحوال الإسناد الخبرى

قلنا فيما سبق إن الأسلوب العربى نوعان: خبر وإنشاء ولكل أحواله الخاصة به وها نحن بصدد الحديث عن الأول. وإنما قدمت مباحث الخبر على مباحث الإنشاء لعظم شأن الخبر وكثرة مباحثه. وقدم بحث أحوال الإسناد على أحوال المسند إليه والمسند مع أن نسبة المسند إلى المسند إليه متأخره عنهما لأن علم المعانى إنما يبحث عن أحوال اللفظ الموصوف بكونه مسندا إليه ومسندا وهذا الوصف إنما يتحقق بعد تحقق الإسناد لأنه ما لم يسند أحد الطرفين إلى الآخر لم يصر أحدهما مسندا إليه والآخر مسندا والمتقدم على النسبة إنما هو ذات الطرفين بصرف النظر عن كون أحدهما مسندا إليه والآخر مسندا[١].

---

[١]- المطول /٤٣.

هذا: ومن المعلوم والمسلم به أن الكلمات المفردة مثل محمد وعلى وفهم وجلس لا يفهم منها سوى معانيها اللغوية التى وضعت لها ولكى تفيد معنى تاما لابد من ترابطها وضم بعضها إلى بعض وصياغتها فى تراكيب مفيدة ونظم معبر.

هذا الترابط وذاك الضم وتلك الصياغة هى ما أطلق عليه البلاغيون اسم: الإسناد وعرفوه بقولهم: هو ضم كلمة أو ما يجرى مجراها إلى أخرى أو ما يجرى مجراها على وجه يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفى عنه.

والمقصود بـ "كلمة" هو المحكوم به أو المخبر به ويسميه البلاغيون "مسندا" والمقصود بأخرى هو المحكوم عليه أو المخبر عنه ويسمى عندهم المسند إليه.

ففى قولنا: "محمد فاهم وأحمد ليس جبانا" نجد أن كلمة "فاهم" قد أسندت إلى كلمة "محمد" على وجه أفاد أن مفهوم "فاهم" ثابت لمفهوم "محمد" ونجد فى المثال الثانى أن كلمة "جبان" قد أسندت إلى كلمة "أحمد" على وجه أفاد أن مفهوم الجبن منفى عن مفهوم "أحمد" ويسمى كل من: "محمد وأحمد" مسندا إليه أو محدثا عنه كما يسمى كل من "فاهم وجبان" مسندا أو محدثا به وتسمى النسبة بين المسند إليه والمسند: إسنادا.

وبهذا يكون الإسناد واقعا فى النسبة المثبتة والنسبة المنفية وهذا معنى قولهم: بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما -يعنى المسند- ثابت لمفهوم الأخرى -يعنى المسند إليه- أو منفى عنه.

والمراد بقولهم: "أو ما يجرى مجراها" الجملة الواقعة موقع المفرد بأن كانت مبتدأ أو خبرا أو فاعلا أو نائب فاعل ولهذا كانت صور طرفى الإسناد الخبرى أربعا:

الصورة الأولى: أن يكون الطرفان مفردين حقيقة كقولنا: "انتصر الحق وانهزم الباطل والله موجود والعلم نور" فكل جملة من هذه الجمل الأربع فيها الطرفان مفردان حقيقة.

الصورة الثانية: أن يكون الطرفان جملتين كل منهما تجرى مجرى المفرد لوقوعها فى حكمه وتنزيلها منزلته مثل: "لا إله إلا الله تنجى قائلها من عذاب النار" فجملة: لا إله إلا الله" مقصود لفظها تجرى مجرى المفرد ولذلك وقعت مبتدأ أما جملة "تنجى" المكونة من الفعل والفاعل والمفعول فقد جرت مجرى المفرد ووقعت موقع الخبر أيضا.

الصورة الثالثة: أن يكون المسند إليه مفردا حقيقة والمسند جملة تجرى مجرى المفرد مثل: "قواتنا المسلحة حققت نصرا عظيما وجيوشنا أذاقت العدو مرارة الهزيمة" فكل من "قواتنا" و"جيوشنا"

مسند إليه وهو مفرد حقيقة وجملة الخبر فـي كل من الجملتين هـي المسند وقد حلت محل المفرد أي جرت مجراه.

الصورة الرابعة: أن يكون المسند إليه جملة تجرى مجرى المفرد والمسند مفردا حقيقة نحو قوله تعالى: "وأن تصوموا خير لكم"[١]. والتقدير: صيامكم خير لكم فالمسند إليه جملة جرت مجرى المفرد والمسند مفرد حقيقة.

ومما سبق يتضح لنا: أن الإسناد هو المعول عليه فى الجملة العربية وهو نفسه نظم الكلام الذى وهب له الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- جهده وعرقه وجعل فيه البلاغة كلها -بشروطه- والإعجاز القرآنى كامن فيه[٢].

كما يتبين لنا أنه يقوم على ركنين أساسيين هما: المسند إليه والمسند ومنهما تتكون الجملة وما زاد عليهما فهو قيد فيها ومتعلق بها. ولكل منهما مواضع يمكن اجمالها فيما يلى:

أولا: مواضع المسند إليه هى:

١- الفاعل للفعل التام وكذا فاعل شبه الفعل التام نحو: ساعدتنا الدول العربية فى القضاء على آثار الزلزال وعلى مجتهد

---

[١]- سورة البقرة /١٨٤.

[٢]- بلاغة المعانى أ.د/ عبد الحليم شادى /٦٣.

فى دروسه. فالفاعل فى الجملة الأولى هو "الدول" والفعل تام وهو "ساعد" وفى الجملة الثانية الفاعل ضمير مستتر تقديره "هو" جاء فاعلا لشبه الفعل وهو "مجتهد" مأخوذ من "اجتهد" وهو فعل تام.

٢- نائب الفاعل نحو قوله تعالى: وإذا الجنة أزلفت"[١] فنائب الفاعل ضمير مستتر تقديره "هى" وفعله "أزلفت" مبنى للمجهول.

٣- المبتدأ الذى له خبر نحو قوله تعالى: "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم"[٢] فمحمد مبتدأ وخبره "رسول الله" "والذين" مبتدأ أيضا وخبره "أشداء على الكفار رحماء بينهم".

٤- ما أصله المبتدأ: كاسم كان وأخواتها نحو أصبح على شيخا. واسم إن وأخواتها مثل: ليت الشباب يعود يوما وكالمفعول الأول لظن وأخواتها مثل: ظننت عليا مسافرا وكالمفعول الثانى لأرى وأخواتها مثل: أريتك السماء صافية فكل من: على والشباب وعليا والسماء أصله المبتدأ ولذا يكون مسندا إليه.

---

[١]- سورة التكوير /١٣.

[٢]- سورة الفتح /٢٩.

ثانياً: مواضع المسند هى:

١- الفعل التام نحو: أسهم وشارك فى قولنا: أسهمت الدول العربية فى بناء المدارس وشاركت فى دعم اقتصادنا.

٢- المبتدأ المكتفى بمرفوعه عن الخبر نحو: أقائم المحمدان وما مضروب العمران فكل من "قائم ومضروب" مسند والمحمدان فاعل سد مسد الخبر والعمران نائب فاعل سد مسد الخبر وكل منهما مسند إليه.

٣- خبر المبتدأ: مثل الصدق منج والكذب مهلك فمنج ومهلك خبران وكل منهما مسند.

٤- ما أصله خبر المبتدأ كخبر كان وأخواتها مثل: بات الحارس ساهرا وخبر إن وأخواتها نحو: إن الله عليم بالسرائر والمفعول الثانى لظن وأخواتها نحو: حسبتك ظالما أخاك والمفعول الثالث لأرى وأخواتها نحو: أنبأتك الخبر صادقا فكل من: "ساهرا وعليم وظالما وصادقا" مسند لأنه فى الصل خبر عن المبتدأ.

٥- اسم الفعل نحو: أف بمعنى أتضجر فى قولك: أف من هذا العمل ونحو: شتان بمعنى افترق فى قوله: شتان ما بين اليزيدين فى الندى.

٦- المصدر النائب عن فعل الأمر مثل: ضربا وقتلا واشفاقا فى قولنا ضربا رقاب الأعداء وقتلا لهم واشفاقا بالضعفاء.

ثالثاً: مواضع المتعلقات بالجملة والقيود فيها هى:

ما زاد عن مواضع المسند إليه والمسند وذلك: كأدوات الشرط وحروف الاستفهام وأدوات التوكيد وحروف النفى والنواسخ والمفعولات -غير المفعول الأول والثانى لظن وأخواتها وغير المفعول الثانى والثالث لأرى وأخواتها.

والحال والتمييز والتوابع وضمير الفصل وكذلك الجار والمجرور والظرف إذا لم يكونا فى موقع الخبر وغير ذلك فإذا قلت مثلا: ظل الفاروق يكافح ويناضل فى سبيل مصلحة الإسلام أمام قوى معادية حتى لقى الله مجاهدا. كان المسند إليه فى هذه العبارة هو: "الفاروق" والضمير المستتر فى "يكافح" وفى "يناضل" وفى "لقى" والمسند هو: يكافح ويناضل ولقى وما عدا ذلك يسمى قيودا فى العبارة.

هذا: وسوف نتناول - بعون الله- الإسناد الخبرى من ثلاث جهات هى:

١- أغراض الخبر.		٢- أضرب الخبر.

٣- الإسناد الحقيقى والإسناد المجازى.

أولاً: أغراض الخبر:

الغرض العام للمتكلم البليغ هو: أن ينقل لمخاطبه ما يقوم بنفسه من آراء وأحاسيس وتتنوع أغراض الخبر حسب قصد المتكلم إلى أغراض أصلية وأخرى بلاغية والمقام هو الذى يحدد نوع الخبر والغرض منه.

١- الأغراض الأصلية للخبر:

إذا أخبرت أحدا بخبر فلا يخلو حاله من أحد أمرين:

١- أن يكون جاهلا بمضمون الخبر الذى تلقيه.

٢- أن يكون عالما بذلك المضمون.

فإذا كان مخاطبك من الطراز الأول وقلت له مثلا: أنت نجحت بتفوق فى امتحان هذا العام فإنك تعلمه مضمون خبر لا علم له به قبل إخبارك إياه وهذا يسمى: فائدة الخبر "لأن جاهل الحكم صار بإخباره عالما به". ومن ذلك قول الله -عز وجل-: "شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر"[١] فالله -عز وجل- قد أخبر المؤمنين بأن شهر رمضان هو الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وأنهم فرض

---

[١]- سورة البقرة /١٨٥.

عليهم صيامه ومن كان مريضا أو على سفر فله الفطر وعليه الصوم فى أيام أخر فالمقصود من إلقاء الخبر -والله أعلم- على المؤمنين إبلاغهم خبرا جديدا وحكما إسلاميا لم يكن معروفا لهم من قبل وفائدة ليس لهم سابق علم بها وكل حكم من هذا النوع يسمى -كما ذكرت-: فائدة الخبر.

ويقوم على هذا الغرض الأخبار المتعلقة بعرض المسائل العلمية على المتعلمين فى قاعات الدرس وفى الكتب العلمية المؤلفة فى العلوم المختلفة.

وإذا كان مخاطبك من الطراز الثانى وقلت له نفس المثال السابق: أنت نجحت ... إلخ والحال أنه عالم بمضمونه قبل وأنت تعلم ذلك منه فإنك لا تقصد من إلقاء الخبر إليه إفادته معنى جديدا لم يعلمه. لأن ذلك تحصيل حاصل وهو عبث أو باطل وإنما تريد أن تفيده أنك عالم بمضمون الخبر الذى هو نجاحه بتفوق وهذا يعنى علمك بنجاحه هو الذى يجهله المخاطب وأنت أردت إعلامه بأنك عالم به ويسمى هذا: لازم الفائدة يعنى الأمر الذى يستلزمه حكم الخبر وفائدته وسمى "لازما" لأن الفائدة الأصلية للخبر موجودة معلومة وما بقى إلا شيء يتعلق بها وهو هذا الإعلام الجديد بأنك أنت أيضا تعلم لا مخاطبك وحده. ومن ذلك أيضا قولك لمخاطبك: سمعت إلى قصيدتك الرائعة فى حفل الأمس ومنه أيضا إجابات

الطلاب على ما يوجه إليهم من أسئلة لأن الغرض منها إفـادة المعلـم أنهم على علم بصحة الإجابة التى يعلمها.

والخلاصة:

إن الهدفين الأساسيين من كل خبر يقال هما:

١- إفادة المخاطب فائدة الخبر.

٢- إفادته لازم الفائدة.

مـع ملاحظـة أن الهدف الثـانى لا يقدم جديـدا للمخـاطب إلا إفادته أن المتكلم عالم بالحكم.

العلاقة بين الفائدة ولازم الفائدة:

تتلخص هذه العلاقة فى أن الفائدة تسـتلزم لازمهـا ولا عكس وبيان ذلك أنك كلما أفدت المخاطب حكما يجهله أفدتـه أنـك عـالم بـه لأن فاقد الشىء لا يعطيه وليس كلما أفدت مخاطبك أنك عالم بـالحكم أفدته الحكم لجواز علمه بالحكم قبل إخبارك وإفادتك له.

أما إذا كان قصـدك مـن الخـبر إفـادة المخـاطب الحكـم "فـائدة الخبر" فهذا يلزمه بالضرورة أنك عالم به من باب أولى لأنك لـو لـم تكن كذلك لما استطعت أن تفيد فإذا أردت أن تعلم تلاميـذك أن خـالد بـن الوليـد -رضـى اللـه عنـه- مثـلا كـان والـده مـن عتـاة الكفـرة

فقد أفدتهم ما كانوا يجهلون وهذه فائدة الخبر وهذه الفائدة تستلزم لازمها وهو أنك عالم بمضمون هذه الجملة ولا عكس[١].

الأغراض البلاغية التى يخرج إليها الخبر:

نبه البلاغيون إلى أن الخبر فى كلام البلغاء غالبا ما يقصد به أغراض أخرى غير هذين الغرضين الأساسيين وأن تلك الأغراض الأخرى أكثر من أن تحصى والمرجع فى معرفتها إلى تفهم السياق وقرائن الأحوال اعتمادا على الذوق الأدبى السليم والطبع العربى الأصيل ومعظم أغراض الأساليب الخبرية فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وروائع الأدب والأشعار تجرى على هذه الأغراض التى منها:

١- إظهار الفرح والسرور كقولك للناجح: نجحت فى الامتحان، ووجهك يتهلل بشرا وقلبك مفعم بالسرور. وكقول الناجح لمن يعرف نجاحه: فزت فى الامتحان والحمد لله. فليس القصد هنا فائدة الخبر ولا لازم الفائدة بل القصد إلى إظهار الفرح والسرور بمناسبة نجاحه.

٢- إظهار الضعف وسوء الحال كقوله تعالى حكاية عن زكريا -عليه السلام- "رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس

---

[١]- راجع شروح التلخيص ١٩٤/١ وما بعدها.

شيبا"[١]. فزكريا -عليه السلام- لم يقصد أن يخبر المولى -عز وجل- بما آلت إليه حاله من ضعف وكبر فالله عالم بكل شيء -وإنما أراد أن يظهر ضعفه وأنه بلغ من الضعف والكبر أقصى غايتهما.

وكقول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وكقول الشاعر:

إلهى عبدك العاصى أتاكا مقرا بالذنوب وقد دعاكا

فالشاعر يريد إظهار ضعفه وخشوعه أمام مولاه -عز وجل- عله يتوب عليه ويغفر له وتحقق هذا الغرض على اعتبار أن **البيت خبرى فى المعنى وإن كان انشائيا فى اللفظ لصدارة النداء فى البيت أما إذا اعتبر انشائيا لفظا ومعنى فلا شاهد فيه هنا وإن بقى الغرض.**

٣- الاسترحام والاستعطاف كقوله تعالى فى شأن سيدنا موسى - عليه السلام- بعد أن سقى لبنات سيدنا شعيب الغنم: "فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير"[٢]

---

[١]- سورة مريم /٤.

[٢]- سورة القصص /٢٤.

فلم يقصد بكلامه هذا -والله أعلم- إلا الاستعطاف وطلب الرحمة.

وكقول إبراهيم بن المهدى يخاطب المأمون:

أتيت جرما شنيعا وأنت للعفو أهل

فإن عفوت فمن وإن قتلت فعدل

فإبراهيم المهدى لا يقصد أن يخبر المأمون بجرمه الشنيع لأنه يعلم ذلك ولا يريد كذلك أن يفيده أنه عالم بأنه أتى هذا الجرم الشنيع وإنما يستعطفه ويسترحمه رجاء أن يعفو عنه ويصفح. وكقولك: إنى فقير إلى رحمتك يا الله محتاج إلى رضاك لا أستند إلا إليك ولا أطلب الرحمة إلا منك.

٤- إظهار التحسر:

أ- على فقد عزيز كقول أعرابى يرثى ولده:

ولما دعوت الصبر بعدك والأسى أجاب الأسى ولم يجب الصبر

فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

ب- أو على فقد شيء محبوب كقول الشاعر يتحسر على فقد الشباب:

ذهب الشباب فماله من عودة وأتى المشيب فأين منه المهرب

[٢] وكقول الآخر يتحسر على ما فات:

ذهب الصبا وتولت الأيام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

جـ- أو على أمل ضاع ولم يتحقق أو على فوات مرجو كقوله تعالى حكاية عن إمرأة عمران: "رب إنى وضعتها أنثى"[١] فهى تعلم يقينا أن الله -عز وجل- عالم بمن وضعت ولكنها أرادت -والله العلم- أن تظهر تحسرها وتحزنها على فوات ما كان مرجوا حيث كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرا كى تهبه لخدمة بيت المقدس.

ويقول أحد الباحثين:

إن استفادة معنى التحسر من الآية الكريمة إنما جاء من طريق الإشارة والتلويح وليس اللفظ مستعملا فيه كما فهم بعضهم وإلا لزم أن تكون الآية إنشاء فى المعنى فلا تصلح شاهدا لما نحن بصدده من التمثيل بها لما هو خبر لم يرد به إفادة المخاطب الحكم ولا لازمه[٢].

د- أو على ما سيكون كقول الله تعالى حكاية عن زكريا -عليه

---

[١]- سورة آل عمران /٣٦.

[٢]- المنهاج الواضح ٢٣/٤.

السلام- "وإني خفت الموالي من ورائي"[١] فزكريا -عليه السلام- يتحسر على ما سيكون من ضياع الدين والعلم على يد ورثة آخرين من بني العم والعشيرة لا يحسنون وراثة العلم والنبوة إذا لم يرزق بوريث من صلبه.

٥- النصح والإرشاد:

ويقع أكثر ما يقع في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة إذا كان الغرض منها إصلاح الفرد أو رسم طرق النجاة له كذلك يقع في أكثر الحكم والأمثال.

مثل قوله تعالى: "وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير"[٢] وقوله تعالى: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظم به"[٣] ولا مانع من أن تكون الآيات الكريمة مقصودا بها النصح والإرشاد وفي نفس الوقت يكون الغرض منها فائدة الخبر وكذلك قوله -ﷺ- "أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه

---

[١]- سورة مريم /٥.

[٢]- سورة البقرة /٢٨٤.

[٣]- سورة النساء /٥٨.

الجور فى عدله" ومن الشعر قول مهيار الديلمى:

خليلك من صفا لك فى البعاد   وجارك من أذم على الوداد[1]

وحظك من صديقك أن تراه   عدوا فى هواك لمن تعادى

٦- العتاب كقول الله تعالى للرسول -ﷺ-: "عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى"[2]، فالغرض من هذه الآيات هو -ولله العلم- عتاب الرسول -ﷺ- تجاه عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى سعى إلى النبى -ﷺ- ليسمع منه فيتعظ ويتزكى ولكن الرسول -ﷺ- بغير قصد منه شغل عنه بدعوة عظماء القوم الذين أعرضوا عن الدعوة وحاربوا صاحبها فجاء عتاب الله لرسوله -ﷺ- حتى أصبح الرسول بعد نزول هذه الآيات يهش لابن أم مكتوم ويقول له: مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى"[3].

٧- التهديد كقوله تعالى: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا

---

[1]- أذم: عاهد.

[2]- سورة عبس /١-١٠.

[3]- أسباب النزول للنيسابورى /٣٢٨.

أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا"[١] وكقوله تعالى: "وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور"[٢].

وكقولك لمن شتمك: شتمتنى وأنت تعلم صولتى وغضبتى مهددا له بالانتقام.

٨- الحث واستنهاض الهمم لشىء محمود أو التحذير والتنبيه على شىء ممقوت: فمثال الأول: من جد وثابر فاز بما يريد، من طلب العلا سهر الليالى تقول ذلك فى مقام من يحتاج إلى استنهاض الهمة والحض على الجد والمثابرة ولا مانع من دخول هذا الكلام فى باب النصح ومنه قوله -عز وجل- حكاية عن قوم موسى -عليه السلام- "قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا"[٣] حفزا لموسى -عليه السلام- للدفاع عنهم وكقول الله تعالى: "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة"[٤] ومنه قوله تعالى:

---

[١]- سورة الكهف /٢٩.

[٢]- سورة الملك /٦-٧.

[٣]- سورة الأعراف /١٢٩.

[٤]- سورة يونس /٢٦.

"كل امرىء بما كسب رهين"[١] وكقول الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

ومثال الثاني: من يعص والديه يعذبه الله، ومن يأكل حراما لا يمت بخير نقول ذلك فى مقام من يعق والديه وفى مقام من يأكل حراما ومنه قول النبى -ﷺ- "أبغض الحلال إلى الله الطلاق" ففيه تحذير من الالتجاء إلى الطلاق إلا للضرورة ومنه قولهم: "من غربل الناس نخلوه" ففى ذلك تحذير من التعرض لمثالب الناس ومنه قول بعضهم: من يزرع الشوك يجنى الجراح.

وهناك أخبار تجمع الحث على شىء محمود والتحذير من شىء ممقوت كقوله تعالى: "لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم"[٢] فالغرض هو -ولله العلم- حث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله. فالجهاد شىء محمود له الثواب العظيم وكذلك التحذير من التقاعس عن الجهاد إلا بعذر لما فيه من انحطاط للهمة ولما فيه من الجبن والخور. وكقوله تعالى: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون"[٣]

---

[١]- سورة الطور /٢١.

[٢]- سورة النساء /٩٥.

[٣]- سورة الزمر /٩.

فالغرض -ولله العلم- هو الحث على طلب العلم والتحذير من الجهل.

والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى. والتقدير: لا يستوى الذين يعلمون... إلخ. وكقول الشاعر:

جد الزمان وأنت تلعب   والعمر فى لا شىء يذهب

يحث على الجد والمثابرة وانتهاز العمر فيما يجدى ويحذر من الإهمال وضياع العمر فيما لا فائدة منه.

٩- إظهار فضل المخاطب والثناء عليه كقوله تعالى مخاطبا سيد الخلق -ﷺ- **"إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا"**[١].

١٠- **التوبيخ والتعريض بالمخاطب كأن تقول لمهمل لم يتحقق له ما تحقق لأضرابه المجتهدين: نجح المجدون تريد توبيخه على إهماله** وكقولك لمسلم تارك للصلاة وهو يعلم فرضيتها: الصلاة ركن من أركان الاسلام.

وكقول الشاعر:

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى   وأشمت بى من كان فيك يلوم

---

[١]- سورة الأحزاب /٤٥-٤٦.

ومن التوبيخ على الاعتداء قوله تعالى: "وما ربك بظلام للعبيد"[١]. والتعريض كما لو قلت: ما أنا بعاق لوالدى مخاطبا من هو كذلك.

١١- العظة والاعتبار كقولك: الحياة كطيف خيال وكقول الواعظ لإنسان غافل عن الآخرة: **الموت حوض وكل الناس وارده.**

١٢- الفخر كما فى قول عمرو بن كلثوم:

إذا بلغ الفطام لنا رضيع   تخر له الجبابر ساجدينا

وكقول الفرزدق:

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا   وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

١٣- المدح كما فى قول النابغة يمدح النعمان بن المنذر:

فإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

إلى غير ذلك من الأغراض[٢] التى نبه البلاغيون إلى أنها أكثر من أن تحصى مع ملاحظة أنه لا توجد قواعد ثابتة ولا مقاييس محصورة ولا معالم مرسومة تعرف بها تلك الأغراض. وقد يحتمل

---

[١]- سورة فصلت /٤٦.

[٢]- تنظر أغراض الخبر المجازية فى: الصاحبى لابن فارس /١٧٩ والبرهان فى علوم القرآن ٢/٣٢٠-٣٢١ والإتقان فى علوم القرآن ٣/٢٢٦-٢٢٧ ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن ١/٤٢٢.

الخبر أحيانا غرضين أو أكثر حسبما يفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال فمثلا: قد يؤلف الشاعر قصيدة في غرض من الأغراض كالغزل ثم تأتى فى ثنايا القصيدة أبيات دالة على التحسر والتحزن لهجران الحبيب وتأتى أبيات أخرى منها تدل على وصف الحبيب وصفا يذيب قلوب العاشقين وتأتى أبيات أخرى تدل على الفخر بالحسب والنسب أو بقوة الشكيمة والبطولة الخارقة ليظهر المحب أمام حبيبه مثلا رائعا فى البطولة وقوة البأس وهذا كله يندرج تحت الغرض العام وهو الغزل فمن وجهة نظر بعضهم يكون الغرض غزلا ومن وجهة نظر أخرى يكون تحسرا إذا لاح منه التحسر أو وصفا إذا دل على الوصف أو فخرا إذا أشار إلى الفخر وهكذا مما يلوح من خلال أبيات القصيدة.

وجه دلالة الخبر على أغراضه:

اختلفت آراء البلاغيين فى وجه دلالة الخبر على أغراضه المذكورة فبعضهم يرى أن الغرض الأول هو: "فائدة الخبر" يفهم من ذات الخبر ويدل عليه دلالة حقيقة مباشرة فعندما تقول لمن لا علم له بنجاح "محمد": نجح محمد فإنه يفهم مضمون الخبر وفائدته من ذات الجملة ونفس الإسناد. أما بقية الأغراض فيدل عليها الخبر دلالة تبعية فهى من مستتبعات التراكيب أى أن تلك الأغراض تفهم من الخبر بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال فدلالة الآية المباركة

"رب إني وضتها أنثى" على إظهار التحسر وابداء التحزن تم عن طريق معرفة السياق والوقوف على قرائن أحواله من أن امرأة عمران قد وهبت ما فى بطنها لخدمة بيت المقدس وأنه قد خاب رجاؤها ولم يتحقق ما أملته عندما وضعت أنثى.

وهكذا بقية الأغراض يدل عليها الخبر بمعرفة السياق ومعرفة قرائن أحواله.

ويرى آخرون "أن فائدة الخبر ولازم الفائدة" قد دل عليهما الخبر دلالة حقيقية حيث يفهمان من ذات الإسناد ونفس البناء وما عداهما دل عليه الخبر عن طريق الكناية فكما دلت كثرة الرماد وهزال الفصيل وجبن الكلب على صفة الكرم فكذلك الدلالة على الأغراض المذكورة: إظهار التحسر – إبداء الضعف – الفخر – الرثاء قد فهمت من أخبارهافى الشواهد المذكورة عن طريق الكناية.

ورأى ثالث يقول: إن هذه الأغراض التى خرجت عن الأصل من قبيل المجاز المرسل حيث استعمل الكلام فى معنى الفخر أو المدح أو التحسر أو تحريك الحمية مثلا مجازا مرسلا من استعمال المركب فى غير ما وضع له لعلاقة اللزوم[١].

---

[١]- راجع هذه الأراء فى شروح التلخيص ١٩٣/١ وما بعدها وبغية الإيضاح ٤٢/١،٤٣.

ولا أرى فائدة ولا ثمرة وراء هذه الاختلافات فى تحديد وجه دلالة الخبر والذى أرجحه هو الرأى الأول لأن المخاطب عندما يقف على السياق ويعرف قرائن أحواله تتضح له هذه الأغراض فليس هنالك ما يدعو إذا للقول بأن إفادتها عن طريق الكناية أو المجاز المركب.

أضرب الخبر

يعد المبرد أول من أشار إلى أضرب الخبر وذلك عندما سأله الكندى المتفلسف قائلا: إنى لأجد فى كلام العرب حشوا فقال له أبو العباس: فى أى موضع وجدت ذلك؟ فقال أجد العرب يقولون: عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله قائم ثم يقولون: إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعانى[1].

وقد أفاد البلاغيون من إجابة المبرد ونبهوا إلى ضرورة أن يكون المتكلم عالما بأحوال المخاطبين خبيرا بنفوسهم وما يجول فى خواطرهم ويتردد فى أذهانهم وأن يلقى إليهم كلامه ملائما لتلك

---

[1]- دلائل الإعجاز /٣١٥.

الأحوال وأن يكون على علم تام بمدى استعدادهم لتلقى مفاهيم أخباره بالقبول أو الرفض فيلقى الخبر خاليا من التأكيد أو مؤكدا تبعا لحالة الأقوام السامعين ومدى معرفتهم بالخبر ثبوتا أو نفيا فالمخاطب إزاء ما يلقى إليه من أخبار واحد من ثلاثة:

١- أن يكون خالى الذهن من الحكم ومن التردد فيه أى ألا يكون عالما بمدلول الخبر على جهة التصديق ولا مترددا فيه ويسمى هذا الضرب من الكلام ابتدائيا وسمى بذلك لأنه أول مراتب الخبر باعتبار حال المخاطب ولأنه لم يسبق بطلب أو إنكار وحكم الخبر فى هذه الحالة: أن يخلو من التأكيد لعدم الحاجة إليه حيث يتمكن الحكم عند إلقائه فى الذهن لأنه وجد خاليا فالتأكيد حينئذ يكون عبثا وحشوا فى الكلام.

ومثال ذلك قوله تعالى: "يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم"[1] فهذا الأسلوب الخبرى حينما صدر من رب العزة سبحانه وتعالى كان ملقى لخالى الذهن من مضمونه وليس هناك تردد فى الحكم ولذا جرد من المؤكدات.

وقوله -عز وجل-: "مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف

---

[1]- سورة البقرة /٢٧٦.

لمن يشاء والله واسع عليم"[١]. فالآية أسلوب خبرى خال من التأكيد لأنه موجه إلى من يجهلون مضامينه.

وقوله تعالى: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا"[٢] فالله -عز وجل- يخاطب قوما لا يعلمون شيئا عن الحكم الذى تضمنه الخبر ولذا جاءت الآية خالية من التأكيد وقوله تعالى: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا"[٣] فقد خاطب المولى -عز وجل- بهذه الآية الكريمة من لا علم له بالحكم الذى تضمنته ولذا جاءت خالية من المؤكدات. ومن ذلك قول النبى -ﷺ- "شر الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم" وقوله أيضا: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" فهذه أخبار وجهت إلى من يجهلون مضامينها ولهذا جردت عن التأكيد.

ومن ذلك قولك لمن يجهل قيمة الذكاء: الذكاء ثروة فكرية فالأخبار فى كل ما سبق جاءت خالية من التأكيد لأن الحالة النفسية التى عليها المخاطبون اقتضت ذلك حيث ألقى عليهم الخبر لأول مرة

---

[١]- سورة البقرة /٢٦١.

[٢]- سورة الإسراء /٢٣.

[٣]- سورة الكهف /٤٦.

وليس عندهم أدنى علم به ومن هنا تمكن فى نفوسهم أيما تمكن قال الشاعر:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

٢- أن يكون المخاطب مترددا فى الحكم المراد إفادته إياه طالبا الوقوف على حقيقة الأمر -بمعنى أنه متصور لطرفى الحكم متردد فى إسناد أحدهما إلى الآخر متحير فى أن النسبة واقعة أو ليست بواقعة- ويسمى هذا الضرب من الخبر "طلبيا" لسبقه بالطلب إذ أن المخاطب تردد وطالب بلسان حاله ما يزيل تردده ووقوفه على حقيقة الأمر ومثل هذا المخاطب يحسن أن يلقى إليه الخبر وعليه مسحة من اليقين تجلو له الأمر وتدفع عنه الشبهة فيؤكد له الخبر بمؤكد واحد استحسانا محوا لتردده وتحيره وتمكينا للحكم فى ذهنه سواء استوى لديه طرفا الإثبات والنفى أم كان لأحدهما أرجحية على الآخر. وهذا هو مذهب الجمهور[١] أما الإمام عبد القاهر الجرجانى والسعد[٢] -رحمهما الله- فقد ذهبا إلى أن المستحسن له التوكيد هو المتردد الذى يرجح أحد الأمرين المتردد بينهما فكأنه ينكر الأمر الآخر ولتحويله عن هذا الأمر الراجح عنده كان إلى التأكيد فى حاجة

---

[١]- راجع: الإيضاح /١٤.

[٢]- دلائل الإعجاز /٣٢٦،٣٢٥، والمطول /٤٨،٤٧.

هى أشبه بحاجة المنكر إليه بخلاف الشاك الذى استوى عنده الأمران فإن أدنى إخبار يمحو شكه ويزيل تردده فلا داعى لتأكيد الحكم له وشأنه فى ذلك شأن خالى الذهن. ومعنى هذا أن "الخبر" يؤكد بمؤكد واحد استحسانا إذا كان للمخاطب ظن على خلاف حكم المتكلم بأن ظن أمرا والمتكلم على خلافه فإذا ظن مثلا -أن أخاه لم ينجح وقد وقف غيره على نجاحه فحينئذ يصحح له المتكلم الخبر بمؤكد واحد ويقول: إن أخاك ناجح. أما إذا لم يكن للمخاطب ظن على خلاف حكم المتكلم بأن تردد بين النجاح والرسوب فلا يؤكد له الكلام- على رأى الإمام ومن معه مثله فى ذلك مثل خالى الذهن.

ومن أمثلة هذا الضرب قوله -عز وجل- لمريم -عليها السلام- وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين"[1] فإن مريم -عليها السلام- فى مقام السائلة هل هى حقا المطهرة المصطفاة على نساء العالمين؟ ومن ثم أكد لها الخبر بإن واسمية الجملة - وإسمية الجملة لا يقوى توكيده إلا بمؤكد آخر.

وكقول السرى الرفاء:

إن البناء إذا ما انهد جانبه لم يأمن الناس أن ينهد باقيه

---

[1]- سورة آل عمران /٤٢.

وكقولك: إن الحق واضح، قد انتصر الحق، قد عاد الغائب، إن الامتحان قريب، إن الغنى غنى النفس وهذا على اعتبار تردد المخاطب فى إسناد أحد الطرفين إلى الآخر أو متردد فى مضمون ما يلقى إليه من الكلام.

٣- أن يكون المخاطب منكرا للحكم رافضا لقبوله جاحدا له. ويسمى هذا الضرب من الخبر "إنكاريا" لسبقه بإنكار المخاطب وحكم الخبر فى هذه الحالة: التأكيد وجوبا بحسب درجة الإنكار أى بقدر قوة الإنكار وضعفه فيجب تأكيد الخبر بمؤكد واحد إذا كان إنكاره ضعيفا ويزاد فى التأكيد كلما بولغ فى الإنكار والجحود. كقولك: إن الفراغ مفسدة لمن ينكر إنكارا خفيفا وإن الفراغ لمفسدة لمن ينكر إنكارا شديدا غير مبالغ فيه ووالله إن الفراغ لمفسدة لمن ينكر إنكارا مبالغا فيه.

وكقولك: إنى صادق. وإنى لصادق. ووالله إنى لصادق. مؤكدا كلامك على حسب إنكار المخاطب ضعفا وقوة.

وانظر فى قوله تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[١] تجد أن المقام قد اقتضى تأكيد الخبرين بأكثر من مؤكد دفعا لإنكار المنكرين وتبديدا لارتياب وشك الشاكين فالكفرة -لعنهم الله- قد أنكروا نزول القرآن وقالوا ساخرين "وقالوا يا أيها الذى نزل عليه

---

[١]- سورة الحجر /٩.

الذكر إنك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين"[١] واقتضى هذا الإنكار تأكيد الخبر -كما ترى- بإن وضمير الفصل "نحن"[٢] وتكرار الإسناد للضمير "نحن نزلنا" ولما كانت هناك شكوك محتملة أن يصيب القرآن ما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل فقد جاء الخبر الثانى مؤكدا بإن ولام التوكيد وتقديم الجار والمجرور "له" وهذا التأكيد يدفع الشكوك المحتملة ويبث الطمأنية فى قلوب المؤمنين.

وتأمل هذه الآيات التى يخاطب بها المولى -عز وجل- النصارى قبل غيرهم فى قوله تعالى: "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا. تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا. إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا"[٣] ألا تحس

---

[١]- سورة الحجر /٦،٧.

[٢]- يرى أحد الباحثين المعاصرين بأن "نحن" ليس بضمير فصل قطعا وإنما هو تأكيد لفظى لـ "نا" فى "إنا" أو مبتدأ خبره ما بعده.

[٣]- سورة مريم /٨٨-٩٥ والإد: هو الأمر المنكر الذى يقع فيه جلبة من قولهم أدت الناقة تئد أى رجعت حنينها ترجيعا شديدا والاديد الجلبة وأد قيل: من الود أو من أدت الناقة (المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى مادة: إد /١٤ والمعجم الوجيز مادة: إد /٩.

الإعجاز القرآنى فى مثل هذه الآيات الكريمة؟ تأمل التوكيد بلام القسم وقد ووصف الشيء بالإد ثم وصف هذا الإد بأن السماوات والأرض والجبال ينكرنه ويتصدعن منه لأنه محض افتراء ثم قصر جميع المخلوقين على وصف العبودية لله -عز وجل- وانظر فى قوله تعالى: "واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين"[١].

تجد أن الاية الكريمة تصور حوارا جرى بين الرسل الذين أرسلهم عيسى -عليه السلام- وبين أهل انطاكية كما تلاحظ أن القرآن الكريم قد سكت عن صورة الخبر الأول الذى ألقاه الرسولان الأولان إلى أهل هذه القرية لأنه خبر عادى يلقى إلى خالى الذهن فلا يحتاج إلى تنبيه ولا وصف له ولا لمن ألقى إليهم لأنه معروف للسامعين ولكن لما كذب أهل القرية الرسل بعد التعزيز بثالث جاء خطاب الرسل الثلاثة لأصحاب القرية مؤكدا بإن وإسمية الجملة والقصر بالتقديم أى إليكم أنتم خاصة لا إلى غيركم وهى تأكيدات تتناسب مع درجة نفسية أهل القرية وإنكارهم.

---

[١]- سورة يس /١٣-١٧.

ولما زاد إنكار أصحاب القرية حيث نفوا رسالة هؤلاء الرسل مؤكدين هذا النفى بما يأتى:

١- بطريق النفى والاستثناء الذى يستعمل -أصلا- لجاهل الحكم ومنكره وكأنهم بطريقة تهكمية يريدون أن ينبهوا الرسل -حاشا لله- إلى شيء عزب عن فكرهم وتناقض مع موقفهم وهو أنهم بشر مثلهم وأنهم مقصورون على البشرية لأن الرسول لا يكون بشرا.

٢- التأكيد المعنوى فى قوله تعالى: "وما أنزل الرحمن من شيء" حيث لم يقولوا: وما أنزل الرحمن شيئا وإنما عمموا "بالنفى ومن" وكأنهم لا ينكرون رسالة هؤلاء الرسل فقط بل كل ما يندرج تحت معنى "شيء" النكرة العامة من الرسالات السماوية.

٣- التأكيد على كذب الرسل بطريق النفى والاستثناء "إن أنتم إلا تكذبون" حيث وصفوا الرسل بالكذب بأسلوب مؤكد بالنفى والاستثناء.

فما كان من الرسل إلا أن ردوا على أصحاب القرية بعد هذا العناد والإنكار والمكابرة والتطاول بأن أكدوا رسالتهم بتأكيدات أشد تتناسب مع تأكيدات الإنكار السابقة إذ قالوا: "ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين" حيث أسندوا علم صدقهم إلى الله -تعالى- "ربنا يعلم وهذا قائم مقام القسم فكأنهم يستشهدون الله

-عز وجل- على صدق رسالتهم وهذا كقول العرب: "الله يعلم أنى فعلت" أو "الله يعلم أنى لم أفعل"[١] كما أن هذه الجملة نفسها إسمية مؤكدة ولم يقولوا: "يعلم ربنا" ليبدأوا بلفظ الرب خالقهم جميعا وهو خير من يشهد لهم ليكون ذلك أردع للكفرة ثم التأكيد بإن المضاعف بالقصر بالتقديم مرة أخرى أى إليكم أنتم بخاصة لا إلى غيركم ثم التأكيد باللام وفى إعادة القضية الأولى وتكرارها ضرب من التوكيد بل جاءوا بتأكيدات أخرى مستقلة فى قولهم: "وما علينا إلا البلاغ المبين" إذ لو كانوا من عند أنفسهم لم يقولوا ذلك.

وبتأمل الحوار الذى جرى بين الرسل وأصحاب القرية نجد أن رد الرسل أكثر توكيدا من اعتراض أصحاب القرية وذلك مرده إلى زيادة إنكار المخاطبين فزيدت لهم مؤكدات جملة الرد بإن واللام وإسمية الجملة والقسم وتقديم الجار والمجرور "إليكم" على متعلقه "لمرسلون" وهذا التقديم يفيد القصر.

وخذ قوله تعالى: "وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح

---

[١]- راجع: التحرير والتنوير ١١٢/٧ والنظم البلاغى ١٢٩، ١٣٠ وبلاغة المعانى ٦٩، ٧٠.

من قبل..."[١] وتأمل تجد أن ضمير الفصل "هو"[٢] قد جاء في بعض الآيات دون بعض وأن الآيات التي جاء بها تحتاج إلى مزيد من تأكيد الخبر وتقوية نسبة أفعالها إلى الله -عز وجل- واختصاصها به فالإضحاك والإبكاء -بمعنى السرور والحزن- والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء[٣] هذه الأفعال لما كانت مظنة الشركة وأن لغير الله سبحانه وتعالى دخلا وفاعلية فيها وكان هناك من ينكر البعث فقد جاء ضمير الفصل ليؤكد نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى واختصاصها به وليبطل أن يكون لغيره دخل في شئون عباده وليستأصل مظنة الشركة فيها فلا يتطلع المؤمن ولا ينظر إلا إلى السماء وكذلك "الشعرى" لما كانت خزاعة تعبدها من دون الله فقد أكد النظم الكريم ربوبيتها له تعالى. وانظر إلى تقديم الجار والمجرور "إلى ربك المنتهى.... عليه النشأة الأخرى" ليؤكد بهذا التقديم ما ينكره المعاندون من انقلابهم إليه تعالى وإحيائه لهم بعد مما تهم ثم انظر إلى الأفعال التي جاءت بدون ضمير الفصل في

---

[١]- سورة النجم /٤٢-٥٢.

[٢]- يرى أحد الباحثين المعاصرين بأن "هو" ليس بضمير فصل قطعا وهو إما أن يكون توكيدا لفظيا لما قبله أو مبتدأ خبره ما بعده وضمير الفصل الوحيد هنا في "وأنه هو رب الشعر".

[٣]- أقنى أعطى القنية وهي المال الذي تملكته وعزمت ألا تخرجه من يدك (الكشاف ٤/٤٢٨).

الآيات ولاحظ أنها ليست موضع إنكار ولا مظنة شركة "وأنه خلق الزوجين" "وأنه أهلك عادا" فهم لا ينكرون أن الله -عز وجل- هو الخالق بل يقرون بذلك وينطقون بنسبة الخلق إليه تعالى "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون الله"[١] وإهلاك عاد وثمود وقوم نوح يعلمونه ويسمعونه من غير القرآن الكريم ولا ينكرونه فليس الخلق والإهلاك مما تظن فيه الشركة ولذا خلت الآيتان من ضمير الفصل وهكذا نجد نبرة التوكيد فى الآيات تعلو وتهبط لتلائم مواقع المعانى فى النفوس وما يكمن داخلها وسبحان المحيط بالأسرار[٢].

واقرأ قوله تعالى: "إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون"[٣] تجد أن فيه ثلاث جمل مؤكدات بإن واللام وإسمية الجملة فالمنافقون إذا حضروا مجلس رسول الله -ﷺ- قالوا: نشهد إنك لرسول الله "مؤكدين كلامهم بإن واللام لإعلامه بأن شهادتهم هذه صادرة من صميم قلوبهم ومعلوم أن هذا غير مطابق للواقع لأنهم قالوا ذلك عن غير اعتقاد منهم. وجملة "والله يعلم إنك لرسوله" جملة مؤكدة معترضة تقرر منطوق كلامهم وأما قوله تعالى: "والله يشهد إن

---

[١]- سورة الزخرف /٨٧.

[٢]- انظر خصائص التراكيب /٥٠،٥١.

[٣]- سورة المنافقون /١.

المنافقين لكاذبون" فهو تكذيب لما قالوه عن غير اعتقاد فهم كاذبون فيما ضمنوا كلامهم من أنها صادرة عن اعتقاد. وهكذا يراعى القرآن الكريم الحالات النفسية ليس هنا فقط وإنما فى جميع حالات نظم الكلام حسب اختلاف المقامات.

ويكون تأكيد الخبر أو الحكم[١] أو النسبة بأمور كثيرة منها:

١- "إن" المكسورة الهمزة نحو قوله تعالى: "إن النفس لأمارة بالسوء" [سورة يوسف /٥٣]. "ونحو قول السرى الرفاء:

إن البناء إذا ما انهد جانبه لم يأمن الناس أن ينهد باقيه

ولم يعد بعضهم "أن" المفتوحة من المؤكدات لأن ما بعدها فى حكم المفرد والتأكيد المقصود هو تأكيد النسبة لا المسند ولا المسند إليه ولكن ابن هشام يقول: "أن" تكون حرف توكيد تنصب الاسم وترفع الخبر والأصح أنها فرع عن "إن" المكسورة[٢] أى أن ابن هشام "م.ت ٧٦١هـ" -رحمه الله- قد عد "أن" المفتوحة من مؤكدات النسبة

---

[١]- التأكيد هو: تمكين الشيء فى النفس وتقويته لإزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما أنت بصدد الحديث عنه والمراد به هنا تأكيد الحكم وقالوا مؤكدات الحكم احترازا عن مؤكدات الطرفين (المسند إليه والمسند) كالتأكيد اللفظى أو المعنوى فلا يعدان من مؤكدات الخبر نحو: محمد محمد قائم وحضر الطلاب كلهم أو أنفسهم.

[٢]- مغنى اللبيب ٣٩/١.

نحو قوله تعالى: "لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما" [سورة الطلاق /١٢].

٢- لام الابتداء نحو قوله تعالى: "ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون" [سورة يوسف /٥٧].

٣- نونا التوكيد كقوله تعالى: "ليسجنن وليكونا من الصاغرين" [سورة يوسف /٣٢]. وقوله تعالى: "لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم" [سورة التغابن /٧].

٤- أحرف التنبيه "ألا وأما الاستفتاحيتان وها التنبيهية" نحو قوله تعالى: "ها أنتم أولاء تحبونهم" [سورة آل عمران /١١٩]. ونحو قول الشاعر:

أما دون مصر للغنى متطلب　　　بلى إن أسباب الغنى لكثير

وقول الشاعر:

ألا إن أخلاق الفتى كزمانه　　　فمنهن بيض فى العيون وسود

٥- الحروف الزائدة وتسمى بحروف الصلة كقوله تعالى: "ما جاءنا من بشير" [سورة المائدة /١٩]. وقوله تعالى: "لست عليهم بمصيطر" [سورة الغاشية /٢٢]. فمن والباء من حروف الجر وهما يفيدان تأكيد الحكم.

٦- التكرير للجملة نحو قوله تعالى: "كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون" [سورة التكاثر /٣،٤].

٧- أما الشرطية التفصيلية كقوله تعالى: "وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى" [سورة الكهف /٨٨].

٨- قد التى للتحقيق نحو قوله تعالى: "قد أفلح المؤمنون" [سورة المؤمنون /١].

٩- اسمية الجملة وهى لا تفيد التأكيد إلا مع مؤكد آخر وهى حينئذ تكون مؤكدة زيادة على التأكيد الآخر نحو قوله تعالى: "إنا إليكم مرسلون" [سورة يس /١٤]. وقيل إن إسمية الجملة لا تعد مؤكدة إلا إذا قصد بها التأكيد فإذا قصد بها إفادة أصل المعنى بصرف النظر عن الثبوت الذى يستفاد منها فلا تكون من المؤكدات فالتأكيد بها عند اقتضاء المقام إياه[1].

١٠- القسم بشرط أن يرد معه فى الكلام المثبت بعض المؤكدات الأخرى فالقسم فى هذه الحالة يكون على التأكيد لا على أصل المعنى لأن التوكيد كاف فيه والقسم وإن كان فيه تأكيد للحكم إلا أن مقصوده المؤكدات التى تتصل بالحكم وتصير من جملته وذلك مثل قوله تعالى: "وتالله لأكيدن أصنامكم"

---

[1]- راجع عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٢٢٠/١.

[سورة الأنبياء /٥٧]. أما الكلام المنفى فالقسم فيه لا يحتاج إلى مؤكد آخر وحينئذ يفيد التأكيد منفردا مثل: "تالله لا يذهب العرف بين الله والناس" ونحو: "والله ما المؤمن بنادم".

١١- أداة القصر كقوله تعالى: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" [سورة آل عمران /١٤٤]. وقول الرسول -ﷺ- "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىء ما نوى"[١].

١٢- تقديم المسند إليه على خبره الفعلى نحو: "ما أنا فعلت هذا".

١٣- ضمير الفصل نحو قوله تعالى: "قل هو الله أحد"[٢].

وخلاصة القول:

أن للخبر حسب حالات المخاطب ثلاثة أضرب وهى:

١- إبتدائى وهو: ما يلقى للمخاطب الخالى الذهن ويكون الكلام حينئذ خاليا من التأكيد.

٢- طلبى وهو: ما يلقى للمخاطب المتردد فى الحكم ويكون حينئذ مصحوبا بمؤكدا واحد استحسانا.

---

[١]- فتح البارى ١٥/١.

[٢]- سورة الإخلاص /١، يرى أحد الباحثين المعاصرين أن "هو" ليس بضمير فصل قطعا بل هو ضمير الشأن أو مبتدأ خبره ما بعده.

٣- إنكارى وهو: ما يلقى للمخاطب المنكر لمضمون الخبر ويكون الكلام حينئذ مصحوبا وجوبا بمؤكد أو أكثر حسب قوة الإنكار وضعفه.

ومناسبة التسمية واضحة لأنك فى الأول تبتدىء به المعنى فى النفس والثانى تواجه به ترددا وكأن النفس طالبة للخبر والثالث تواجه به إنكارا وجحودا وهذه الأضرب الثلاثة كما تتأتى فى فائدة الخبر تتأتى كذلك فى لازم فائدته ولك أن تمثل بمثل ما سبق فلا تؤكد إطلاقا لخالى الذهن وتؤكد بمؤكد واحد استحسانا للسائل (المتردد) وبمؤكدات أكثر وجوبا للمنكر على حسب درجات إنكاره قوة وضعفا.

ومجىء الخبر على هذه الأضرب الثلاثة ملائما لحال المخاطب فيخلو من التأكيد عند إلقائه لخالى الذهن ويؤكد استحسانا للمتردد ووجوبا للمنكر يسمى إخراجا للكلام على مقتضى ظاهر حال المخاطب وكثيرا ما يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر من حال المخاطب فيأتى على أمور اعتبارية تنزيلية يعتبرها المتكلم فى المخاطب فينزل حاله منزلة حالة أخرى ويكون ذلك لدواع وأسرار بلاغية يقتضيها المقام ومن ذلك:

١- تنزيل العالم بفائدة الخبر أو لازم الفائدة منزلة الجاهل بهما أى خالى الذهن وذلك لعدم جريه على موجب علمه فإن من

لا يجرى على مقتضى علمه هو والجاهل سواء فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل أى يكون بلا تأكيد فيكون نوع الخبر ابتدائيا والغرض منه حينئذ: التوبيخ والتأنيب على ترك موجب العلم وهو العمل.

ومن تنزيل العالم بفائدة الخبر منزلة الجاهل بها قول الفرزدق لهشام بن عبد الملك[1] حين تجاهل على بن الحسين:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

فهشام لم يجهل على بن الحسين ولم يجهل صفاته ونسبه ولكنه تجاهل ذلك تعاظما وتكبرا فخاطبه الشاعر مخاطبة الجاهل بمضمون الكلام توبيخا وتقريعا لأنه لم يعمل بمقتضى علمه فيسلم عليه ولا يتعنت فقد قيل[2] إن هشاما حينما رآه سأل عن اسمه

---

[1]- وكان ذلك بجوار الكعبة المشرفة وقد التف الناس حول على بن الحسين - رضى الله عنهما- وتبركوا به فى الوقت الذى وجد فيه هشام بجوار الكعبة ولم يقبل عليه الناس كما أقبلوا على "على" فاغتاظ هشام لذلك وتجاهل معرفة "على" فوجه الفرزدق قصيدة -منها هذه الأبيات- مخاطبا هشام بن عبد الملك.

[2]- شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٦٠.

وهو فى الحقيقة يعرفه كما أن فى تكرار المسند إليه معرفا باسم الإشارة "هذا" تعريض بغباوة هشام بن عبد الملك فكأنه غبى لا يفهم المحسوسات التى يشار إليها إلا إذا تأكدت بالتكرار. وقد يكون الغرض من التعبير باسم الإشارة "هذا" تمييز المشار إليه أكمل تمييز ليضاف إليه هذه الأوصاف العظام التى تضمنتها الأبيات الثلاثة السابقة من أن معرفة على بن الحسين بن على بن أبى طالب – رضى الله عنهما– قد زادت حتى شملت الأماكن فعرفته هى الأخرى وأنه ابن خير عباد الله كلهم وأنه التقى النقى الطاهر وأنه ابن فاطمة الزهراء –رضى الله عنها– بنت النبى –ﷺ– وأن جده خاتم الأنبياء –عليهم السلام–[١].

وكقولك للعالم المسلم التارك للصلاة: "الصلاة واجبة" لأن موجب العلم العمل فلما ترك الصلاة نزل منزلة الجاهل بوجوبها لذلك خوطب خطاب الجاهل.

ومثال تنزيل العالم بلازم الفائدة منزلة الجاهل بها قولك لمن أساء إليك وقد أحسنت إليه: شتمتنى وقد أحسنت إليك "فالمخاطب يعلم حق العلم أن المتكلم عالم بمضمون هذا الخبر ولكنه نزل منزلة الجاهل بذلك توبيخا له وتأنيبا على فعلته التى خالفت مقتضى علمه:

---

[١]– اسم الإشارة فى القرآن الكريم مواقعه وأسراره البلاغية رسالة دكتوراه لكاتب هذه السطور ٣٩/١ (مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة).

إذ مقتضى العلم أن لا يشتمه وقد أحسن إليه.

فظاهر الحال فى الأمثلة السابقة هو: كون المخاطب عالما بالحكم أو بلازمه وذلك وصف ثابت له فى الواقع وكان مقتضى الظاهر ألا يلقى إليه الكلام لعلمه بفائدته أو بلازم الفائدة لكنه خولف فى ذلك فخوطب خطاب الجاهل لحال تنزيلية فيه هى: الجهل لعدم جريه على موجب علمه والحال التنزيلية هذه هى نكتة مخاطبته بذلك ويرى العلامة السكاكى -رحمه الله- أن العلم الذى لا يطهر النفس البشرية ينزل منزلة الجهل وهذا حق ويقول -رحمه الله-: وإن شئت فتأمل كلام رب العزة يصف كفر السحرة "ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون"[١] فقوله تعالى "ولقد علموا" وصف لسحرة أهل الكتاب بالعلم وهو مؤكد بالقسم وآخرها "لو كانوا يعلمون" نفى لهذا العلم عنهم لعدم عملهم بما يعلمون أى لو كانوا يعلمون قبح ما شروا به أنفسهم وباعوها به من السحر ما شروه وهكذا ترى الآية الكريمة نزلت علمهم منزلة الجهل لعدم جريهم على مقتضاه.

ثم أشار العلامة السكاكى أيضا إلى أن وجود الشىء قد ينزل منزلة عدمه إذا ترتب أعظم آثاره عليه[٢] قال تعالى: "وما رميت

١- سورة البقرة /١٠٢.

٢- مفتاح العلوم /١٧١،١٧٢.

إذ رميت ولكن الله رمى"[١] فقد أثبت الله -عز وجل- الرمى ونفاه بتنزيله منزلة عدمه وقد صدر رمى الحصى من رسول الله -ﷺ- يوم بدر حين أمسك حفنة من حصباء ورماها فى وجوه المشركين قائلا شاهت الوجوه ليرغمن الله هذه المعاطس فرمى الله تعالى هذه الحفنة من الحصباء فى وجوه الكافرين فآذت أعينهم فتشاغلوا بها فقتلهم المسلمون[٢] وترتب انتصار ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا على ثلاثة أضعافهم على رمى الحصيات فوق مقدور البشر وإنما هو فعل الله جل فى علاه ولذلك قال تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" فقد نزل الله تعالى رمى الرسول ﷺ منزلة عدم وجوده لأن الفاعل الحقيقى هو الله تعالى. ومن ذلك قوله تعالى "وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون"[٣] فقد أثبت الله تعالى الإيمان لأئمة الكفر ونفاها عنهم بتنزيل وجودها منزلة عدمها لأنهم ينقضون عهودهم وأيمانهم أبدا فأيمانهم كأن لم تكن.

٢- تنزيل العالم بالحكم منزلة المتردد فيه السائل الطالب لحقيقة

١- سورة الأنفال /١٧.

٢- أسباب النزول للنيسابورى ١٦٩،١٧٠ وروح المعانى للألوسى ٩/١٨٤-١٨٧.

٣- سورة التوبة /١٢.

الأمر وذلك إذا كان أمره بين العمل حسب مقتضى علمه وبين الإهمال[1] أى ليس جاريا تماما على مقتضى علمه وليس مهملا هذا المقتضى ويكون حكم الخبر التأكيد بمؤكد واحد استحسانا أى يكون الخبر طلبيا لسبقه بالتردد التنزيلي والغرض منه هو: التقريع والتوبيخ أيضا مثل قولك لمن لا يؤدى فريضة الزكاة بالكامل وهو مسلم عالم بفرضيتها: إن الزكاة فريضة وقولك للعالم المسلم الذى لم يواظب على الصلاة: "إن الصلاة واجبة" فظاهر الحال فى هذين المثالين هو: كون المخاطب عالما بالحكم وهذا وصف ثابت وحال تحقيقية له وكان مقتضى الحال ألا يلقى إليه الكلام لا مؤكدا ولا خاليا من التأكيد لعلمه بمضمونه لكنه خولف فى ذلك فخوطب خطاب المتردد فى الحكم لحال تنزيلية وهى: التردد حيث إن أمره بين العمل وبين الإهمال وهذه الحال التنزيلية هى نكتة مخاطبته خطاب المتردد.

٣- تنزيل العالم بالحكم منزلة المنكر وذلك إذا ظهر عليه شىء فى زعم المتكلم من أمارات الإنكار وحينئذ يؤكد له الخبر وجوبا بمؤكد أو أكثر حسبما يقدر الإنكار قوة وضعفا كقول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

فلما كان المخاطب يطلب النجاة ولم يأخذ بأسبابها ولم يسلك

١- محاضرات فى البلاغة /١٣ للمرحوم محمود العقدة طبعة أولى.

طرقها نزل منزلة من يعتقد أن السفينة تجرى على اليبس وينكر عدم جريانها عليه فأكد له الخبر "إن السفينة لا تجرى على اليبس".

وكقول حجل بن نضلة:

جاء شقيق عارضا رمحه   إن بنى عمك فيهم رماح

فشقيق لا ينكر أن فى بنى عمه رماحا وفرسانا يصدونه وينازلونه بل يعلم ذلك لأنهم جيرانه وأولاد عمومته أو لأنهم أعداؤه لكن مجيئه واضعا الرمح عرضا وجاعله على فخذه شأن المتكبر الذى لا يعتد بفرسان القبيلة مزهوا بنفسه وقوته من غير التفات واستعداد للقاء دليل على شدة إعجاب بنفسه حتى كأنه لا يعتقد أن يقوم أحد إليه من بنى عمه وكأنهم كلهم عزل لا سلاح معهم ولهذا نزل منزلة المنكر وخوطب خطاب التفات من الغيبة إلى الخطاب بقوله "إن بنى عمك فيهم رماح" مؤكدا بإن وإسمية الجملة. وفى البيت تهكم واستهزاء بشقيق كأنه يرميه بأن فيه من الضعف والجبن ما لو علم أن فى بنى عمه رماحا لما قويت يده على حمل السلاح وذلك على حد قول البراء بن عازب -رضى الله عنه-:

فقلت لمحرز لما التقينا   تنكب لا يقطرك الزحام

أى تجنب ميدان اللقاء لا يصرعك الزحام يرميه بعدم تمرسه بالشدائد كأنه يخاف عليه أن يداس بالقوائم كما يخاف على الصبيان

والنساء[١] وعلى هذا التنزيل قوله تعالى: "والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم"[٢] فالذين تابوا وآمنوا لا ينكرون مغفرة الله ورحمته ولكنهم لما كانوا قد ارتكبوا السيئات واقترفوا الذنوب والآثام صاروا فى خوف من عقاب الله - عز وجل- وكلما تذكروا ما اقترفوا اقشعرت جلودهم وتذكروا عذاب الله فنزلت حالتهم هذه وما هم فيه من خوف وقلق وعدم أمن منزلة من ينكر رحمة الله ومغفرته وألقى إليهم الخبر مؤكدا "إن ربك من بعدها لغفور رحيم" طمأنينة لهم وتثبيتا. ومن ذلك قوله تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[٣] فقد أكد الخبر الأول "إنا نحن نزلنا الذكر" دفعا لإنكار المنكرين -كما مر بنا- وأكد الخبر الثانى "وإنا له لحافظون" بثا للطمأنينة فى قلوب المؤمنين الذين رأوا ما أصاب الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل من تحريف وتبديل فخافوا أن يصيب القرآن ما أصاب هذه الكتب وتطلعوا إلى حفظه من التحريف وجال القلق على القرآن الكريم فى نفوسهم ولذا خوطبوا خطاب المنكر فأكد لهم الخبر على خلاف مقتضى الظاهر تثبيتا لهم. وانظر فى قوله تعالى: "ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن

١- شرح السعد ومواهب الفتاح ضمن شرح التلخيص ٢١٣/١،٢١٤.

٢- سورة الأعراف /١٥٣.

٣- سورة الحجر /٩.

الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون"[١] تجده قد أكد الخبر الأول بمؤكدين وهو مما لا ينكر وأكد الثانى بمؤكد واحد وهو مما ينكر ويدفع حيث أنكر الكفرة البعث ولم ينكروا الموت ويعلل ذلك محمد بن على الجرجانى "م.ت ٧٢٩هـ" بقوله: "إن أعمالهم الطالحة الضارة فيما بعد الموت إنكار بالفعل للموت وإنما لم يؤكد البعث بغير تأكيد واحد وإن اختلف فيه بخلاف الموت لعدم إنكار المخاطبين إياه أو لأن الأمر والنهى والوعد والوعيد بعد تأكيد الإخبار بالموت يستلزم البعث فاستغنى عن زيادة التأكيد ولذلك قال أيضا "تبعثون" ولم يقل "مبعوثون" لأن دلالة الفعل على حدوث المصدر ودلالة الاسم على ثبوته. والثبوت أقوى من الحدوث ولذلك أيضا قال "لميتون" ولم يقل "لتموتون""[٢].

ويقول العلامة الخطيب القزوينى -رحمه الله- أكد إثبات الموت تأكيدين لتماديهم فى الغفلة والإعراض عن العلم لما بعده ولهذا قيل "ميتون" دون تموتون لإفادة الثبوت والدوام وأكد إثبات البعث تأكيدا واحدا وإن كان مما ينكر لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بألا ينكر بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيها لهم على ظهور أدلته وحثا على

١- سورة المؤمنون /١٤-١٦.

٢- الإشارات والتنبيهات /٣٠،٣١.

النظر فيها ولذا جاء "تبعثون" على الأصل[١]. وتقول للمسلم الذى يهمل الصلاة ولا يدفع زكاة ماله وللابن الذى يؤذى أباه: إن الصلاة لواجبة، وإن الزكاة لحق للفقير وإنما هو أبوك فتنزله منزلة المنكر وتجرى الكلام على خلاف ظاهر حاله لعدم جريه على وفق ما يعلم وهذا يتضمن التوبيخ والتأنيب على ترك الصلاة، والزكاة، وإيذاء الأب. فظاهر الحال فيما مر من الأمثلة هو: كون المخاطب عالما بالحكم وهذا وصف ثابت فى الواقع وحال حقيقية له وكان مقتضى ذلك ألا يؤكد له الكلام بل ولا يلقى إليه لعلمه به لكن المتكلم قد اعتبر فى المخاطب حالا أخرى هى الإنكار لظهور أمارة من أماراته ولهذه الإمارة خوطب خطاب المنكر وجرى على خلاف مقتضى الظاهر.

٤- تنزيل خالى الذهن منزلة السائل المتردد فى الحكم فيؤكد له الكلام استحسانا كما يؤكد للمتردد الحقيقى وذلك إذا كانت الجمل المتقدمة فى سياق الكلام متضمنة ما يشير إلى الخبر ويلوح به ويومىء إليه فإنها تثير فى النفس المتلقية تساؤلا يجعلها تتطلع وتستشرف إلى معرفة الخبر والوقوف عليه وعندئذ تأتى جملة الخبر مؤكدة لتزيل ما أثير فى نفس المخاطب من تساؤلات واستشرافات منزلة إياه منزلة المتردد السائل ويقع هذا غالبا إذا

١- الإيضاح /١٥.

كانت الجمل السابقة تتضمن نصائح أو إرشادا وتوجيها أو نهيا وأمرا أو حدثا غريبا يستدعى وقوف النفس وتأملها[١] انظر إلى قوله تعالى: "وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون"[٢] تجد أن جملة "إنهم مغرقون" قد جاءت مؤكدة "بإن" والمخاطب وهو سيدنا نوح – عليه السلام– ليس مترددا فى مضمون إفادتها وذلك لأنه لما تقدم فى سياق الآيات الكريمة إخباره أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ونهيه عن أن يحزن لما صنعوا: "فلا تبتئس" ثم أمره بصنع الفلك ونهيه عن مخاطبة الله –جل شأنه– فى شأن من أعرض وكفر هذا الذى تقدم أثار فى نفس نوح –عليه السلام– تساؤلا عما سيحل بالقوم من العقاب وتطلعت نفسه إلى معرفة نوع هذا العقاب: هل هو بالإحراق؟ أو بالطاعون أو بالطوفان أو بغير ذلك؟ فناسبه حينئذ التأكيد بمؤكد واحد استحسانا لصيرورته كالسائل الطالب لنوع العقاب فقال تعالى محوا لهذا التردد "إنهم مغرقون" مؤكدا "بإن" أى محكوم عليهم بالإغراق. وتأمل فى قوله تعالى: "وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة

١- علم المعانى ٤٣/١.

٢- سورة هود /٣٦،٣٧.

بالسوء"[١] تجد أن صدر الآية قد تضمن خبرا غريبا وهو إتهام المتكلم نفسه ونفى التبرئة عنها والمتكلم وهو يوسف -عليه السلام- أو إمرأة العزيز على خلاف بين المفسرين فعلى أنه يوسف -عليه السلام- يكون نفى التبرئة عن نفسه أمرا غريبا يثير فى النفس تساؤلا واستشرافا لمعرفة الخبر إذ كيف لا يبرىء يوسف نفسه وهو التقى النقى؟ ولذا جاء الخبر مؤكدا "إن النفس لأمارة بالسوء" تنزيلا للمخاطب خالى الذهن منزلة السائل المتردد وعلى الرأى القائل بأن المتكلم إمرأة العزيز فلا يخلو نفى التبرئة عن نفسها من إثارة التساؤل فى نفس المخاطب لأن اتهام النفس ونفى التبرئة عنها من الأمور المستبعدة. ونلاحظ أن الخبر هنا مؤكد بمؤكدين هما "إن واللام" والمطلوب مؤكد واحد لأن المخاطب منزل منزلة المتردد فكيف يؤكد له هنا بمؤكدين؟ وقد أجاب العلامة السيد الشريف "م.ت ٨١٦هـ" -رحمه الله- عن ذلك بقوله: لعل أحد المؤكدين لتقديم ذلك الملوح والآخر لكون هذا الخبر فىنفسه مما لا يقبله الوهم بل يتردد فيه أو ينكره سواء حمل النفس على العموم (الجنس) أو على العهد أما على تقدير العموم فلأن الوهم يستبعد ذلك الحكم الكلى وأن لا يخرج عنه واحدة من النفوس وأما على تقدير العهد فلأن ظاهر

١- سورة يوسف /٥٣.

حاله فى زكاء نفسه وطهارتها مما يوقع الوهم فى إنكار الحكم أو التردد فيه"[١] وهذا رأى مقبول وحسن. ويقول صاحب الأطول -رحمه الله- إن المخاطب هنا منزل منزلة السائل مرة لسبب تقديم ما يلوح له بنوع الخبر وهو قوله تعالى: "وما أبرىء نفسى" ومنزلة المنكر مرة ثانية لأنه ليس مما يقع فى وهمه أن نفس هذا الصديق النبى أمارة بالسوء وتعريف النفس فى الآية للجنسية لا للعهد لأن أنفس الأنبياء معصومة من الزلل[٢] وانظر فى قوله تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم"[٣] تجد أن قوله تعالى: "اتقوا ربكم" معناه -ولله العلم- احفظوا أنفسكم عما يضركم فى الآخرة وفيه تلويح وإشارة إلى جنس الخبر وهو أن الآخرة فيها عقوبة على الأعمال المنافية لتقوى الله -عز وجل- وخشيته ومن أنواع العقوبة زلزلة الساعة أى الأهوال العظيمة التى تصاحب قيام الساعة ومن هنا جاء قوله تعالى: "إن زلزلة الساعة شىء عظيم" محددا نوعا من أنواع هذا الجنس وكأن هذه الجملة فى موضع الجواب عن سؤال مثار فى النفس من وراء الأمر بالتقوى فحيث أمر تعالى

١- حاشية السيد الشريف على المطول /٥٠.

٢- راجع الأطول ٦٤/١.

٣- سورة الحج /١.

الناس بها أعقب بتعليل وجوبها مجيبا لسؤال مقدر بذكر ما يصاحب قيام الساعة من أهوال.

ويلحظ كذلك فى جملة التعليل: أنها تضمنت الإشارة إلى أمر فوق كونه هائلا وعظيما مع قيام الساعة هو أمر مشاهد فى الحياة ولا سبيل إلى إنكاره أو دفعه لوقوعه حينا بعد حين وفى مكان بعد مكان ومع جنس من البشر بعد جنس وكأن ما يحدث من الزلزلة إنذار ورمز إلى ما سوف يكون وإن كل ما فى الآخرة أعم وأشمل وأعظم لكن يبقى فى إيثار أمر الزلزلة هنا فضل دلالة على مزيد الترهيب والتخويف وبالغ الإنذار بما سوف يحل بهم وقد عاينوا فى دنياهم شيئا وأنموذجا منه[١]. ومثل هذا كثير فى أساليب القرآن الكريم ومن أشعارهم فى هذا الصدد قول الشاعر:

فغنها وهى لك الفداء إن غناء الإبل الحداء[٢]

فحينما قال الشاعر: "غنها" ليشتد سيرها صار السامع مترددا ما غناؤها أهو الحداء أم غيره؟ فجاء الخبر مؤكدا "إن غناء الإبل الحداء" على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل خالى الذهن منزلة

١- من أسرار النظم القرآنى دراسة بلاغية تحليلية لسورة الحج أ.د/ محمد على أبو زيد ١٦، ١٧.

٢- الضمير فى "فغنها" للإبل أى فغن لها والحداء بضم الحاء وكسرها: مصدر حدا الإبل: ساقها وغنى لها.

المتردد السائل ليزيل ما أثير فى نفس السامع. ومما يروى أن أبا عمرو بن العلاء وخلف الأحمر كانا يأتيان بشارا فيستمعان إليه ويكتبان عنه وقد أتياه يوما فقالا: ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة؟ قال هى ما بلغتكما قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب قال: نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف قالا: فأنشدنا يا أبا معاذ فأنشدهما:

بكرا صاحبى قبل الهجير   إن ذاك النجاح فى التبكير[١]

حتى فرغ منها فقال له خلف: لو قلت يا ابا معاذ مكان: إن ذاك النجاح "بكرا فالنجاح" كان أحسن فقال بشار إنما بنيتها أعرابية وحشية[٢] فقلت: "إن ذاك النجاح" كما يقول الأعراب البدويون ولو قلت: "بكرا فالنجاح" كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة فقام خلف فقبل بين عينيه وإنما كان "بكرا فالنجاح" من كلام المولدين لأنه ليس فيه من دقة الإشارة إلى تنزيل غير المتردد منزلة السائل المتردد ما فى قوله: "إن ذاك النجاح" ولكن فيه تكرير الأمر بالتبكير لتأكيده على وجه ظاهره ليس فيه دقة ذلك التأكيد الخفى والمولدون يؤثرون السهولة على الدقة[٣]

١- الهجير: من الزوال إلى العصر أو شدة الحر.

٢- وحشية: صفة كاشفة لأعرابية ولا يريد المخلة بالفصاحة.

٣- الإيضاح /١٤/١٥، وبغية الإيضاح ٤٩،٤٨/١.

ويقول الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- فى فضل "إن" على الفاء كما اختار بشار: إنها تريك الكلام مستأنفا غير مستأنف مقطوعا موصولا معا[١] وهكذا كل تأكيد يقع بعد الأوامر والنواهى وكل أمر ذى بال يعنى به يكون من قبيل تنزيل خالى الذهن.

ومما سبق يتبين لنا أن الحال التحقيقية (ظاهر الحال) -فيما سبق- هى: خلو الذهن من الحكم وكان ذلك يقتضى عدم التأكيد وأن الحال التنزيلية الاعتبارية هى: التردد فى الحكم لتقديم ما يلوح للمخاطب بجنس الخبر والأولى وصف ثابت أما الثانية فحال تقديرية مفترضة فيه وهى نكتة تنزيله منزلة المتردد وسلوك هذه الطريقة كما قال الخطيب القزوينى -رحمه الله- شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض ولهذا خفيت على بعض فحول هذا الفن كما رأينا ما حدث لأب عمرو بن العلاء وخلف الأحمر مع بشار.

٥- تنزيل خالى الذهن منزلة المنكر فيؤكد له الكلام وجوبا كما يؤكد للمنكر وذلك إذا كان الخبر بالغاحد الغرابة[٢] فيتصور المتكلم أن المخاطب منكر للخبر من أجل غرابته البالغة مثل قول الشاعر:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

١- راجع دلائل الإعجاز ٢٧٢،٢٧٣،٣١٦،٣٢٣.

٢- محاضرات فى البلاغة للمرحوم الشيخ محمود العقدة /١٧.

فمضمون البيت هو: أن البلاد تتسع لجميع من فيها ولكن أخلاق رجالها وأبنائها هى التى تجعل الحياة متعسرة أمامهم تبعث على اشمئزازهم منها وبغضهم لها وهذا خبر غريب يخيل للمتكلم أن المخاطب ينكره ولذا أكد بالقسم ومنه قول إيليا أبو ماضى:

إن شر الجناة فى الأرض نفس   تتوقى قبل الرحيل رحيلا

ومعناه: إن من يتوقع الموت قبل مجيئه هو شر الجناة فى الأرض وأخطرهم فى الحياة وهذا معنى بالغ الغرابة ولهذا أكد بإن وإسمية الجملة.

فالحال التحقيقية (ظاهر الحال) فى المثالين السابقين هى: خلو الذهن من الحكم وهذا وصف ثابت للمخاطب فى الواقع أما الحال التنزيلية هى: كون المخاطب منكرا للحكم من أجل غرابة الخبر البالغة وهذه الغرابة فى الخبر هى نكتة تنزيل خالى الذهن منزلة المنكر.

٦- تنزيل المتردد أى السائل الشاك فى الحكم منزلة المنكر فيؤكد له الخبر وجوبا وذلك إذا كان المخاطب متحيرا بين وقوع النسبة أو عدم وقوعها أى شاكا فى الحكم سواء على جهة الإثبات أم النفى ولكنه يرجح عدم وقوعها فينزل لذلك منزلة المنكر كقولك: "إن البلاد العربية لتمدنا بما نحتاج إليه أيام الزلزال" لمن يتردد فى مساعدتها لنا بذلك ولكنه يرجح عدم مساعدتها فلهذا

الترجيح نزل المخاطب منزلة المنكر للمبالغة فى توكيد الخبر إزالة للأمر الراجح عند المخاطب. ومثل قولك: "إن فوائد البنك لحرام" لمن يتردد فى هذا الحكم ولكنه يرجح جوازها وشرعيتها فتنزله منزلة المنكر للمبالغة فى توكيد الخبر إزالة لترجيحه جواز هذه الفوائد.

وظاهر الحال فى المثالين السابقين هو التردد وهذا وصف ثابت للمخاطب فى الواقع ويقتضى التأكيد بمؤكد واحد استحسانا غير أنك صرفت النظر عن هذا الوصف الثابت واعتبرت فى المخاطب حالا تنزيلية هى الإنكار ولذا جئت بالكلام مؤكدا بمؤكدين وجوبا. وفائدة تنزيل المتردد منزلة المنكر هى: المبالغة فى توكيد الخبر له حتى يرجع عن ترجيحه.

٧- تنزيل السائل أى المتردد الشاك فى الحكم منزلة خالى الذهن ويتحقق ذلك إذا كانت أدلة الحكم والشواهد على صدق الخبر ما إن تأمله ارتدع بأن تكون الأدلة معلومة له أو محسوسة عنده ولكنه لعى بصيرته لا يتأملها كما تقول لمن لا يخرج الزكاة: الزكاة أحد أركان الإسلام إيماء إلى أن الأدلة على فرضيتها من الوضوح والظهور بحيث يدركها من له أدنى تأمل ويكون التردد معها كالعدم فلا يلتفت إليه وفيه توهين لحجة الخصم.

٨- تنزل المنكر منزلة خالى الذهن فيأتى الخبر خاليا من التـأكيد أى يكون ابتدائيـا وذلـك إذا كـان معـه مـن الدلائـل والشـواهد مـا إن تأملها ارتدع عن إنكاره وأذعن للحكم وصـدق بـه. انظـر فـى قوله تعالى: "كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمـم لتتلـوا عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متـاب"[١] تجد أن الخبر "هـو ربـى" قد وجه إلى هؤلاء المنكرين الذين كفروا بالرحمن خاليا من التـأكيد حيث لـم يعتـد بإنكـارهم وهـذا ينبـىء بضعـف عقولهـم وقـرب نظرهم لأنهم لو تأملوا وفكروا ما أنكروا. واقرأ متأملا فى قولـه تعالى: **"فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل** آمنت بما أنزل اللـه مـن كتـاب وأمـرت لأعـدل بينكـم اللـه ربنـا وربكم"[٢] تجد أن الخبر "اللـه ربنـا وربكـم" مسـاق للكفـرة الذيـن ينكرونه وقد خلا من التوكيد إشارة إلى أنه مما ينبغى ألا يجحـد وينكر ومثل هذا كثير فى النظم الكريم.

وتقول لمنكر الإسلام ولجاحد الصلاة: الإسلام حـق، الصـلاة واجبة دون تأكيد فظاهر الحال هنـا هـو الإنكـار وهـذا وصـف ثـابت للمخاطب ويقتضى توكيد الخبر وجوبا ولكن الإنكـار تـرك وصـرف

١- سورة الرعد /٣٠.

٢- سورة الشورى /١٥.

النظر عنه وقدر فى المخاطب أمر اعتبارى هو خلو الذهن لذا جاء الكلام خاليا من التأكيد وذلك لوجود الأدلة الظاهرة على أحقية الإسلام ووجوب الصلاة. ويمكن أن يدخل تحت هذا السر البلاغى قول الفرزدق السابق مخاطبا هشام بن عبد الملك حينما أنكر معرفته لعلى بن الحسين: هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ..... إلخ حيث لم يعتد الفرزدق بإنكار هشام وتجاهله "عليا" وألقى إليه الخبر مجردا من التوكيد تنزيلا له منزلة غير المنكر لأنه لو أنصف ما أنكر وتجاهل وفيه أيضا -كما قلت سابقا- توبيخ وتبكيت لهشام حيث أنكر أمرا معلوما واضحا ما كان ينبغى له أن ينكره.

هذا: وفائدة تنزيل المنكر منزلة خالى الذهن هى: تنبيه المخاطب على التأمل فى الأدلة الشاهدة على صدق الخبر.

٩- تنزيل المنكر منزلة المتردد فيأتى الخبر مؤكدا بمؤكد واحد استحسانا أى: يكون طلبيا وذلك إذا كان المخاطب منكرا إنكارا ضعيفا يزول بأدنى مؤكد وكان حوله من الدلائل أيضا ما إن نظر فيها رجع عن إنكاره وذلك كقوله تعالى مخاطبا الكفار "ثم إنكم يوم القيامة تبعثون"[١] فظاهر حال المخاطبين هو إنكار البعث وهذا يقتضى تأكيد الخبر وجوبا إزالة لهذا الإنكار أما الحال التنزيلية لهم فهى التردد لضعف إنكارهم للبعث ولظهور

١- سورة المؤمنون /١٦.

الأدلة التى تردهم عن هذا الإنكار. ويقول الخطيب القزوينى – رحمه الله– فى معرض استشهاده بالآية المباركة فى هذا الصدد: أكد إثبات البعث تأكيدا واحدا وإن كان مما ينكر لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بألا ينكر بل إما ان يعترف به أو يتردد فيه فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيها لهم على ظهور أدلته وحثا على النظر فيها ولهذا جاء "تبعثون" على الأصل"[١] أى جاء الخبر جملة فعلية ليدل على التجدد لا الثبوت لأن المقصود هو تجدد الفعل فلا يفيد التأكيد بخلاف الاسمية فإنها تدل على الثبوت فتفيد التأكيد.

وبعد: فقد تبين لنا مما سبق أن التوكيد وعدمه كليهما –كما بين كل من العلامة السكاكى وتلميذه الخطيب القزوينى–رحمهما الله– ناظر إلى حال المخاطب من الإنكار وعدمه فى الحالتين التحقيقية أو التنزيلية "الاعتبارية" أى أن المتكلم ناظر إلى مخاطبه يصوغ عبارته على ما يقتضيه حاله الحقيقى أو الاعتبارى.

والحقيقة –كما أشار إليها كل من الإمام عبد القاهر الجرجانى والعلامة سعد الدين التفتازانى– أن المخاطب ليس دائما هو صاحب الحال بل قد يكون المتكلم نفسه هو صاحب الحال فينظر إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق التى أحسها وحرصه على إذاعتها

١– الإيضاح /١٥.

وتقريرها فى النفوس كما أحسها مقررة أكيدة فى نفسه وقد يكون شخصا غير المخاطب وغير المتكلم وقد يكون الاستعمال الوارد عن العرب هو المقتضى والداعى لمجىء الكلام بخصوصية ما وإليك التوضيح:

١- قد يؤكد الكلام لرغبة المتكلم فى إبراز الخبر مؤكدا كما أحسه وانفعل به وامتلأت به نفسه انظر إلى قوله تعالى: "ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم"[١] تجد أن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- قد صاغ الخبر مؤكدا كما أحسه وكما انفعلت به نفسه ولم ينظر فى صياغته إلى اعتبارات خارجية يلحظها عند المخاطب ومثله قوله تعالى: "ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء"[٢] وقوله تعالى: "ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد"[٣] وقوله جل شأنه "ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا"[٤] وتأمل قوله تعالى: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا

١- سورة إبراهيم /٣٧.
٢- سورة إبراهيم /٣٨.
٣- سورة آل عمران /٩.
٤- سورة آل عمران /١٩٣.

معكم"[1] تجد أن إلقاء الخبر إلى الذين آمنوا قد جاء بلا تأكيد "آمنا" وهذا يدل على أن نفوسهم غير ممتلئة به وأنه لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد أما إلقاؤه إلى شياطينهم فقد جاء مؤكدا "إنا معكم. إنما نحن مستهزءون" وهذا ينبيء أن نفوسهم قد امتلأت بهذا القول وأنهم يقولونه عن صدق رغبة واعتقاد ويجدون فيه أريحية لا يجدونها فى القول الأول وفى هذا يقول العلامة سعد الدين التفتازانى -رحمه الله- وقد يترك تأكيد الحكم المنكر لأن نفس المتكلم لا تساعده على تأكيده لكونه غير معتقد له أو لأنه لا يروج منه ولا يتقبل على لفظ التوكيد ويؤكد الحكم المسلم لصدق الرغبة فيه والرواج[2].

٢- وقد يكون داعى التوكيد هو الرغبة فى تحقيق الوعد أو الوعيد انظر فى قوله تعالى: "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون"[3] تجد أن هذا النظم الكريم قد جاء -والله أعلم بمراده- ليبين حال المؤمنين وما يلقونه من ألوان النعيم والتكريم وما يقال لهم يوم القيامة وتصدير هذا النظم بحرف التوكيد "إن" لتحقيق هذا الوعد الكريم. وتأمل فى قوله تعالى: "إن الله يدافع

١- سورة البقرة /١٤.

٢- المطول /٥٣.

٣- سورة الأنبياء /١٠١.

عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور. أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير"[١] تجد أن هذا النظم الجليل قد جاء -ولله العلم- لتطمين نفوس المؤمنين وقلوبهم ببيان أن الله -عز وجل- كما أعد لهم النعيم المقيم في الآخرة هو أيضا مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم.

وتصدير هذا النظم الجليل بحرف التوكيد "إن" لتحقيق هذا الوعد وقد يجرى هذا التوكيد على مقتضى تنزيل غير المتردد منزلة المتردد لامتداد زمان انتظار المؤمنين وشدة توقهم ذلك الإذن واستبطائهم النصر. وقوله تعالى: "إن الله لا يحب كل خوان كفور" تعليل للوعد الحق بالنصر لأن الله -عز وجل- لا يحب أعداء المؤمنين وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله تعالى -والرسول ﷺ- ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله -عز وجل- ويغمطونها. أو هو تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذانا بأن دفعهم بطريق القهر والخزى وما دام ذلك الوعد محققا بأداة التوكيد فهذا الوعيد أيضا محقق فليبرز في معرضه فجرى على سنن التوكيد كذلك. وجملة "وإن الله على نصرهم لقدير" وعد للمسلمين بالنصر وتأكيد لما مر من العدة بالمدافعة عنهم وتصريح بأن المراد به ليس مجرد

١- سورة الحج /٣٩،٣٨.

تخلصهم من أيدى المشركين بل تغليبهم وإظهارهم عليهم[١] ومقام الوعد من مقامات التوكيد لتزداد النفوس به يقينا واطمئنانا ومثله مقام الوعيد كما فى قوله تعالى: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون"[٢] فقد خاطب المولى -عز وجل- بهذا النظم الجليل كفار مكة مصرحا بما يئول إليه أمرهم وما يعبدونهم من دون الله -عز وجل- فى الآخرة من العذاب الجسدى والعذاب النفسى. وتصدير النظم الجليل بحرف التوكيد "إن" لتأكيد هذا الوعيد. وتأمل فى قوله تعالى: "قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار"[٣] تجد أن المولى سبحانه وتعالى قد بين مصير الكافر المعرض عن شكر الله -عز وجل- الذى جعل للمولى سبحانه أندادابأن مصيره إلى النار بعد الحياة الدنيا وتصدير جملة "إنك من أصحاب النار" بحرف التوكيد "إن" لتأكيد هذا الوعيد.

٣- وقد يؤكد الكلام "بـإن" لأن المتكلم يستبعد وقوع الخبر لمجيئه على خلاف ما كان يظن ويأمل وكأن نفسه تنكره فيؤكده لها

١- راجع: من أسرار النظم القرآنى /١٠٩-١١٣.

٢- سورة الأنبياء /٩٨.

٣- سورة الزمر /٨.

وفى هـذا يقـول الإمـام عبـد القـاهر الجرجـانى[1] -رحمـه اللـه-: "واعلم أنها -أى إن- قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم فى الذى كان أنــه لا يكـون وذلـك قولـك للشـىء هـو بمـرأى مـن المخـاطب ومسـمع -أى أن المخـاطب عـالم بـالخبر فليس مترددا ولا منكرا- أنه كان من الأمر ما ترى وكـان منـى إلى فلان إحسان ومعروف ثم إنه جعل جزائى ما رأيت فتجعلـك كـأنك تـرد علـى نفسـك ظنـك الـذى ظننـت وتبيـن الخطـأ الــذى توهمت وعلى ذلك والله أعلم قوله تعـالى حكايـة عـن أم مريـم: "قالت رب إنى وضعتها أنثى واللـه أعلـم بمـا وضعـت"[2] وكذلـك قوله -عز وجل- حكاية عن نوح -عليه السلام-: "قـال رب إن قومـى كذبـون"[3] وذلـك: لأن أم مريـم كـانت تظـن وتـأمل أن تلـد ذكرا فتهبه لخدمة بيت المقدس فلما وضعت أنثى -والأنثـى فـى عرفهم لا تخدم بيـت المقـدس- كـان الخـبر فـى نظرهـا مسـتبعد الوقوع حيث أتى على خلاف ما كانت تأمل وتظن ومن هنا جاء -ولله العلم- التوكيد فى قوله تعالى: "إنى وضعتها أنثى".

ونوح -عليه السلام- كـان يـأمل ويظـن أن قومـه سـيؤمنون بـه

١- دلائل الاعجاز /٣٢٧.

٢- سورة آل عمران /٣٦.

٣- سورة الشعراء /١١٧.

وسيصدقون دعوته غير أنهم كذبوه وأنكروا دعوته فاستبعد ذلك منهم لمجيئه على خلاف ما كان يأمل ويظن ولذا جاء التوكيد فى قوله تعالى -ولله العلم- "إن قومى كذبون".

٤- وقد يكون داعى التوكيد هو: رغبة المتكلم فى تقوية مضمون الكلام عند المخاطب وتقريره فى نفسه وإن كان غير منكر له كقوله تعالى فى مخاطبة النبى -ﷺ- "إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا"[١] وقوله -عز وجل- "إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى"[٢] وقوله -عز وجل- "وإن ربك لهو العزيز الرحيم وإنه لتنزيل رب العالمين"[٣] فالمخاطب -ﷺ- ليس فى نفسه إثارة من شك فى هذه القضايا ولكن التوكيد يهدف -ولله العلم- إلى زيادة تقرير المعنى فى نفسه -ﷺ- حتى يبلغ به عين اليقين وفيه تعهد للإيمان الراسخ فى يقينه -ﷺ- حتى ينهض بأثقال الدعوة وهذا توجيه واضح لحملة الرسالة من بعده -ﷺ- وأنهم فى حاجة مستمرة إلى أن يعودوا إلى دواخل نفوسهم يزكون إيمانهم ويطهرون يقينهم مما قد يعلق به من عوائد الجاهلية لتظل قلوبهم نبعا طاهرا يمدهم بالثبات

١- سورة الإنسان /٢٣.

٢- سورة طه /١٤.

٣- سورة الشعراء /١٩١،١٩٢.

والإيمان فى المواجهات العنيدة بينهم وبين ضلالات العصور وظلمات المادة. وتجد هذه الخصوصية تشيع فى الأساليب التعليمية سواء كانت أدبية أو علمية نقول: إن بحث التوكيد من البحوث الدقيقة وإنه لذو فوائد جمة وإنه لجدير بجد وجهد فترد عباراتك مؤكدة لأنك حريص على بث الفكرة وتقويتها وإثارة اهتمام النفوس بها وهكذا نجد أساليب العلماء تعلو نبرتها عند إرادة اللفت والإيقاظ وتهيئة الذهن لما يلقون من مسائل ومن مطالع فصولهم تلك العبارة المضيئة: اعلم وفقك الله أن الأمر كذا وكذا[١].

٥- وقد يؤكد الحكم للرد على غير المخاطب كقوله تعالى مخاطبا نبيه -ﷺ- ردا على المنافقين الذين ادعوا كذبا شهادتهم بالرسالة "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون"[٢] فقد ادعى المنافقون كذبا شهادتهم برسالة محمد -ﷺ- حيث قالوا: "نشهد إنك لرسول الله" فرد الله -عز وجل- عليهم هذه الشهادة بقوله: "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" والمخاطب بذلك هو الرسول -ﷺ- وهو لا ينكر كذبهم فى ذلك بل يعلمه حق العلم بوحى من الله تعالى وأما التأكيد فى قوله تعالى: "والله يعلم إنك

١- خصائص التراكيب /٦٠،٦١.

٢- سورة المنافقون /١.

لرسوله" فلأن الخبر مما يجب أن يبالغ فى تحقيقه لأنه لدفع الإيهام وإلا فالمخاطب عالم به وبلازمه.

ومثل قولك لزميل تخاطبه: "على يدعى العلم والله إنه لجاهل" فأنت ترد على غير المخاطب ادعاءه فتؤكد الكلام وذلك إذا كان المخاطب يعلم كذب هذا الادعاء من على.

٦- كما يؤكد الخبر اتباعا للاستعمال الوارد عن العرب لأن ذلك من شأنه اصلاح الأسلوب العربى وعدم الاخلال بما قرره علماء العربية وهذا التأكيد يكون "بإن" فى عدة مواضع وضحها الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- منها:

١- الاتصال بضمير الشأن فمن خصائص "إن" أن لضمير الشأن معها من الحسن واللطف ما لا تراه إذا هى لم تدخل عليه بل لا يصلح -حيث يصلح- إلا بها وذلك مثل قوله تعالى: "إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين"[1] وقوله: "أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم"[2] وقوله تعالى: "أنه من عمل منكم سواء بجهالة ثم

١- سورة يوسف /٩٠.

٢- سورة التوبة /٦٣.

تاب...."[١] وقوله: "إنه لا يفلح الكافرون"[٢] ومن ذلك قوله: "فإنها لا تعمى الأبصار"[٣] وأجاز أبو الحسن[٤] فيها وجها آخر وهو: أن يكون الضمير فى "إنها" للأبصار أضمرت قبل الذكر على شريطة التفسير والحاجة فى هذا الوجه أيضا إلى "إن" قائمة كما كانت فى الوجه الأول فأنه لا يقال: هى لا تعمى الأبصار" كما لا يقال هو من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع... إلخ فإن قلت أوليس قد جاء ضمير الأمر مبتدأ به معرى من العوامل فى قوله "قل هو الله أحد"[٥]؟ قيل هو: وإن جاء ههنا فإنه لا يكاد يوجد مع الجملة من الشرط والجزاء بل تراه لا يجىء إلا "بإن"[٦].

٢- ومنها تهيئة النكرة لأن يصلح حكم المبتدأ أعنى أن يكون محدثا عنها بحديث من بعدها ومثال ذلك قول سلمى بن ربيعة:

١- سورة الأنعام /٥٤.

٢- سورة المؤمنون /١١٧.

٣- سورة الحج /٤٦.

٤- هو الأخفش تلميذ سيبويه.

٥- سورة الإخلاص /١، وانظر هامش ص١٧٨ من هذا البحث.

٦- دلائل الإعجاز /٣١٧،٣١٨.

إن شواء ونشوة   وخبب البازل الأمون[١]

قد ترى حسنها وصحة المعنى معها ثم إنك إن جئت بها -أى النكرة- من غير "إن" فقلت: شواء ونشوة وخبب البازل الأمون" لم يكن كلاما.

ويرى الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- أن النكرة إذا كانت موصوفة وكانت لذلك تصلح أن يبتدأ بها فإنك تراها مع "إن" أحسن وترى المعنى حينئذ أولى بالصحة وأمكن أفلا ترى إلى قوله:

إن دهرا يلف شملى بسعدى   لزمان يهم بالإحسان

ليس بخفى وإن كان يستقيم أن نقول: دهر يلف شملى بسعدى دهر صالح أن ليس الحالان على سواء وكذلك ليس بخفى أنك لو عمدت إلى قول أم السليك بن السلكة ترثى ولدها:

إن أمرا فادحا   عن جوابى شغلك

فأسقطت منه "إن" لعدمت منه الحسن والطلاوة والتمكن الذى أنت واجده الآن ووجدت ضعفا وفتورا[٢].

١- الخبب: السير السريع والبازل: المسن من الإبل والأمون الناقة أو المطية الموثقة الخلق المأمونة العثار.

٢- دلائل الإعجاز /٣٢٠،٣٢١.

٣- ومن تأثيره "إن" في الجملة أنها تغني إذا كانت فيها عن الخبر في بعض الكلام أى أنها لم تأت لرد شاك أو منكر وإنما لتغنى عن الخبر المحذوف فى بعض الأساليب ويذكر الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- ما قاله سيبويه "م.ت ١٨٠هـ" -رحمه الله- فى الحروف الخمسة التى تعمل فيما بعدها عمل الأفعال وهى: إن ولكن وليت ولعل وكأن فقد قال: "هذا باب ما يحسن عليه السكوت فى الأحرف الخمسة لإضمارك ما يكون مستقرا لها وموضعا لو أظهرته. وليس هذا المضمر بنفس المظهر وذلك مثل قولهم: إن مالا وإن ولدا وإن عددا أى لهم مالا فالذى أضمرت هو "لهم" ويقول الرجل للرجل: هل لكم أحد؟ إن الناس ألب -أى يتألبون- عليكم؟ فيقول: إن زيدا وإن عمرا أى إن لنا زيدا وقال الأعشى:

إن محلا وإن مرتحلا   وإن فى السفر إذ مضوا مهلا[1]

ويقول: إن غيرها إبلا وشاء كأنه قال: إن لنا أو عندنا غيرها قال وانتصب الإبل والشاء كانتصاب الفارس إذا قلت: ما فى الناس مثله فارسا أى على التمييز وقال ومثل ذلك قول العجاج:

١- محلا ومرتحلا مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال والسفر: المسافرون والمراد بهم الموتى والمهل: الإمهال وطول الغيبة أى إن لنا محلا فى الدنيا وإن لنا مرتحلا عنها إلى الآخرة.

ياليت أيام الصبا رواجعا

قال: فهذا كقولهم: ألا ماء باردا كأنه قال: ألا ماء لنا باردا وكأنه قال: "ياليت أيام الصبا أقبلت رواجع"[١] يقول الإمام عبد القاهر: فقد أراك فى هذا كله أن الخبر محذوف وقد ترى حسن الكلام وصحته مع حذفه وترك النطق به ثم إنك إن عمدت إلى "إن" فأسقطتها وجدت الذى كان حسن من حذف الخبر لا يحسن أو لا يسوغ فلو قلت: مال وعدد ومحل ومرتحل وغيرها إبلا وشاء لم يكن شيئا وذلك أن "إن" كانت السبب فى أن حسن حذف الذى حذف من الخبر وأنها حاضنته والمترجم عنه والمتكفل بشأنه[٢].

٤- ومن مواقع "إن" أنه يؤتى بها عند قصد الجواب يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى[٣] -رحمه الله-: "إنا إذا استقرينا الكلام وجدنا الأمر بينا فى الكثير من مواقعها أنه يقصد بها إلى الجواب كقوله تعالى: "ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا إنا مكنا له فى الأرض"[٤] وكقوله -عز وجل- فى أول السورة: "نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا

١- الكتاب لسيبويه ١/٢٨٣،٢٨٤.

٢- دلائل الإعجاز /٣٢٢.

٣- المرجع السابق /٣٢٤.

٤- سورة الكهف /٨٣،٨٤.

بربهم وزدناهم هدى"[١] وكقوله تعالى: "فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون"[٢] وقوله: "قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله"[٣] وقوله: "وقل إني أنا النذير المبين"[٤] وأشباه ذلك مما يعلم به أنه كلام أمر النبي -ﷺ- بأن يجيب به الكفار في بعض ما جادلوا وناظروا فيه وعلى ذلك قوله تعالى: "فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين"[٥] وذاك أنه يعلم أن المعنى فأتياه فإذا قال لكما ما شأنكما؟ وما جاء بكما؟ وما تقولان؟ فقولا: إنا رسول رب العالمين وكذا قوله: "وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين"[٦] هذا سبيله. ومن المبين في ذلك قوله تعالى في قصة السحرة: "قالوا إنا إلى ربنا منقلبون"[٧] وذلك لأنه عيان أنه جواب فرعون عن قوله: "آمنتم به قبل أن آذن لكم"[٨] فهذا وأشباهه إنما أكد بـ"إن" لأن القصد بها

---

[١]- سورة الكهف /١٣.

[٢]- سورة الشعراء /٢١٦.

[٣]- سورة الأنعام/ ٦٥، وسورة غافر /٦٦.

[٤]- سورة الحجر /٨٩.

[٥]- سورة الشعراء /١٦.

[٦]- سورة الأعراف /١٠٤.

[٧]- سورة الأعراف /١٢٥.

[٨]- سورة الأعراف /١٢٣.

-ولله العلم- الجواب عن سؤال سائل. إلى غير ذلك من خصائص "إن"[١] وغير ذلك من الدواعى والأسباب التى يؤكد لها الخبر[٢].

هذا: ويتبين مما تقدم أن "إن" لا تنحصر مواقعها ولا فائدتها فى تأكيد الحكم نفيا لشك أوردا لإنكار ولا يجب فى كل كلام مؤكد أن يكون الغرض منه رد إنكار محقق أو مقدر أو إزالة شك محقق أو مقدر بل يكون أيضا لأمور أخرى كما سبق. وكذا المجرد عن التأكيد ليس لخالى الذهن أو المنزل منزلته فقط بل أيضا عندما تكون نفس المتكلم لا تساعده على تأكيد الخبر لكونه غير معتقد له أو لأنه لا يروج منه ولا يتقبل.

اعتبارات النفى فيما تقدم كالإثبات

ما تقدم من أضرب الخبر وأغراضه ومن خروج الكلام على مقتضى الظاهر وعلى خلافه يجرى فى النفى كما يجرى فى الإثبات فالأحكام فيهما سواء غير أن الأمثلة السابقة كلها كانت للإثبات وإليك بعض أمثلة النفى فى ذلك:

يقال لخالى الذهن: ما على حاضر -فى الجملة الاسمية

١- راجع: دلائل الإعجاز /٣١٥-٣٢٧. والمطول /٥٣.

٢- انظر: إلى خصائص التراكيب /٥٧ وما بعدها.

-وما حضر على- فى الجملة الفعلية فيخلو الكلام من التأكيد أى يكون الضرب ابتدائيا.

ويقال للمتردد: ليس على بشاعر -فى الجملة الاسمية- وما أن يكتب على وما كان ليكتب -على- فى الجملة الفعلية بتأكيد الكلام استحسانا فيكون الضرب طلبيا.

ويقال للمنكر: والله ما على بشاعر -فى الجملة الإسمية- والله ما إن ينطلق على فى الجملة الفعلية بتأكيد الكلام وجوبا حسب الإنكار قوة وضعفا فيكون الضرب إنكاريا.

فالأمثلة السابقة من إخراج الكلام فى النفى على مقتضى الظاهر وأما إخراجه فى النفى على خلاف مقتضى الظاهر فبيانه (بإيجاز).

١- **تنزيل العالم منزلة المنكر** إذا ظهر عليه شىء من أمارات الإنكار كقولك للمسلم العالم الذى يأكل الربا ولا يبالى ويتمادى فى ذلك: ليس الربا بحلال فيؤكد له الكلام كما يؤكد للمنكر.

٢- **تنزيل المنكر منزلة خالى الذهن** إذا كان هناك من الأدلة والشواهد ما إن تأملها ارتدع عن إنكاره وحينئذ يخلو الكلام من التأكيد وذلك مثل قوله تعالى: "ذلك الكتاب لا ريب فيه"[١] فقوله:

---

[١]- سورة البقرة /٢.

"لا ريب فيه"[١] كلام خال من التأكيد وكان مقتضى الظاهر أن يؤكد فيقال: "إنه لا ريب فيه" لأن القرآن أنكره كثير من الكفار لكنهم نزلوا منزلة خالى الذهن لوجود الدلائل والشواهد على أن القرآن معجز للعرب فى أبرز صفاتهم حتى لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ولأجل هذا لا ينبغى أن يرتاب فيه أحد من الناس.

كذلك قد يكون الغرض من الخبر المنفى أصليا وقد يكون خارجا عن الأصل وذلك حسب سياق الكلام كما تقدم فى الكلام المثبت.

وبعد: فمما سبق يتبين لنا ما يلى:

١- إن الحال لها صورتان يجىء الكلام وفقا لهما:

إحداهما: إخراج الكلام على مقتضى ظاهر الحال فيكون الكلام الخبرى ابتدائيا لخالى الذهن وطلبيا للسائل وإنكاريا للمنكر

١- المعنى: إن القرآن ليس محل شك وهذا ينكره المخاطبون من الكفار وليس المراد نفى ريب المرتابين عن القرآن فالريب منهم واقع لا شك فى ذلك. وقيل إن قوله "لا ريب فيه" من تنزيل وجود الريب منزلة عدمه لأنه لا أثر له كقوله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" [سورة الأنفال /١٧] وعلى هذا فليست الآية من تنزيل المنكر منزلة خالى الذهن بل من تنزيل وجود الشىء منزلة عدمه (راجع بغية الإيضاح ١/٥٠).

على النحو السابق.

وثانيتهما: إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بأن ينزل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الخالى أو السائل أو المنكر فهذه صور ثلاث أو ينزل كل من الخالى والسائل والمنكر منزلة صاحبيه فهذه صور ست والمجموع تسع والحال فى الصورة الأولى أمر ثابت متقرر فى الواقع ونفس الأمر أى وصف حقيقى للمخاطب على حين أنها فى الصورة الثانية أمر مفترض فقط أى ليس وصفا حقيقيا للمخاطب بل تنزيل فقط.

٢- إن كلا من إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وإخراجه على خلاف مقتضى الظاهر يكون مطابقا لمقتضى الحال وإنما كان مطابقا لمقتضى الحال لأن الحال هو الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يورد فى كلامه خصوصية ما زائدة على أصل المعنى وعلى هذا فالحال يشمل أمرين:

١- أمر داع للمتكلم وله ثبوت فى الواقع أى وصف حقيقى وثابت للمخاطب فى الواقع كخلو الذهن من الحكم أو التردد فيه أو إنكاره. وهذا هو ظاهر الحال الذى سبق تعريفه.

٢- أمر داع للمتكلم وليس له ثبوت فى الواقع أى ليس وصفا حقيقيا للمخاطب بل تنزيل فقط وهذا الأمر يكون من تقدير

المتكلم وافتراضه بأن ينزل المخاطب منزلة غيره لسبب من الأسباب التى سبق ذكرها.

ويتبين من هذا أن الحال وظاهر الحال يتفقان فى أن كلا منهما أمر يدعو المتكلم إلى اعتبار خصوصية فى الكلام ويفترقان من حيث إن ظاهر الحال أخص من الحال لأن ظاهر الحال هو الوصف الثابت للمخاطب فى الواقع كخلو الذهن أو التردد أو الإنكار بخلاف الحال فهو أعم من أن يكون وصفا ثابتا للمخاطب فى الواقع أو كان أمرا مفروضا فيه فظاهر الحال فى نحو قولك لمنكر حقية الصلاة "إن الصلاة لحق" هو الإنكار إذ هو الأمر الثابت له فى الواقع وهو حال أيضا لأنه أمر دعا المتكلم إلى أن يعتبر فى الكلام خصوصية هى (التأكيد) فقد اتحد الحال وظاهر الحال فى هذا المثال ونحوه أما فى نحو قولك للمسلم التارك للصلاة: "إن الصلاة لواجبة" فإن إنكاره هنا يعتبر حالا لأنه أمر دعا المتكلم لأن يعتبر التوكيد فى خطابه وليس ظاهر حال المخاطب إذ ليس وصفا ثابتا له فى الواقع وإنما الثابت له عدم الإنكار غير أن المتكلم لم يعتبر هذا الوصف وفرض فيه حالا ليست صفة له هى (الإنكار) وخاطبه على هذا الفرض. فظهر أن الحال أعم من ظاهر الحال فكل ظاهر حال يسمى حالا ولا عكس.

٣- إن إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لدقة مسلكه وحسن

موقعه فى النفس أبلغ من إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وقد قيل إنه من باب الكناية وقيل إنه من الاستعارة بالكناية والتخييل وقيل إنه من مستتبعات الكلام فلا يوصف بحقيقة ولا مجاز ولا كناية[١].

"الإسناد منه حقيقة ومنه مجاز"

من المعلوم أن وحدة البناء فى أساليب العرب هى الكلمة ومن الكلمات تتركب الجمل ومنها تتكون الأساليب وأقل ما تتركب منه الجملة المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل والرابطة التى تربط المبتدأ بالخبر أو الفعل بالفاعل هى رابطة الإسناد.

والإسناد هو المرحلة الأولى من مراحل النظم الذى تحدث عنه الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- فقال النظم هو: توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام. وهذا الإسناد لا يجرى دائما على أسلوب الحقيقة بل قد يتم عن طريق المجاز بمعنى أن يتجوز المتكلم فى بناء جملة أو تكوين عباراته وقد يتم عن طريق الحقيقة. فمن الأبنية الحقيقية قولك: جاء محمد -ضرب محمد عليا- ربح محمد فى تجارته. حيث تجد الفعل قد أسند إلى فاعله الحقيقى الذى فَعَلَه وقام به.

١- بغية الإيضاح ٤٧/١.

وانظر إلى قوله -تعالى-: "قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير"[١] وقوله -تعالى-: "يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها"[٢] وقوله -تعالى-: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام"[٣] تجد أن الأفعال: تؤتى، وتنزع، وتعز، وتذل، يخرج، ويحيى، وينزل ويعلم "قد أسندت إلى فاعلها الحقيقى وهو: الله -عز وجل- وكل ما كان الإسناد فيه إلى فاعله الحقيقى يسمى: حقيقة عقلية أو حكمية أو إثباتية وهى فى القرآن الكريم كثيرة جدا.

ومن الأبنية المجازية قول الله -تعالى-: "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم"[٤] حيث أسند الفعل "ربح" إلى فاعله "تجارتهم" والتجارة لا تربح حقيقة وإنما يربح التاجر ولكن لما كانت التجارة سبب الربح صح إسناد الفعل إليها فليس فى كلمة "ربح" وحدها أو فى "تجارتهم" وحدها مجاز وإنما المجاز فى إسناد كلمة "ربحت" إلى "التجارة" والذى سوغ المجاز وحسنه: وجود علاقة

١- سورة آل عمران ٢٦.

٢- سورة الروم ١٩.

٣- سورة لقمان ٣٤.

٤- سورة البقرة ١٦.

بين الفعل والفاعل المجازى إذ الفاعل المجازى سبب الربح.

وتأمل فى قوله -تعالى-: فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية"[١] تجد اسم الفاعل "راضية " وهو وصف مشبه للفعل فى معناه وعمله قد أسند إلى ضمير العيشة والعيشة لا تكون راضية وإنما هى مرضية والذى يرضى صاحبها فالإسناد هنا مجازى والذى سوغ المجاز وحسنه هو المشابهة بين صاحب العيشة والعيشة فى تعلق الفعل بهما فتعلقه بصاحب العيشة من حيث صدور الرضا منه وتعلقه بالعيشة من حيث وقوعه عليها وذلك للمبالغة فى جمال العيشة وأنها من الروعة بحيث يتخيل أنها وهى لا تعقل ولا تحس قد شاركت فى هذا الرضا. ومن ذلك نعلم أن الفعل وما يشبهه إذا أسند إلى غير فاعله الحقيقى لعلاقة كان الإسناد غير حقيقى وعلى سبيل المجاز ويسمى المجاز فى مثل ذلك بالمجاز العقلى لأن الاستعمال المجازى ليس جاريا فى نفس الكلمة وإنما هو الإسناد فقط وهو أمر يدركه العقل.

وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن الإسناد الحقيقى قبل أن يتناولوا هذا المجاز لأن معرفته تنبنى على معرفة الحقيقة العقلية والإحاطة بها.

١- سورة القارعة ٦،٧.

هذا والحقيقة هى: الكلمة المستعملة فيما هى موضوعة له من غير تأويل فلفظ "الأسد" موضوع له على سبيل الحقيقة دون تأويل والحقيقة تنقسم عند العلماء إلى: لغوية وشرعية وعرفية.

فهى لغوية إذا كان صاحب وضعها واضع اللغة. وشرعية إذا كان صاحب وضعها الشارع وعرفية إذا كانت جارية على سبيل عرف جرت به العادة أى لم يتعين واضعها.

والمجاز لغة من جاز الموضع بمعنى سلكه وسار فيه وجاوز الشىء إلى غيره أى جازه وتعداه ويقال: جعل ذلك الأمر مجازا إلى حاجته أى طريقا ومسلكا وجوز له ما صنع تجويزا: أجازه له أى: سوغ له ذلك.

وبهذا يكون لفظ "مجاز" اسم مكان بمعنى المسلك والطريق أو مصدرا ميميا بمعنى: الجواز وهو كون الشىء سائغا وجائزا أو بمعنى التجوز والتعدى عن الشىء إلى غيره[1] وقال الإمام عبد القاهر الجرجانى: المجاز مفعل من جاز الشىء ويجوزه إذا تعداه[2]. وأما فى اصطلاح البلاغيين فإن المجاز ضربان:

الأول: مجاز لغوى هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له

١- مختار الصحاح مادة جوز.

٢- أسرار البلاغة /٣٩٥.

سواء أكان اللفظ مفردا أم مركبا وسمى لغويا لأن اللغة هى الوسيلة التى يعرف بها استعمال اللفظ فيما وضع له أو فى غير ما وضع له وهو نوعان:

أحدهما: مجاز مرسل وذلك إذا كانت العلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى غير المشابهة وبهذا تتعدد علاقاته.

وثانيهما: مجاز بالاستعارة وذلك إذا كانت العلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى هى المشابهة فى صفة أو أكثر ويبحث هذا الضرب بنوعيه فى علم البيان.

الثانى: مجاز فى الإسناد ويطلق عليه البلاغيون تسميات كثيرة سوف نعرضها أثناء دراستنا له ويبحث هذا الضرب فى علم المعانى.

والإسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلى وسمى الإسناد فيهما عقليا لاستناده إلى العقل دون الوضع لأن استناد الكلمة إلى الكلمة شىء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة ونبدأ -بعون الله- الحديث عن:

الحقيقة العقلية

وهى كما يراها العلامة الخطيب القزوينى: "إسناد الفعل أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم فى الظاهر"[1] وما فى معنى الفعل قد بينه العلامة سعد الدين التفتازانى بقوله: الحقيقة العقلية هى: "إسناد الفعل أو ما فى معناه كالمصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظرف إلى شىء هو أى الفعل أو معناه لذلك الشيء"[2] فكل هذه الأنواع الستة تدل على جزء من معنى الفعل وهو الحدث ولا تدل علىمعنى الفعل كله وإلا كانت أفعالا حقيقية لأن الفعل ما دل على حدث مقترن بزمن من الأزمنة الثلاثة التى هى الماضى والحال والاستقبال والمصدر وما ماثله مما دل علىجزء من معنى الفعل يدل على الحدث غير مقترن بزمن.

و(ما) فى قول الخطيب القزوينى -رحمه الله- "إلى ما هو له" بمعنى: شىء والتقدير: إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى شىء بنى الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم فىالظاهر. والشىء الذى بنى الفعل أو ما فى معناه له يطلق على أمرين هما:

الأمر الأول: الفاعل الذى اسند إليه فعل أو ما فى معناه وحق

١- الإيضاح ١٥.

٢- المطول: ٥٤.

الفعل أو ما فى معناه أن يسند إلى الفاعل ويبنى له.

والفاعل إما أن يكون هو الذى فعل الفعل حقيقة وأثر فى إيجاده وذلك لا يكون إلا لفاعل واحد هو الله سبحانه و-تعالى- كقولنا: خلق الله الخلق وأحيا الأرض وأبدع السماوات. وإما أن يكون فاعلا للفعل حكما بمعنى أن يقوم به بأمر الله وتأثيره فيه ويكون له فيه كسب وتحصيل كقولنا: قام محمد وذهب على. وإما أن يكون متصفا بالفعل الذى أسند إليه كقولنا: مرض محمد وبرد الماء وفى كل ذلك يكون الإسناد حقيقيا. وتأمل قول بشار:

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا   صديقك لم تلق الذى تعاتبه

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه   مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه؟

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

تجد أن فيه أفعالا أسندت إلى فاعليها الذين بنيت لهم الأفعال أى قامت الأفعال بهم أو صدرت منهم.

فتجد مثلا الفعل "تلق" أسند إلى فاعله الذى بنى له وهو ضمير المخاطب المستتر وهذا الضمير هو الفاعل الذى قام بالفعل وإن كان الفعل منفيا بلم وهذا الإسناد يسمى حقيقة عقلية.

كذلك "تعاتبه" فعل بنى لفاعله الذى اسند إليه فى البيت وهو

ضمير المخاطب المستتر وهذا أيضا إسناد حقيقي من إسناد الفعل إلى ما حقه أن يسند إليه وفعلا الأمر "عش وصل" أسندا إلى فاعلهما المستتر وتقديره "أنت" وكل من هذين الإسنادين حقيقة عقلية حيث أسند الفعل فى كل منهما لفاعله الذى حقه أن يسند إليه ويبنى له. وإذا تأملت الأبيات مرة أخرى وجدت أشياء بمعنى الفعل أسند كل منها إلى ما حقه أن يسند إليه ويبنى له مثل "معاتبا" فهو اسم فاعل أسند إلى فاعله الذى بنى له وهو الضمير المستتر وتقديره "أنت" وهو الذى صدر عنه العتاب حقيقة. كذلك "مقارف ومجانب" كل منهما اسم فاعل أسند لما حقه أن يبنى له وفاعله ضمير مستتر تقديره "هو" يعود على "صديقك".

الأمر الثاني: المفعول الذى بنى له الفعل أو ما فى معنى الفعل[1] ويقصد بالمفعول هنا: نائب الفاعل لأن اصله مفعول به فحينما يسند الفعل المبنى للمجهول ومثله اسم المفعول إلى نائب الفاعل الذى بنى له الفعل أو اسم المفعول فإن هذا الإسناد يكون حقيقة عقلية من إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم.

---

[1] - معنى الفعل هنا هو اسم المفعول لأنه يسند إلى نائب الفاعل كما يسند الفعل المبنى للمجهول إلى نائب الفاعل ومعلوم أن اسم المفعول يعمل عمل فعله المبنى للمجهول واسم الفاعل يحمل عمل فعله المبنى للمعلوم.

فمن إسناد الفعل المبنى للمجهول إلى المفعول إسنادا حقيقيا قول بشار السابق: من ذا الذى ترضى سجاياه ... إلخ فإن الفعل "تعد" مبنى للمجهول وقد أسند إلى مفعوله الذى حقه أن يسند إليه وهو "معايبه" وهذا إسناد حقيقى من إسناد الفعل إلى ما هو له.

ومن إسناد معنى الفعل إلى المفعول إسنادا حقيقيا قول الشاعر:

متى نملك الشأو الرفيع جلاله ونرمى إلى العليا سهما مسددا

فمسددا اسم مفعول بنى لما حقه أن يبنى له وهو المفعول به الذى هو ضمير مستتر يعود إلى "سهم" والسهم يسدد من راميه وهذا إسناد حقيقى من إسناد معنى الفعل إلى ما هو له.

ومثل ذلك قول شوقى فى مملكة النحل[1]:

مملكـــــة مدبــــــره بامـــــرأة مؤمـــــره

تحمل فى العمــــال والصنــــاع عبء السـيطره

فمؤمره: اسم مفعول أسند إلى ما حقه أن يسند إليه وهو المفعول المستتر العائد على امرأة.

وقول الخطيب القزوينى -رحمه الله- فى تعريف الحقيقة العقلية "عند المتكلم" يراد به: أن الحكم على الإسناد بكونه حقيقة

---

[1]- الشوقيات ١/١٤٥.

عقلية أو مجازا عقليا منظور فيه إلى اعتقاد المتكلم فما يكون حقيقة عند أهل السنة قد يكون مجازا عند المعتزلة مثلا وهكذا.

وبهذا يخرج عن مجال الحقيقة العقلية الأخبار التى طابقت الواقع دون اعتقاد المتكلم كقول المعتزلى: خلق الله أفعال العباد الاختيارية لعدم اعتقاده هذه الحقيقة. كما يخرج بهذا الأقوال الكاذبة التى لا تطابق شيئا كقولك: العلم غير مفيد. وقول الخطيب: "فى الظاهر" أى فى ظاهر حال المتكلم بأن تدل عليه قرينة ما. فإذا لم توجد هذه القرينة كان المثالان السابقان ونحوهما داخلين فى مفهوم الحقيقة صدقا وكذبا.

ومن هنا تنقسم الحقيقة العقلية باعتبار حالة المتكلم والواقع إلى أربعة أقسام:

الأول: ما طابق فيه الإسناد الواقع والاعتقاد معا كقول المؤمن: شفى الله المريض. وأنبت النبات. وأنزل الله المطر من السماء. فشفاء المريض وإنبات النبات وإنزال المطر مسند إلى الله -عز وجل- حقيقة فى الواقع وهو كذلك فى اعتقاد المتكلم المؤمن.

الثانى: ما طابق فيه الإسناد اعتقاد المتكلم وخالف الواقع كقول الكافر: أنبت الربيع البقل وشفى الطبيب المريض. فإن الكافر يعتقد أن إنبات البقل من الربيع وشفاء المريض من الطبيب ولكن الواقع يخالف ذلك ويناقضه إذ الإنبات من الله -تعالى- والربيع

ظرف له والشفاء من الله -عز وجل- والطبيب سبب له ومن ذلك قوله -تعالى- حكاية عن الدهريين "وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون"[1] فالدهرى يعتقد أن الدهر هو الفاعل وهو الذى يهلك وهذا اعتقاد باطل لأن الواقع يدفعه والمؤمن عندما يسند الأفعال إلى الدهر أو الأيام فإنه لا يعتقد أنها الفاعل بل يكون متجوزا كما سنرى.

الثالث: ما طابق فيه الإسناد الواقع وخالف اعتقاد المتكلم كقول المعتزلى لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه: خالق الأفعال كلها هو الله -تعالى-: فإسناد خلق الأفعال إلى الله -عز وجل- إسناد حقيقى يطابق الواقع ولكنه يخالف اعتقاد المعتزلى إذ اعتقاده أن الأفعال الاختيارية تسند إلى العبد لا إلى الله -عز وجل- ولا يمكن حمل هذا على المجاز لأن المخاطب لا يعلم حال المتكلم الخفية فإن علمت هذه الحال أو وجدت القرينة الدالة على أن إسناد الفعل لغير ما هو له كان الإسناد مجازيا أى إلى السبب عند المتكلم.

الرابع: ما خالف الإسناد فيه الواقع والاعتقاد معا كالأقوال الكاذبة التى يكون القائل عالما بها دون المخاطب كأن يقول: "سافر محمد" وهو لم يسافر فهذا القول يخالف الواقع ويخالف اعتقاد القائل وإنما كان من قبيل الإسناد الحقيقى لأن المخاطب لا يعلم أنه كذب

---

[1]- سورة الجاثية ٢٤.

والمتكلم الكاذب لا ينصب قرينة تدل على أنه كاذب وخير ما يقال في هذا الموطن هو أن الاحتكام إلى الواقع فقط أدق وعليه تكون الحقيقة العقلية إما صادقة وإما كاذبة ومرد ذلك إلى الواقع وحده كما سبق في أحوال الإسناد الخبري.

وقد شرح العلامة سعد الدين التفتازاني القسم الرابع من الحقيقة العقلية قائلا: ومالا يطابق شيئا منهما أي لا يطابق الواقع ولا الاعتقاد -نحو قولك: جاء زيد وأنت خاصة تعلم أنه لم يجيء دون المخاطب فهذا أيضا إسناد إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر لأن الكاذب لا ينصب قرينة على خلاف إرادته وقوله وأنت تعلم بتقديم المسند إليه احترازا عما إذا كان المخاطب أيضا عالما بأنه لم يجيء فإنه حينئذ لا يتعين كونه حقيقة بل ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون المخاطب مع علمه بأنه لم يجيء عالما بأن المتكلم يعلم أنه لم يجيء.

والثاني: ألا يكون عالما به -أي لا يكون المخاطب عالما بعلم المتكلم أنه لم يجيء فالأول لا يكون إسنادا إلى ما هو له عند المتكلم لا في الحقيقة ولا في الظاهر لوجود القرينة الصارفة فلا يكون حقيقة عقلية بل إن كان بملابسة يكون مجازا والا فهو من قبيل مالا يعتد به ولا يعد في الحقيقة ولا في المجاز بل ينسب

إلى ما يكره كما صرح به فى المفتاح[1] بخلاف الثانى فإن المخاطب لما لم يعلم أن المتكلم عالم بأنه لم يجيء بفهم من ظاهره أنه إسنادا إلى ما هو له عنده بناء على سهو أو نسيان[2].

هذا ونلاحظ أن الخطيب القزوينى -رحمه الله- قد قصر الإسناد الحقيقى على الفعل وما فى معناه وكأن الإسناد الذى لا يكون المسند فيه فعلا ولا ما فى معناه نحو: سعد أخى وعلى أخوك ليس من الحقيقة العقلية ولذلك كان تعريف الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- للحقيقة العقلية أدق وأصوب إذ عرفها بقوله: كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه منه[3] فلم يقيد الإسناد بالفعل ولا ما فى معناه كما فعل الخطيب القزوينى.

---

[1]- مفتاح المعلوم ٣٩٩.

[2]- المطول ٥٥.

[3]- أسرار البلاغة ٣٨٤.

"المجاز العقلى"

وقد تعددت أسماؤه فى مصادر البلاغة فقد أطلق عليه البلاغيون تسميات كثيرة منها:

المجاز العقلى أو المجاز الحكمى أو المجاز فى الإسناد أو المجاز النسبى أو المجاز الإسنادى أو المجاز فى الإثبات أو المجاز التركيبى أو مجاز الملابسة[١] فالأسماء قد تعددت والمسمى واحد وأشهر هذه التسميات: المجاز العقلى لرجوعه إلى تصرف العقل وحكمه أو لأن التصرف فيه قائم على الإسناد وهو أمر عقلى.

وقد عرفه الخطيب القزوينى -رحمه الله- بقوله: "وأما المجاز فهو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول[٢] وقد سبق بيان المراد بما فى معنى الفعل ومعنى الملابسة: العلاقة بين الفعل وفاعله المجازى وهذه العلاقة هى: مضاهاة الفاعل المجازى بالفاعل الحقيقى فى مطلق تعلق وارتباط بالفعل أو بمعناه أى أن الفاعل المجازى يرتبط بالفعل باعتباره سببا أو ظرف زمان أو ظرف مكان أو مصدرا أو فاعلا أو مفعولا لذلك الفعل كما يرتبط

١- راجع: أسرار البلاغة ٤٠٨ وما بعدها ودلائل الإعجاز ٢٩٣ وما بعدها ومفتاح العلوم ٣٩٣ وما بعدها والإيضاح ١٥ وما بعدها والأطول ٧٢/١ ومواهب الفتاح وحاشية الدسوقى ٢٣١/١.

٢- الإيضاح ١٦.

الفاعل الحقيقى بالفعل باعتبار صدوره منه أو قيامه به على سبيل الحقيقة فالمضاهاة والمشابهة بين الفاعل المجازى والفاعل الحقيقى تكون فى ارتباط الفعل بكل منهما وأن اختلفت جهة الارتباط والتعلق. وهذه المشابهة تخالف المشابهة فى المجاز بالاستعارة لأن المشابهة فى الاستعارة تكون بين المعنى الحقيقى والمعنى الخيالى فى صفة أو صفات أما هنا فهى مطلق التعلق والارتباط وجهة التعلق تختلف من مجاز لآخر[1] وسيأتى تفصيل علاقات المجاز العقلى.

وقوله "غير ما هو له" أى ملابس لم يبن له الفعل أو ما فى معناه ويقصد بهذا أن يكون الفعل أو ما فى معناه -المبنى للفاعل مسندا إلى غير الفاعل أو يكون الفعل المبنى للمفعول مسندا إلى غير المفعول سواء أكان ذلك الغير غيرا فى الواقع أم عند المتكلم فى ظاهر حاله ولهذا التعميم فى الغيرية كانت أقسام المجاز العقلى أربعة باعتبار حال المتكلم والواقع- كالحقيقة العقلية:

القسم الأول: ما طابق الواقع والاعتقاد كقول ا لمؤمن: "أنزل الله الغيث" لمخاطب يعتقد أن المتكلم كافر والمتكلم يعلم هذا الاعتقاد فهذا القول -وإن كان مطابقا للواقع ولاعتقاد المتكلم- إلا أن- المخاطب يفهم من حال القائل أنه يسند الفعل إلى غير ما هو له أى

---

[1]- راجع: مواهب الفتاح ١/٢٣٢،٢٣٣.

يعتقد أن المتكلم ينسب إنزال الغيث إلى السماء على سبيل الحقيقة فإذا اسنده إلى الله -عز وجل- كان إسنادا مجازيا إلى السبب والقرينة هى: ما فهمه المخاطب من ظاهر حال المتكلم حيث اعتقد أنه كافر وعلم المتكلم باعتقاد المخاطب نصب للقرينة.

القسم الثانى: ما طابق الواقع فقط كقول الكافر: "أنبت الله الزرع" لمخاطب يعلم أن المتكلم كافر والمتكلم يعرف أن المخاطب يعلم ذلك فإسناد الإنبات إلى الله -وإن كان مطابقا للواقع- إلا أنه غير مطابق لاعتقاد المتكلم فيما يفهم من ظاهر حاله لأنه كافر يسند الإنبات إلى الربيع على سبيل الحقيقة فإذا أسنده إلى الله كان مجازا عقليا من إسناد الفعل إلى السبب فى اعتقاده والقرينة هنا: هى فهم المخاطب لحالة المتكلم وهى كونه كافرا -وعلم المتكلم بذلك الفهم نصب للقرينة.

القسم الثالث: ما طابق الاعتقاد فقط كقول الجاهل أنزلت السماء مطرا "لمخاطب يعتقد أن القائل يسند إنزال المطر إلى الله على سبيل الحقيقة والمتكلم يعلم هذا الاعتقاد فيكون مجازا عقليا لأنه إسناد الفعل إلى غير ما هو له فيما يفهم من ظاهر حال المتكلم والقرينة هى: فهم المخاطب لحالة المتكلم.

القسم الرابع: ما لا يطابق الواقع ولا الاعتقاد مثل قولك: "حضر على" وأنت تعلم أنه لم يحضر والمخاطب أيضا يعلم أنه لم

يحضر وتعلم أنت بعلم المخاطب فالإسناد حينئذ مجاز لأن الفعل "حضر" مسند إلى غير ما هو له والقرينة هى: علم المخاطب بكذب الخبر وعلمه بأن المتكلم عالم بذلك لأنه يتعمده[١]. وقول الخطيب القزوينى -رحمه الله- بتأول "أى بقرينة تصرف الإسناد عن ظاهره بمعنى: أنه لابد من وجود قرينة تبين أن إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له فى ظاهر حال المتكلم فإذا لم توجد قرينة كان الإسناد حقيقيا لأن المتبادر إلى الفهم عند عدمها هو الحقيقة وسيأتى إن شاء الله -تعالى- حديث عن القرينة.

هذا ونلاحظ أن الخطيب -رحمه الله- قد قصر التجوز فى الإسناد أيضا على الفعل وما فى معناه وهو أعم من ذلك على نحو ما سنرى بعون الله.

ملابسات المجاز العقلى – أى علاقاته:

البلاغيون ينظرون فى تحديد هذه العلاقات أو تلك الملابسات إلى ما بين الفعل والفاعل المجازى من تعلق وارتباط أو إلى ما بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازى فقولك: سار الطريق وقوله -عز وجل- "فما ربحت تجارتهم" هنالك ارتباط وتعلق بين "سار" و"الطريق" باعتبار الطريق مكان للسير كما أن هناك تعلق بين "ربح" و "التجارة" باعتبار التجارة مفعولا يقع عليها الربح وهنالك أيضا

١- راجع: حاشية الدسوقى ١/٢٣٢.

تعلق وارتباط بين "الطريق" و "الناس" وبين "التجارة" والمشترين باعتبار تلبس الفعل وتعلقه بكل منهما ولك أن تنظر فى تحديد الملابسة إلى أيهما شئت لأنه إذا كانت هناك ملابسة بين الفعل والفاعل المجازى لزم أن يكون هناك ملابسة بين الفاعلين الحقيقى والمجازى كما هو واضح وإليك بيان هذه الملابسات:

١- **المفعولية:** وتتحقق بإسناد المبنى للفاعل أو اسم الفاعل إلى المفعول وإنما سميت هذه العلاقة المفعولية لأن المسند إليه فى الحقيقة هو المفعول لا الفاعل. كما فى قولنا "سر كاتم" أى مكتوم وذلك مبالغة فى كتمانه واخفائه إذ الأصل: كتم الرجل السر فلما أريد المبالغة فى حفظ السر وكتمه أسند الفعل إلى مفعوله فقيل: سر كاتم تجوزا فى الإسناد فقد بلغ الكتمان مبلغا صار السر فيه كاتما لا مكتوما.

وكقول الحطيئة فى هجاء الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فهو يهجوه ويطلب منه أن يدع المكارم ولا يسعى لطلب المعالى وأن يظل قاعدا فى البيت دون سعى كالمرأة تطعم وتكسى أو كمن يعيش عالة على غيره وقد أسند الشاعر "الطاعم والكاسى" وهما اسما فاعل أى فيهما معنى الفعل إلى ضمير الزبرقان وهو فى الحقيقة مفعول به لأنه المطعوم المكسو فى نظر الشاعر مبالغة فى

تحقيره والحط من شأنه والاستهزاء به والذى سوغ ذلك مشابهة الفاعل المجازى وهو ضمير الزبرقان بالفاعل الحقيقى وهو العائل له -فى التعلق بمعنى الفعل فالمفعول يتعقل به لوقوعه عليه والفاعل يتعلق به لصدوره منه والتركيب الحقيقى هو: فإنك أنت المطعوم المكسو.

وكقول النابغة الذبيانى:

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع[1]

فقد أسند اسم الفاعل "ناقع" إلى ضمير "السم" على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المفعولية فالسم لا يكون ناقعا وإنما يكون منقوعا فى ماء أو غيره وكقوله -تعالى- "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين"[2] فالتجارة ليست هى الفاعل الحقيقى للفعل "ربح" وإنما أسند إليها لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها والأصل: فما ربح المشترون فى تجارتهم والتجوز هنا بإسناد الربح المنفى إلى التجارة أفاد المبالغة فى خسرانهم فالذى خسر ليس هم وإنما هو التجارة وهى تجارة غريبة من نوعها حيث اشترى هؤلاء الضلالة ودفعوا الهدى ثمنا لها وتلك

١- ساورتنى: واثبتنى. ضئيلة: الحية الدقيقة النحيفة. الرقش: جمع رقشاء وهى الحية فيها نقط سود وبيض. والسم الناقع: أى المنقوع وهو شديد التأثير.

٢- سورة البقرة ١٦.

تجارة لا يرتاب عاقل فى بوارها ولذا بولغ فى تأكيد الخسران بإسناد عدم الربح إلى التجارة ذاتها والذى لم يربح هم المتاجرون فيها. ومن ذلك قوله -تعالى-: "ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم"[١] فقط أسند "عاصم" اسم فاعل إلى ضمير المفعول إذ المعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه وذلك مبالغة فى نفى العصمة عمن كفر وتولى.

وتأمل قوله -تعالى-: "فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق"[٢] تجد أن "دافق" قد أسند إلى ضمير الماء والماء مدفوق وليس دافقا فالملابسة بين "دافق و "الماء" ملابسة بين الفعل ومفعوله والتجوز فى الإسناد هنا قد جعل المدفوق دافقا مبالغة فى سرعة اندفاعه. وانظر فى قوله -عز وجل-: "فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية"[٣] تجد أن فاعل "راضية" ضمير يرجع إلى العيشة والعيشة مرضية لا راضية إذ الأصل: فى عيشة رضى صاحبها بها فأسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها ويفيد هذا

١- سورة هود ٤٢،٤٣.

٢- سورة الطارق ٥،٦.

٣- سورة القارعة ٦،٧.

التجوز -ولله العلم- المبالغة فى النعيم الذى أعده الله -عز وجل- للمؤمنين فى الجنة فرضوا به وسعدوا إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية بصاحبها تألفه ويألفها وتحبه ويحبها فهى عيشة دائمة باقية لأنها مبنية على الألفة والمحبة ولو كانت مبنية على التنافر ما دامت وانظر فى التعبيرين: المؤمن فى عيشة راضية والكافر فى عيشة نافرة تجد أن التجوز فى الأول ينبىء بالدوام والبقاء حيث الرضا والألفة أما التجوز فى الثانى فينبىء بالفرقة والابتعاد حيث النفور والكراهية.

فعلاقة المفعولية فيما سبق تصور المفعول بصورة الفاعل مما يعطى لتلك العلاقة قيمة بلاغية جليلة.

٢- **الفاعلية:** وتتحقق بإسناد المبنى للمفعول أو اسم المفعول إلى الفاعل وإنما سميت هذه العلاقة بالفاعلية لأننا حين نأخذ المسند إليه أو ضميره لنعرف دوره مع المسند فى ظل الحقيقة والواقع نجده الفاعل الحقيقى لا المفعول كقولنا: "أفعم السيل" بالبناء للمجهول فقد أسند الفعل "أفعم" وهو مبنى للمفعول إلى الفاعل وهو السيل وكان حقه أن يسند إلى المفعول وهو الوادى والتركيب الحقيقى: أفعم الوادى بالسيل أى أن السيل هو الذى أفعم الوادى أى ملأه وكقولنا "هذا سيل مفعم بصيغة اسم المفعول. والمفعم هو: المملوء والسيل فى حقيقة الأمر وواقعه

مالىء للوادى. فالوادى هو الذى يفعم أى يمتلىء بالماء والإسناد الحقيقى "أفعم السيل الوادى" ولكننا تجوزنا فى الإسناد فأسندنا "مفعم" اسم المفعول إلى السيل الذى هو الفاعل الحقيقى وكان حقه أن يسند إلى المفعول وهو الوادى فيقال: "واد مفعم" والعلاقة هنا "الفاعلية" أى مشابهة المفعول -أى نائب الفاعل فأصله مفعول به- المجازى بالمفعول الحقيقى فى التعلق بالفعل فالسيل يتعلق به باعتباره فاعلا حقيقيا للإفعام والوادى يتعلق به باعتباره مفعولا حقيقيا له وقد أفاد هذا التجوز شدة المبالغة فى فيضان الماء وامتلاء الوادى به حتى أصبح الماء مملوء لا مالئا وانظر فى قوله -تعالى- "وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا"[١] تجد أن اسم المفعول "مستورا" قد أسند إلى ضمير الحجاب والحجاب فى الحقيقة ساتر أى فاعل للستر لأنه يستر ما وراءه وليس مستورا. و "مستورا" حقه أن يسند إلى المفعول الذى ينوب عن الفاعل عند حذفه لكنه أسند إلى الفاعل إسنادا مجازيا فالملابسة بين اسم المفعول "مستورا" وبين نائب الفاعل "الحجاب" ملابسة بين الفعل وفاعله إذ الحجاب فاعل للستر لا مفعول والتجوز فى الإسناد أفاد -والله العلم- المبالغة فى قسوة قلوبهم وشدة جحودهم فقد زادت

١- سورة الإسراء ٤٥.

مكابرتهم وطغى عنادهم حتى وصل حدا لم يعودوا فيه مستورين بالحجاب بل صار الحجاب هو المستور بطغيانهم وجحودهم. والعلاقة هنا "الفاعلية" وأصل التركيب "حجابا مستورا صاحبه" ومعنى الآية -ولله العلم- إذا قرأت القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق جعلنا بمقتضى حكمتنا فى الإضلال والهداية بينك وبين الكفرة الذين ينكرون البعث حجابا يمنعهم عن الحق وذلك بالختم على قلوبهم ووضع الغشاوة والأغطية على سمعهم وأبصارهم وقد جعل الحجاب المانع الساتر مستورا -كما بينا- لإبراز شدة جحودهم وقسوة قلوبهم ولبيان أنهم بلغوا فى العناد والمكابرة مبلغا عظيما ومن ذلك قوله -تعالى-: "جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا"[1] فقوله "مأتيا" اسم مفعول وقد أسند إلى ضمير الوعد الذى هو فاعل فى الحقيقة لأن الوعد آت وليس مأتيا والمفعول الحقيقى هو صاحب الوعد وحقيقته مأتيا صاحبه أى أن الوعد أتى صاحبه وقد أفاد التجوز فى الإسناد كمال المبالغة فى إنجاز وعد الله -عز وجل- وتحقيقه حيث جعله مأتيا إليهم وكأن هناك من يحمله ويأتى به إلى المؤمنين ساعيا به إليهم وهناك وجوه أخر

١- سورة مريم ٦١.

محتملة فى هاتين الآيتين ربما كانت أحق بالاعتبار من المجـاز[١] وتأمل قوله -تعالى-: "ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولـون الأدبـار وكـان عهد اللـه مسئولا"[٢] وقولـــه -عـز وجـل- "وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت"[٣] تجد أن "مسئولا" قد أسند إلـى ضمير العهد و"سئلت" قد أسـند إلـى ضمـير المـوءودة والعهد لا يسأل بل المسئول صاحبه وكذا الموءودة لن تسأل بل وائدها هـو الذى يسأل وقد أفاد التجوز فى الإسناد كمال المبالغة فى وجـوب الالتزام بالعهد وشدة الوعيـد والتهديـد لمـن يئـد البنـات[٤]. فعلاقـة الفاعلية فيما سبق تصور الفاعل بصـورة المفعول للمبالغـة ممـا يعطـى لتلـك العلاقـة قيمـة بلاغيـة وهنـاك قـاعدة مثلـى لعلاقتـى الفاعلية والمفعولية فإذا كانت الكلمة التى فيها المجاز علـى وزن (فاعل) كقوله -تعالى-: "خلق من ماء دافق" فإن العلاقـة تكـون المفعولية وإذا كانت الكلمة التى فيها المجاز على وزن "مفعـول" مثل قوله -عـز وجـل- "وكـان عهـد اللـه مسـئولا" فـإن العلاقـة

١- راجـع: تفسـير الكشـاف ٦٧٠/٢، ٢٧/٣ وتفسـير القرطبـى ٣٩٩٨/٥ والبيضـاوى والشـهاب ٣٧،٣٦/٦. وتفسير روح المعـانى ٨٧/١٥ وتفسـير التحرير والتنوير ١٣٧/١٦.

٢- سورة الأحزاب ١٥.

٣- سورة التكوير ٨،٩.

٤- علم المعانى ٦٧/١.

تكون الفاعلية.

٣- **المصدرية**: وتتحقق بإسناد المبنى للفاعل إلى مصدره وإنما سميت بذلك لأننا نأتي بمصدر الفعل فنجعله فاعلا ومن المعلوم أن المصدر جزء من مفهوم الفعل لأنه يدل على الحدث والفعل يدل على الحدث والزمان وذلك كقولهم: فلان جن جنونه وغضب غضبه وجد جده وشعر شعره فقد أسند الفعل المبنى للفاعل إلى مصدره والأصل: جن فلان جنونا وغضب الغاضب غضبا وجد الجاد جدا وشعر الشاعر شعرا ولكنهم تجوزا فأسندوا ما حقه أن يسند إلى الفاعل إلى المصدر وذلك تحقيقا للمبالغة فى الأفعال المذكورة ومن ذلك قول أبى فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

فقد أسند الفعل "جد" بمعنى اجتهد إلى مصدره "جدهم" وحقه أن يسند إلى الفاعل الحقيقى وهو القوم فيقال: إذا جد القوم جدا ولكن الشاعر تجوز فى الإسناد فحذف الفاعل الأصلى وأسند الفعل إلى مصدره للمشابهة بين الفاعل الحقيقي والمجازى فى تعلق الفعل بهما فتعلقه بالفاعل الحقيقى من حيث صدوره منه وتعلقه بالفاعل المجازى وهو المصدر من حيث إنه جزء مفهومه.

وقد أفاد هذا الإسناد المبالغة فيما نـزل بـالقوم وحـل بهـم مـن خطوب جسام أخذوا يستعدون لهـا ويفتقـدون الغـائب ويطلبونـه كمـا يفتقد البدر ويطلب عند اشتداد الظـلام وخاصـة إذا كـان الغـائب مـن المدافعين عن الأحساب الذائدين عن الحمى أمثال أبـي فـراس أى أن الإسـناد المجـازى قـد أفـاد المبالغـة فـى جدهـم لدرجـة أن اجتهـادهم قد جد.

وبالموازنة بين الإسنادين الحقيقى والمجازى يتبين لنا الايجاز الذى أفاده المجاز العقلى كما يتبيـن أن الإسـناد المجـازى قـد أعطانـا صورة جديدة لإسناد الفعل "جد" لم نقف عليها عند الإسناد الحقيقى[١].

ومن ذلك قول أبى تمام:

تكاد عطاياه تجن جنونها إذا لم يعوذها برقية طالب[٢]

فالشاعر يصف ممدوحه بالكرم وأنه عود عطاياه أن يدفع بها إلى طالب المعروف حتى إذا ونى قليلا ثارت ثائرتهـا وكـاد يصيبهـا الجنون ما لم يسرع إلى البذل. وقد أسند الفعل "تجـن" إلـى المصـدر "جنون" إسنادا مجازيا مبالغة فى وصفها بالجنون والثورة.

وتأمل قوله -تعالى-: "وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ

١- راجع: من أسرار التركيب البلاغى ٣٤.

٢- يعوذها: يحصنها. الرقية: التعويذة.

بالله إنه سميع عليم"[١] تجد النزغ قد جعل نازغا للمبالغة في نزغ الشيطان بوسوسته التي تودي بالإنسان وتهلكه والآية الكريمة تجعلها كأنها غرز شيء في شيء للدلالة على قوة الوسوسة وتأثيرها في نفس الإنسان ولقد صدق الرسول -ﷺ- حيث يقول: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق ... على أن هذا ينطوي على تشبيه من يتبع الشيطان بالدابة التي تنقاد لمن يقودها بالعصا ولكن عصا الشيطان خفية مستورة محاطة بالأهواء والشهوات التي يزينها اللعين[٢].

ومما سبق يتبين لنا أن إسناد الفعل أو ما في معناه إلى مصدره يصور المصدر بصورة الفاعل وفي ذلك مبالغة وإيجاز وإثراء للتراكيب الأدبية مما يضفي على هذه العلاقة قيمة بلاغية.

٤- **الزمانية**: وتتحقق بإسناد المبني للفاعل إلى الزمان وإنما سميت بذلك لأننا نأتي بزمن الفعل ونجعله فاعلا ومن المعلوم أن الزمن يتعلق بالفعل لكون الزمن ظرفا لوقوع الفعل فيه وذلك كقولنا: "نهاره صائم وليله قائم" فالليل لا يقوم والنهار لا يصوم

---

[١]- سورة الأعراف ٢٠٠.

[٢]- المجاز العقلي ومواقعه في القرآن الكريم رسالة ماجستير للباحث/ عبد العزيز نجم /٢٩٤ مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م. وراجع: تفسير الكشاف ٢/١٩٠، وتفسير أبي السعود ٢/٣٣٦.

وقد أسند إليهما اسما الفاعل "قائم وصائم" لأنهما زمانان للقيام والصيام ويفيد هذا التجوز المبالغة فى تمام الصيام وكمال القيام بوضوح أهدافهما فى سلوك المسلم الصائم القائم. ومن ذلك قول الشاعر:

أهلكنا الليل والنهار معا والدهر يغدو مصمما جذعا

فالفعل "أهلك" مسند إلى الزمان وهو: "الليل والنهار" وكان حقه أن يسند إلى الله -عز وجل- والتركيب الحقيقى: أهلكنا الله فى الليل والنهار. والفعل "يغدو" مسند إلى ضمير "الدهر" وهو زمان لوقوع الفعل وكان حقه أن يسند إلى الإنسان لأنه هو الذى يغدو والأصل: يغدو الإنسان فى دهره.

ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

حيث أسند الفعل "تبدى" إلى زمانه "الأيام" على سبيل المجاز العقلى والأصل: سيبدى لك الله -عز وجل- فى الأيام. وتأمل قوله -تعالى-: "هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون"[١] تجد أن اسم الفاعل "مبصرا" قد أسند إلى ضمير النهار. والنهار لا يفعل الإبصار بل هو زمان يبصر

---

[١]- سورة يونس ٦٧.

الناس فيه.

وانظر إلى قوله -تعالى-: "فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا"[١] تجد أن الفعل "يجعل" قد أسند إلى ضمير اليوم. واليوم زمان يقع فيه الفعل وحقيقة الإسناد: يوما يجعل الله فيه الولدان شيبا فأسند الفعل إلى زمانه على سبيل المجاز العقلى وبالتأمل فى هذا النظم الجليل نجد:

١- المبالغة فى الحدث وهو إشابة الولدان فأسند "يجعل" إلى ضمير اليوم وهو زمن الشيب فبات وقوعها متحققا تحقق وقوع اليوم ذاته.

٢- الإيجاز وذلك بالقياس إلى لفظة الحقيقة التى يؤدى بها المعنى نفسه وهو: يوما تجعل أهواله وأحداثه الولدان شيبا.

٣- دقة المعنى وبراعة التصوير بما حقق تصور الأحداث والأهوال والوقائع الكائنة فى هذا اليوم حتى جعلته مشيبا لنواصى الولدان[٢]. ومما سبق يتبين لنا أن علاقة الزمانية فى الإسناد المجازى قد أصابت مقاصد وأغراضا مما يعطيها قيمة بلاغية جليلة.

---

[١]- سورة المزمل ١٢.

[٢]- المجاز والإعجاز رسالة الدكتوراه للباحث هاشم الديب ١٦٠. (مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة).

٥- **المكانية:** وتتحقق بإسناد المبنى للفاعل إلى المكان وإنما سميت بذلك لأن الحدث مسند إلى المكان كقولهم "جرى النهر وسار الطريق ونهر جار وطريق سائر" فقد أسند الفعل "جرى وسار" وما فى معناه "جار وسائر" إلى مكان وقوعه وهو ضمير الطريق وضمير النهر والسائرهم الناس والذى يجرى هو الماء. والطريق مكان للسير والنهر مكان لجرى الماء وحقيقة الإسناد فى هذه الأمثلة جرى الماء فى النهر وسائر الناس فى الطريق وطريق سائر أهله فيه ونهر جار ماؤه فيه وقد أفاد الإسناد المجازى المبالغة فى قوة إندفاع الماء وشدة فيضانه وكثرة ازدحام الناس فى الطريق حتى ليخيل للسامع أن النهر هو الذى يجرى وأن الطريق هو الذى يمضى.

وبهذا يكون الإسناد المجازى قد أدى مبالغة وتصويرا لا يوجدان فى الإسناد الحقيقى حيث صور الجماد شخصا يتحرك كالأحياء. ومن ذلك قول الشاعر:

ملكنا فكان العفو منا سجية　　　فلما ملكتم سال بالدم أبطح[1]

فهو يفخر بأن قومه لما قدروا عفوا وصفحوا بينما المخاطبون عندما قدروا أسرفوا فى سفك الدماء حتى سالت بالأبطح وقد أسند الشاعر "سال" إلى "الأبطح مبالغة فى كثرة الدماء التى

---

[1]- الأبطح: سهل فسيح الأرجاء فيه دقائق الحصى.

أريقت من جراء الحكم الظالم وأصل الإسناد: سالت الدماء بـالأبطح. وتأمل قوله -تعالى-: "وعد الله المؤمنيـن والمؤمنـات جنـات تجـرى من تحتها الأنهار خالدين فيها"[1] تجد أن "الأنهار" وهـى اسـم للأمكنـة والوديان التى تجرى فيها الميـاه قـد أسـند إليهـا الجريـان علـى سـبيل المجاز العقلى لعلاقة المكانية وتكمن بلاغـة هـذا الإسـناد فـى -ولله العلم- بمراده أن الميـاه لكثرة فيضانهـا وشـدة جريانهـا تـرى وكـأن محلها هو الذى يجـرى وكـأن الجـرى قـد تجـاوز المـاء إلـى مكانـه. وعندما نقرأ الآيات الكريمة التى تحدثت عن الجنة وما أعد فيها مـن نعيم نجد أن الجرى فيها قد أسند إلى الأنهار لا إلى المياه لهـذا السـر البلاغى.

وانظر إلى قوله -تعالى-: "أولم نمكن لهم حرمـا آمنـا"[2] تجـد أن اسم الفاعل "آمنا" قد أسند إلى الضمير العائد إلى الحـرم. والحـرم مكان للأمن والأصل: حرما آمنا أهله فأسند الأمن إلى الحرم مبالغـة فى كمال نعمة الأمن التى تفضل الله -عز وجـل- بهـا علـى مكـان حرمه.

وتـأمل قولـه -تعـالى-: "وأخرجـت الأرض أثقالهـا"[3] تجـد أن

---

[1]- سورة التوبة ٧٢.

[2]- سورة القصص ٥٧.

[3]- سورة الزلزلة ٢.

الإخراج قد أسند إلى الأرض وهى مكان للأثقال والأصل: وأخرج الله منها أثقالها ويفيد هذا التجوز فى الإسناد -ولله العلم- التهويل والتفظع من شأن ذلك اليوم وشدة قذف الأرض وإلقائها ما بداخلها من أثقال وكأنها هى التى تخرج وتقذف تلك الأثقال وفى هذا مبالغة فى الحدث وبالموازنة بين الإسناد الحقيقى والإسناد المجاز يتضح الإيجاز فى الإسناد المجازى وقد اجتمعت العلاقتان "المكانية والزمانية فى قول الشاعر:

يغنى كما صدحت أيكة وقد نبه الصبح أطيارها[١]

فقد أسند "صدحت" إلى "أيكة" وهى مكان كما أسند "نبه" إلى "الصبح" وهو زمان على سبيل المجاز العقلى لعلاقتى المكانية والزمانية وحقيقة الإسنادين: يغنى كما صدحت الأطيار فى أيكة وقد نبه الله -عز وجل- فى الصبح أطيارها.

فمما سبق يتضح أن الإسناد إلى المكان قد أدى مبالغة وتصويرا لا يوجدان فى الإسناد الحقيقى حيث صور الجماد شخصا يتحرك كالأحياء كما حقق المبالغة فى الحدث والإيجاز مما يعطى لتلك العلاقة قيمة بلاغية.

١- يغنى: غنى: طرب أو ترنم بالكلام أو أصدر من فمه أصواتا موسيقية. صدح: غرد أو رفع صوته بالغناء. الأيكة: الشجر الكثيف الملتف.

٦- **السببية**: وتتحقق بإسناد المبنى للفاعل إلى السبب وسميت بذلك لأن الحدث مسند إلى السبب أى يؤتى بسبب، الفعل ويجعل فاعلا له بتحول الإسناد إليه من الفاعل الحقيقى -كقولنا: "محبتك جاءت بى وسرتنى رؤيتك" فنسند المجىء إلى المحبة وهى سببه والسرور إلى الرؤية وهى سببه أيضا مبالغة فى قوة المحبة وكثرة السرور الناجم عن الرؤية. وكقولهم: "بنى الأمير المدينة" وحقيقته: بنى العمال المدينة بأمر الأمير فإسناد "البناء إلى "الأمير" مجاز عقلى علاقته السببية لأن الأمير سبب آمر للبناء وهو ينبىء بمدى عناية الأمير واهتمامه بشأن المدينة حتى كأنه فاعل البناء وكقول المتنبى:

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

يريد أن يقول: إن الهم والحزن يجعل الجسيم نحيفا ويشيب رأس الصبى ويصيبه بالهرم فأسند الأفعال: "يخترم ويشيب ويهرم" إلى ضمير "الهم" على سبيل المجاز العقلى والذى سوغ هذا الإسناد: كون الهم سببا مؤثرا فى الهلاك والشيب والهرم فالعلاقة السببية وحقيقة التركيب: والله يخترم الجسيم ويشيب ناصية الصبى ويهرمه بسبب الهموم. وكقول الشاعر:

ويمشى به العكاز فى الدير تائبا وقد كان يأبى مشى أشقر أجردا

فالفعل "يمشى" مبنى للفاعل وهو صاحب العكاز الذى صدر منه المشى لكنه أسند إلى "العكاز" لأنه سبب يساعد على المشى وأصل التركيب: ويمشى الرجل بواسطة العكاز والذى سوغ هذا الإسناد المجازى علاقة السببية أى مضاهاة الفاعل المجازى وهو "العكاز" بالفاعل الحقيقى وهو "الرجل" فى التعلق بالفعل فالعكاز يتعلق به لأنه سبب مساعد لحدوثه والرجل يرتبط بالفعل لصدوره منه وقيامه به. ومن هنا يتنوع السبب إلى: سبب آمر وسبب مؤثر وسبب مساعد. وتأمل الآيات "فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى"[١] "إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم"[٢] "فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا"[٣] "وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب"[٤] ".... تجد أن الأفعال بها قد أسندت إلى أسبابها فقد أسند الإخراج إلى إبليس وهو سببه وأسند "يذبح" ويستحيى" إلى "فرعون" وهو الآمر بهما وليس فاعلهما الحقيقى وأسند البناء والإيقاد إلى هامان وهما يفعلان بسببه وتلاحظ أن المسند فى الآية الأولى والثالثة والرابعة من هذه الآيات المباركة هو النهى أو فعل الأمر:

١- سورة طه ١١٧.

٢- سورة القصص ٤.

٣- سورة القصص ٣٨.

٤- سورة غافر ٣٦.

لا يخرجن. ابن. أوقد. اجعل وبهذا يتضح أن المجاز العقلى كما يقع فى الخبر يقع فى الإنشاء.

وانظر إلى قوله -عز وجل- "وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا"[١] تجد أن الفعل "زاد" قد أسند إلى ضمير الآيات على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية فالآيات سبب الزيادة والحقيقة -ولله العلم- زاد الله إيمانا بسبب الآيات لأن الزيادة فعل الله -عز وجل- على الحقيقة. وقوله -تعالى-: "وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"[٢] فقد أسند "تنفع" إلى "ضمير الذكرى" على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية والحقيقة -والله أعلم- فإن الذكرى ينفع الله بسببها المؤمنين. وقد اجتمعت العلاقتان: السببية والزمانية فى مثل قولهم: "أنبت الربيع البقل" فقد أسند "أنبت" إلى "الربيع" لأنه سبب أو زمان له فيكون مجازا عقليا لعلاقة السببية أو الزمانية.

وتكاد تلك العلاقة تستقطب الجزء الأكبر من صور المجاز العقلى لأن الفعل أو ما فى معناه كثيرا ما نرى له أسبابا متعددة يصح أن يسند الفعل إلى واحد منها على سبيل المبالغة بالمجاز وليس الأمر بهذا الشيوع فى العلاقات الأخرى التى غالبا ما يكون السبب فيها شيئا واحدا لا تعدد فيه.

---

[١]- سورة الأنفال: ٢.

[٢]- سورة الذاريات ٥٥.

وبعد: فهذه هى العلاقات الست التى ذكرها الخطيب القزوينى (م.ت ٧٣٩هـ) -رحمه الله- وقد تبعه كثير من الدارسين بعده إلا أننا نستطيع أن نستنبط من كلام الإمام عبد القاهر الجرجانى (م.ت ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) -رحمه الله- علاقة سابعة للمجاز العقلى وهى:

٧- **الإخبار بالمصدر أو الوصف به:** فالإسناد واقع بين المبتدأ والخبر وبين الصفة والموصوف وذلك كقول الخنساء فى بقرة وحشية فقدت ولدها وأدنوا إليها "بوا" فحنت:

ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت   فإنما هى إقبال وإدبار[١]

وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت فى نفس الكلمة وإنما تجوزت فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها وأنه لم يكن لها حال غيرهما كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار. ويمنع الإمام عبد القاهر -رحمه الله- أن يكون الكلام هنا على تقدير مضاف فيقول: وأعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله -عز وجل- "واسأل القرية"[٢]....

١- ترتع: أكلت ما شاءت وجاءت وذهبت فى المرعى. مارتعت" ما أقامت. وفى اللسان: ترتع ما غفلت ... إلخ (اللسان مادة: قبل).

٢- سورة يوسف ٨٢.

وليس الأمر كذلك فى بيت الخنساء لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا: فأنما هى ذات إقبال وإدبار "أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شىء مغسول وإلى كلام مرذول[1] فهذا تحليل دقيق من الإمام عبد القاهر -رحمه الله- لبيان المجاز العقلى فى البيت وإبراز ما يفيده من المبالغة وأن الناقة كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار وأنت إذا رمت تقدير مضاف لتبين الإسناد الحقيقى فقلت: "فإنما هى ذات إقبال وإدبار" ضاعت هذه المبالغة وفقدت حلاوة الشعر كما تضيع أيضا وتفقد إذا أولت المصدر باسم الفاعل فقلت: فإنما هى مقبلة ومدبرة.

ويقول السيد الشريف "الإقبال وإن كان صفة للناقة قائمة بها لكنه غير محمول عليها مواطأة فإذا قيل: أقبلت الناقة كان الإسناد حقيقة وإذا قيل: هى إقبال كان مجازا لأن الإقبال بطريق الحمل إنما هو لأفراده فإذا حمل عليها فقد حمل على غير ما هو محمول عليه حقيقة[2] ومن ذلك أيضا قولنا: "جاء رجل عدل" وإنما كان الإخبار بالمصدر أو الوصف به مجازا عقليا لأن قولنا: "جاء رجل عادل" حقيقة ولكن "جاء رجل عدل" مجاز لأن "عدل" بطريق الحمل إنما هو لأفراده فإذا حمل على الرجل فقط حمل على غيرما هو محمول

١- دلائل الإعجاز ٣٠٠-٣٠٢.

٢- حاشية السيد الشريف على المطول ٥٦.

عليه فكان مجازا.

وبعد: فعندما نخبر بالمصدر أو نصف به إنما نقصد إلى هذا التجسيم الذى ذكره الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- فكأن الناقة إقبال وإدبار بحيث إذا نظرنا إليها مقبلة مدبرة خيل إلينا أنها الإقبال والإدبار أنفسهما لكثرة ما تقبل وتدبر وعندما نقول: "هذا رجل عدل" إنما نقصد أنه اتصف بكل أنواع العدل مبالغة حتى كأنه العدل نفسه لكثرة ما يعدل. ففى هذه التراكيب مبالغات عديدة يستشفها البليغ كلما دقق النظر إليها[١].

ومن العلاقات التى ذكرها الزمخشرى (م.ت ٥٣٨هـ) -رحمه الله-:

٨- **إسناد الفعل إلى الجنس كله**: وهو فى الحقيقة مسند إلى بعضه أو واحد منه كما فى قولهم: "بنو فلان قتلوا فلانا" وإنما القاتل رجل منهم وكما فى قوله -تعالى- "فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم"[٢] فقد أسند العقر إلى جميعهم وهو لبعضهم كما جاء فى آية أخرى "فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر"[٣] وإسناد الفعل إلى الجميع وهو للبعض ينبىء بأنه قد تم بعلمهم ووقع برضاهم وقد

١- المجاز العقلى ومواقعه فى القرآن ٢٤٢.

٢- سورة الأعراف ٧٧.

٣- سورة القمر ٢٩.

يقال للقبيلة الضخمة أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم[١].

٩- **إسناد الفعل إلى ماله اختصاص وقربى بالفاعل الحقيقى:** كما فى قوله -تعالى-: "إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين"[٢] فقد أسندت الملائكة التقدير إلى أنفسهم والمقدر هو الله -عز وجل- وحده وذلك لأن لهم مزيد اختصاص وقربى من الله -تعالى- وكما فى قول خاصة الملك: "دبرنا كذا وأمرنا بكذا" والمدبر والآمر هو الملك لا هم وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه[٣].

١٠- **إسناد الفعل إلى الجارحة التى هى آلته:** وإنما سميت بذلك لأننا نتحول بآلة الفعل إلى مرتبة الفاعلية كقولهم: أبصرته عينى وسمعته أذنى وعرفه قلبى وقاله لسانى ومن ذلك قوله -تعالى-: "ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه"[٤] فقد أسند اسم الفاعل "آثم" إلى القلب وإنما الآثم هو الشخص وذلك لأن كتمان الشهادة أن يضمرها الشخص ولا يتكلم بها فلما كان إثما مقترنا بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى

١- راجع: تفسير الكشاف ١٢٣/١.

٢- سورة الحجر ٦٠.

٣- تفسير الكشاف ٥٨٢/٢،٥٨٣.

٤- سورة البقرة ٢٨٣.

يعمل بها أبلغ ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عينى ومما سمعته أذنى ومما عرفه قلبى ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه واللسان ترجمان عنه ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهى لها كالأصول التى تتشعب منها. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر وهما من أفعال القلوب فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب وعن ابن عباس رضى الله عنهما "أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله -تعالى-: "فقد حرم الله عليه الجنة"[1] وشهادة الزور وكتمان الشهادة[2].

وتسمية هذه العلاقة الآلية "تسمية وجيهة لأن من الإسناد فى هذا النوع ما لا يحمل الجارحة بحال مثل: قطع السكين وقتل السيف فهذا من الإسناد إلى الآلة ولا يمكن تسمية السكين أو السيف جارحة والشواهد الشعرية وهى كثيرة – تؤيد هذه الاتسمية فمنها قول

---

[1]- سورة المائدة ٧٢.

[2]- تفسير الكشاف ٣٣٠،٣٢٩/١.

دريد بن الصمة:

فجئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصى فى النسيج الممدد[1]

فإسناد "تنوش" إلى "الرماح" مجاز عقلى بعلاقة الآلية لأن الرماح آلته ولا يمكن اعتبار ذلك من الإسناد إلى الجارحة. ومما يؤيد هذا الرأى قول الشيخ الطاهر بن عاشور: "ومعنى: خائنة الأعين"[2] خيانة النظر أى: مسارقة النظر لشىء بحضرة من لا يحب النظر إليه فإضافة "خائنة" إلى "الأعين" من إضافة الشىء إلى آلته كقولهم: "ضرب السيف"[3].

ولعل الذى حمل الزمخشرى -رحمه الله- على هذه التسمية هو: أن الوارد فى القرآن الكريم من نوع الإسناد إلى الجارحة كالعين والقلب واليد ... إلخ[4].

وبعد: فقد اجتمع لدينا من العلاقات عشر: ست ذكرها الخطيب القزوينى -رحمه الله- ومن تبعه وواحدة استنبطناها من

---

[1]- الرماح: مفردها رمح وهو: قناة فى رأسها سنان يطعن به. تنوشه: تتناوله. وقع: تأثير. الصياصى: الصيصة هى شوكة الحائك التى يسوى بها الخيوط الممتدة طولا والخيوط الممتدة عرضا (لسان العرب مادة: صيصة).

[2]- سورة غافر ١٩.

[3]- تفسير التحرير والتنوير ١١٦/٢٤.

[4]- المجاز العقلى ومواقعه فى القرآن ١٤.

كلام الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- وثلاث ذكرها الزمخشرى -رحمه الله-.

وعندما نرجع إلى تعريف الخطيب القزوينى للمجاز العقلى نجد أنه قد قصره على إسناد الفعل وما فى معناه كما بينا وقد ضاق هذا التعريف عن صور كثيرة من صور التجوز فى الإسناد منها:

١- **النسبة الإضافية**: أى فيما بين المضاف والمضاف إليه بمعنى أن الشيء يضاف إلى ما ليس حقه أن يضاف إليه لعلاقة مع قرينة تمنع أن تكون الإضافة على حقيقتها كما فى قوله -تعالى-: "وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها"[١] والتقدير: وإن خفتم شقاق الزوجين فى الحالة التى بينهما فقد أضيف الشقاق إلى الظرف "بين" على سبيل المجاز العقلى لعلاقة المكانية وكان حقه أن يضاف إلى الزوجين كما فى التقدير.

ومثله قوله -عز وجل-: "وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكروا الليل والنهار"[٢] والتقدير: بل مكركم فى الليل والنهار فقد أضيف المكر إلى الليل والنهار وهما زمان له وكان حقه أن يضاف إلى الناس كما فى التقدير.

١- سورة النساء ٣٥.

٢- سورة سبأ ٣٣.

ومنه قول المؤمن -والمخاطب يفهم من ظاهر حاله ذلك-: "أعجبني إنبات الربيع البقل" فقد أضيف الإنبات إلى الربيع من إضافة المصدر إلى فاعله المجازى وليس هذا على سبيل الحقيقة لأنه من إضافة الشيء إلى زمانه فالعلاقة زمانية والإسناد الحقيقي هو: أعجبني انبات الله البقل في الربيع.

أما إذا كان القائل لمثل ذلك جاهلا فلا يحمل كلامه على المجاز بل على الحقيقة. ويلاحظ أن النسب الإضافية ليس بينها مثل ما بين الفعل والفاعل من نسبة تامة وذلك لأن المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد.

٢- **النسبة الإيقاعية**: أي بين الفعل المتعدى ومفعوله بمعنى أن الفعل يقع على غير ما حقه أن يقع عليه لعلاقة مع قرينة أيضا تمنع أن يكون إيقاع الفعل على مفعوله حقيقة وسميت "نسبة إيقاعية" لأن الفعل المتعدى واقع على مفعوله المجازى أى أنه ينصب غير مفعوله الحقيقي انظر إلى قوله -تعالى-: "ولا تطيعوا أمر المسرفين"[1] تجد أن الفعل "تطيعوا" قد وقع على المفعول "أمر" وليس ذلك على سبيل الحقيقة العقلية بل على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية لأن الإطاعة لا تقع على الأمر وإنما تقع على صاحبه والأصل: ولا تطيعوا المسرفين

---

[1]- سورة الشعراء ١٥١.

بسبب أمرهم. وتأمل قولــه -تعـالى-: "وفجرنـا الأرض عيونـا"[١] تجد أن الفعل "فجـر" قـد وقـع علـى "الأرض" وهـو فـى الأصـل "للعيـون" إذ المعنـى: وفجرنـا عيـون الأرض فهـو مجـاز عقلـى علاقته المكانية وقد أفاد هـذا المجـاز المبالغـة فـى فـوران المـاء واندفاعه وكأن الأرض قد صـارت كلهـا عيونـا. فكمـا أن إسـناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليـه مجـاز فكذلـك إيقاعـه علـى غير ما حقه أن يوقع عليه مجاز أيضا.

٣- **النسبة الوصفيـة**: وذلـك بـأن يوصـف الشـىء بوصـف صاحبـه كقولنا: الكتاب الحكيـم والأسـلوب الحكيـم وضـلال بعيـد ورجـل عدل فالحكمة فى الحقيقة ليست وصفا للكتاب ولا للأسلوب وإنما هى وصف لصاحبهما وكذا البعـد ليـس وصفـا للضـلال بـل هـو وصف للضال والعدل ليس وصفا لـلرجل وإنمـا وصـف لأقوالـه وأفعاله فالأصل أن يقال: رجل ذو عدل كما يقال: رجل ذو رأى ورجل ذو خلق .. فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز فكذا وصف الشىء بغير ما حقه أن يوصف به.

٤- **الإسناد بين المبتدأ والخبر**: كما فى قوله -تعالى-: "ولكن البر من اتقى"[٢] والأصل -والله العلم- ولكن ذا البر من اتقى أو لكن

١- سورة القمر ١٢.

٢- سورة البقرة ١٨٩.

البر بر من اتقى فقد أسند "من اتقى" إلى "البر" إسنادا مجازيا لعلاقة الفاعلية أو المفعولية لأن "من اتقى" فاعل "والبر" مفعول له. ومن ذلك قول الخنساء السابق:

ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت   فإنما هى إقبال وإدبار

وقد رأينا تحليل الإمام عبد القاهر الجرجانى الدقيق لبيان المجاز العقلى فى هذا البيت وإبراز ما يفيده من المبالغة فى سرعة الناقة حين تقبل وتدبر حتى كأنها لسرعتها يخيل للرائى أنها نفس الإقبال والإدبار[١].

فإسناد "إقبال وإدبار" -وهما مصدران- إلى الناقة إسناد مجازى لاستحالة أن يحمل كل منهما على الناقة حملا حقيقيا لأنهما حركتان ولا يصح أن يخبر عن الناقة بأنها حركة على سبيل الحقيقة بل على سبيل التجوز للمبالغة فى وصفها بالسرعة وللتخييل بأنها نفس الحركة.

ولما كان تعريف الخطيب القزوينى للمجاز العقلى لا يتسع لمثل هذه النسب فإننا نفضل عليه تعريف الإمام عبد القاهر له إذ عرفه بقوله: "كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من

١- راجع ص٢٥٣-٢٥٥ من هذا الكتاب.

العقل لضرب من التأول"[١] وسبب ترجيحنا لتعريف الإمام عبد القاهر أنه لم يحدد الإسناد بالفعل وما فى معناه كما فعل الخطيب ولم يحدد أنواع العلاقات التى تسوغ الإسناد فاتسع المجاز العقلى عنده لكل إسناد ولكل ملابسه.

"قرينة المجاز العقلى"

لابد للمجاز سواء أكان مجازا عقليا أم مجازا لغويا من وجود قرينة دالة تبين المجاز وتوضح عدم إرادة المعنى الأصلى فى المجاز اللغوى وعدم إرادة الإسناد الحقيقى فى المجاز العقلى.

فالقرينة فى المجاز العقلى هى: الأمر الذى يصرف الإسناد عن ظاهره أى الدليل الذى يبين ويوضح أن المسند قد أسند إلى غير ما حقه أن يسند إليه وأن المتكلم قد تجوز فى بناء الكلام وتأليف العبارة.

وهذه القرينة نوعان:

١- **لفظية** وهى: أن يذكر فى الكلام لفظ يصرف الإسناد عن ظاهره ويكون دليلا على أن المتكلم أراد التجوز كقول أبى النجم:

قد أصبحت أم الخيار تدعى ... على ذنبا كله لم أصنع

١- أسرار البلاغة ٣٨٥.

من أن رأت رأسى كرأس الأصلع   ميز عنه قنزعا عن قنـــزع
جذب الليالى أبطئى أو أسرعى
أفناه قيل الله للشمـــــس اطلعى   حتى إذا واراك أفق فارجعى[١]

فقد أسند الفعل "ميز" إلى "جـذب الليـالى" علـى سـبيل المجـاز العقلى لعلاقة الزمانية أو السببية ثم أقام قرينة لفظية على ذلك وهـى قوله "أفناه قيل الله" وهذه القرينـة توضـح عقيـدة الشـاعر وتبيـن أنـه مؤمن حيث أسند إفناء شعر الـرأس إلـى اللـه -عـز وجـل- ومـا دام كذلك فانه يكون قـد تجـوز فـى كلامـه الأول وهـو إسـناد "مـيز" إلـى "جذب الليالى".

وكأن الشاعر يريد أن يقول: إن امرأته أصبحت تدعـى عليـه

١- الأصلع: الذى سقط شعر مقدم رأسه أو وسطه. ميز: أزال. القنزع: الشـعر المجتمع فى نواحى الرأس والضمير فى "عنـه" راجـع إلـى الـرأس و "عـن" بمعنى: بعد وجذب الليالى: مضيهـا واختلافهـا وتعاقبهـا وجملتـا "أبطئـى أو أسرعى" حـالان مـن الليـالى علـى تقديـر القـول قبلهمـا أى مقـولا فـى شـأن الليـالى أبطئـى أو أسـرعى أى لا يبـالى الشـاعر ببطئهـا أو سـرعتها حيـث تقدمت به السن وليس له أمل فى الحياة سواء أبطأت أم أسرعت. أفنـاه: أى أبا النجم أو شعر رأسه. قيل الله: أمـره وإرادتـه. واراك: أخفـاك وسـترك. أفق: خط دائرى يـرى فيـه المشـاهد السـماء كأنهـا ملتقيـة بـالأرض (راجـع الأسرار ٣٨٩).

ذنوبا كثيرة لم يفعلها والسبب فى هذا الادعاء أن شعره ذهب خصلة بعد خصلة حتى صار رأسه يشبه رأس الأصلع وذلك بتأثير مرور الليالى وتعاقب الأيام بقدرته -عز وجل-. ومن ذلك قولنا: "هزتنى الأيام وشيبنى الدهر والله وحده المستعان" فالجملة الأخيرة "والله وحده المستعان" قرينة لفظية تدل على أن إسناد "هز" إلى "الأيام" و"شيب" إلى "الدهر" مجاز عقلى وليس إسنادا حقيقيا ومثل قول القائل: أنبت الربيع البقل وأنضر الزرع وسبحان الله خالق الكون ومبدعه ومصوره" فلفظ وسبحان الله ..... إلخ "قرينة لفظية تدل على أن إسناد "أنبت" و "أنضر" إلى الربيع إسناد مجازى لأن من يعتقد أن الله -عز وجل- هو الخالق المبدع المصور للكون لا يعتقد أن الربيع ينبت أو ينضر بل هو زمان لذلك والله -عز وجل- هو المحدث للإنبات والإنضار على سبيل الحقيقة.

٢- **معنوية وهى: أمر غير لفظى يصرف الكلام عن حقيقته ويدل على التجوز فى الإسناد وذلك أحد أمرين:**

الأول: أن يكون قيام[١] المسند بالمسند إليه مستحيلا عقلا[٢]

١- التعبير بقيام المسند بالمسند إليه ليعم صدوره منه نحو كتب وجلس وضرب أو وصف المسند إليه بالمسند نحو مرض وصح وقرب وبعد.

٢- المراد بالمستحيل عقلا ما كان مستحيلا بالضرورة وهو ما لو خلى العقل ونفسه لعد محالا على البديهة.

أو عادة فالمستحيل عقلا نحو قولهم: "محبتك جاءت بى إليك" فإسناد المجيء إلى ضمير "المحبة" مجاز عقلى أسند فيه الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه والذى سوغ هذا الإسناد أن المحبة سبب فى المجيء وقرينة المجاز: استحالة قيام المجيء بالمحبة عقلا لأن العقل لو خلى ونفسه لعده محالا على البديهة. ومثله قول عوف بن الأحوص:

فلا تسألينى واسألى عن خليقتى   إذا ردعا فى القدر من يستعيرها[1]

فإسناد "رد" إلى "عافى القدر" مجاز عقلى أسند فيه الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه والذى سوغ هذا الإسناد أن "عافى القدر" سبب فى الرد وقرينة المجاز استحالة صدور الرد من عافى القدر عقلا.

والمستحيل عادة نحو قولك: "فتح عمرو بن العاص مصر" فإسناد "فتح مصر" إلى عمرو بن العاص" مجاز عقلى أسند فيه الفعل "فتح" إلى غير ما حقه أن يسند إليه والذى سوغ هذا الإسناد أن "عمرو بن العاص" سبب فى "الفتح" وقرينة المجاز: استحالة أن يفتح عمرو بن العاص مصر وحده فى العادة أما العقل فإنه لا يمنع لجواز صدور مثل هذا الفعل من المسند إليه لدخوله تحت الإمكان العقلى وتأمل قوله -تعالى-: "إن فرعون علا فى الأرض وجعل

---

[1]- عافى القدر: ما بقى فيها من المرق.

أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم"[١]
تجد أن إسناد الفعل "يذبح" إلى "فرعون" مجاز عقلى لعلاقة السببية إذ فرعون لم يفعل التذبيح بل أمر به وفعله جنوده بأمره فهو سبب لوقوع الفعل وليس فاعلا حقيقيا والقرينة هنا معنوية وهى: استحالة صدور الفعل من "فرعون" عادة وإن أمكن ذلك عقلا.

الثانى: أن يكون الكلام صادرا عن الموحد كأن يقول المؤمن:

"قوست ظهرت أحداث الزمان وأشابت رأسى نوائبه" فهذان الإسنادان من قبيل المجاز العقلى أسند فيهما الفعلان إلى غير ما حقهما أن يسندا إليه بناء على أن "أحداث الزمان ونوائبه" سبب فى "التقويس والإشابة" وقرينة التجوز فيهما: صدور هذا القول من مؤمن يعتقد أن الله -عز وجل- مصدر الأفعال كلها. وكقول الواعظ: حطمتنا الأيام وأضعفتنا السنون فقد أسند الفعل إلى زمانه أو سببه فالعلاقة الزمانية أو السببية والقرينة حالية أى أن حال المتكلم - وهى كونه واعظا دلت على أنه لا يسند الأفعال المذكورة إسنادا حقيقيا لأنه لا يعتقد ذلك فكيف يكون داعية إلى الله -عز وجل- إذا اعتقد أن الإسناد حقيقى؟ والقرينة المعنوية هى الشائعة فى

١- سورة القصص ٤.

القرآن الكريم[١].

وقد أرسى الإمام عبد القاهر الجرجانى قاعدة القرينة بنوعيها حيث يقول: "وأعلم أنه لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين: فإما أن يكون الشيء الذى أثبت له الفعل مما لا يدعى أحد من المحقين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير فى وجود المعنى الذى أثبت له وذلك نحو قول الرجل: محبتك جاءت بى إليك وكقول عمرو بن العاص فى ذكر الكلمات التى استحسنها: هن مخرجاتى من الشام فهذا مالا يشتبه على أحد أنه مجاز وإما أن يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لايثبت الفعل إلا للقادر وأنه ممن يعتقد الاعتقادات الفاسدة[٢] فهذا الذى ذكره نص فى القرينة المعنوية حيث ذكر استحالة قيام المسند بالمسند إليه عقلا أو نظرا لاعتقاد المتكلم ثم ذكر بعد ذلك أنه قد يتبين اعتقاد المتكلم من كلامه السابق أو اللاحق فيكون ذلك من القرينة اللفظية[٣]. كما ذكر ما يستحيل عادة ومثل له بنحو: "ضرب الأمير الدرهم" و "بنى السور"[٤] وبهذا استوفى نوعى القرينة.

١- المجاز العقلى ومواقعه فى القرآن الكريم ٨.

٢- دلائل الإعجاز ٣٨٨،٣٨٩ وراجع الكامل للمبرد ٨٣/١.

٣- المصدر السابق ٣٨٩،٣٩٠.

٤- المرجع السابق ٣٨٨.

هذا: وإذا لم توجد قرينة تدل على أن الإسناد غير حقيقى كان الكلام حقيقة عقلية لأن المتبادر إلى الفهم عند إنعدام القرينة أن يكون الإسناد إلى ما هو له.

الفرق بين المجازين العقلى واللغوى

١- المجاز العقلى تجوز فى الإسناد أى فى النسبة بين المسند والمسند إليه فقولك: "أنبت الربيع" ليس التجوز فى "أنبت" ولا فى "الربيع" وإنما فى إسناد الإنبات إلى الربيع أى أنه عمل عقلى من صنع المتحدث ولا دخل للغة فيه.

أما المجاز اللغوى فهو تجوز فى الكلمة لا فى الإسناد فقولك "رأيت أسدا يتكلم" المجاز فى لفظ "الأسد" حيث نقل من الحيوان المفترس إلى الرجل الشجاع.

٢- المتصرف فى المجاز العقلى هو العقل إذ هو الذى يقيم الروابط والصلات بين أجزاء الكلام ولذا سمى مجازا عقليا أما المجاز اللغوى فمرجعه إلى واضع اللغة إذ هو الذى وضع مفرداتها وحدد معانى المفردات فكان التجوز فى تلك المفردات بنقلها من معنى إلى معنى تصرف لغوى فى نطاق ما حددته اللغة ووضحت معانيه ولذا سمى التجوز فى المفردات مجازا لغويا.

وقد اجتهد الإمام عبد القاهر الجرجانى[١] -رحمه الله- فى تأصيل الفرق بين المجازين وكانت نظراته معينا ثرا اغترف منه العلماء كالإمام فخر الدين الرازى[٢] (م.ت ٦٠٦هـ) والسكاكى[٣] (م.ت ٦٢٦هـ) والخطيب القزوينى[٤] (م.ت ٧٣٩هـ) وخالفهم فى ذلك العلامة يحيى بن حمزة العلوى[٥] (م.ت ٧٤٩هـ) وذهب إلى أن التجوز فى الإسناد مجاز لغوى كالتجوز فى المفردات لأن كليهما تجوز فى نطاق ما وضعته اللغة وحددته فواضع اللغة[٦] وضع تراكيبها كما وضع مفرداتها وكل واحد منهما -أى من المجازين- قد أفاد غير ما وضع له فى أصل تلك اللغة.

وقد ربط العلامة ابن السبكى القول فى كون هذا المجاز لغويا أو عقليا بالقول فى هذه القضية وعبارته:

الحقيقة والمجاز التركيبيان هل هما لغويان أم لا؟ وذلك مبنى على أن المركبات موضوعة أو لا إن قلنا بالأول فنعم وإلا فلا[٧].

١- أسرار البلاغة ٣٦٦ وما بعدها، ٤٠٨ وما بعدها.
٢- نهاية الإيجاز ١١٣-١٢٨.
٣- مفتاح العلوم ٣٩٢-٣٩٦.
٤- الإيضاح ٨٨/١،٨٩.
٥- الطراز ٧٤/١-٧٦.
٦- يقصد به أهلها الذين اصطلحو على تحديد معانيها إفرادا وتركيبا.
٧- خصائص التراكيب ٣٨ وراجع بغية الإيضاح ٥٩/١.

وكان الآمدى (م.ت ٣٧١هـ) يرى أن اللغة لا يقاس عليها وأنه يستحسن أن يقف الشعراء والأدباء عند الصور والتراكيب المألوفة فلا يتجاوزوها "والآمدى فى هذا يحرص على أن يحفظ عمود الشعر ويصون الف المجاز فى اللغة حتى لا يخرج عن الذوق المألوف وكان رجلا دقيق الحس بالغ التأثر جيد العبارة ولكننا لا نوافقه فى أنه ينبغى أن ننتهى فى هذا المجاز حيث انتهوا لأننا نريد للمواهب الصادقة فى فطرتها أن تضيف إلى تراث اللغة فى التراكيب والخلق والبناء ثورة صادقة تتسع بها آفاقها وترحب بها آمادها ....[1].

١- خصائص التراكيب ٨٢.

"أقسام المجاز العقلى باعتبار حقيقة طرفيه ومجازيتهما"

ينقسم المجاز العقلى بهذا الاعتبار إلى أربعة أقسام وهى:

١- أن يكون الطرفان حقيقتين لغويتين أى يكون كل من المسند والمسند إليه مستعملا فيما وضع له حسب اصطلاح التخاطب والتجوز إنما هو فى الإسناد فقط كقول رؤبة بن العجاج:

يا رب قد فرجت عنى غمى   قد كنت ذاهم وراعى نجم

فنام ليلى وتجلى همى

فقد أسند الفعل "نام" إلى "الليل" إسنادا مجازيا لعلاقة الزمانية والقرينة الصارفة عن أن يكون الإسناد على حقيقته هى: استحالة صدور النوم من الليل. وكل من "نام" و"ليلى" مستعمل فيما وضع له أى حقيقة لغوية والمجاز إنما هو فى الإسناد.

٢- أن يكون الطرفان مجازين لغويين فيكون فى الجملة ثلاثة مجازات مجازان لغويان فى كل من المسند والمسند إليه ومجاز عقلى فى الإسناد. كقولنا: "أحيا الناس مصابيح الهدى" وحقيقته اللغوية: هدى الناس العلماء فأحيا مستعار لهدى استعارة تصريحية تبعية والمصابيح مستعارة للعلماء استعارة تصريحية

أصلية وإسناد الإحياء للمصابيح مجاز عقلى علاقته السببية لأن العلماء سبب الهداية ... والله خالقها فى القلوب.

وقد مثل البلاغيون لهذا بقولهم: "أحيا الأرض شباب الزمان" فقد استعير الإحياء للإنبات واستعير شباب الزمان للربيع وفى إسناد "أحيا" إلى "شباب الزمان" مجاز عقلى علاقته الزمانية.

وفى اجتماع كل من المجاز اللغوى والعقلى طرافة ودقة مسلك وجمال فى التعبير.

٣- **أن يكون المسند إليه مجازا لغويا والمسند حقيقة لغوية كقولك:** "أنبت الزرع شباب الزمان" فالمسند "أنبت" مستعمل فيما وضع له استعمالا حقيقيا والمسند إليه "شباب الزمان" مجاز لغوى حيث استعير لزمن الربيع على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية. وإسناد الإنبات إلى "شباب الزمان" مجاز عقلى علاقته الزمانية.

٤- **أن يكون المسند إليه حقيقة لغوية والمسند مجازا لغويا كقولك:** "أحيا الأرض الربيع" فالمسند "أحيا" مجاز لغوى حيث استعير الإحياء للإنبات على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والمسند إليه "الربيع" مستعمل فيما وضع له.

هل لابد لكل مجاز عقلى من حقيقة عقلية؟

من المعلوم أن الفعل فى اسلوب المجاز العقلى يسند إلى غير فاعله الحقيقى ولهذا قال بعض البلاغيين: إن الإسناد إلى الفاعل المجازى متفرع عن الإسناد إلى الفاعل الحقيقى وعليه فيلزم لكل مجاز عقلى حقيقة عقلية. إلا أن إمكان العودة من أسلوب كل مجاز عقلى إلى حقيقته العقلية ليس محل اتفاق بين علماء البلاغة فقد ذهب الإمام عبد القاهر الجرجانى (م.ت ٤٧١ أو ٤٧٤هـ) -رحمه الله- إلى أنه ليس بواجب أن يكون لكل مجاز عقلى حقيقة عقلية ويرى أن بعض الصور يكتفى فيها بالمجاز العقلى وحده لأن أساليب المجاز العقلى منها ما يمكنك أن ترجع بالإسناد فيها إلى الفاعل الحقيقى نحو: نام ليلى وجرى النهر فتقول: نمت فى ليلى وجرى الماء فى النهر وهناك أساليب من المجاز العقلى لم يألفها الاستعمال الحقيقى ولم تجر على ألسنة القوم مسندة إلى ما حقها أن تستند إليه وإنما جرى عرف الاستعمال فيها على الاستخدام المجازى فقط نحو: أقدمنى بلدك حق لى على إنسان فالفعل "أقدمنى" مسند إلى "الحق" والحق ليس فاعلا وإنما هو داع فالعلاقة السببية ومثله قول الشاعر:

وصيرنى هواك وبى لحينى يضرب المثل

أى أن هواها صيره مثلا يضرب فى الهلاك بالمحبة فالفعل "صير" مسند إلى "هواك" إسنادا مجازيا علاقته السببية

ونحوه قول أبى نواس:

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

أى أن محاسن وجهه لا تتناهى فكلما تأملها بدت له آيات أحسن وإسناد "يزيد" إلى "وجهه" إسناد مجازى علاقته السببية. وهو أيضا لا ينكر أى مسند إليه يرتضيه العقل ويصح به الإسناد الحقيقى وإنما ينكر أن تكون هذه الاستعمالات متعارفة وجرى العرف على استخدامها[1].

واعترض الإمام فخر الدين الرازى (م.ت ٦٠٦هـ) -رحمه الله- على رأى الإمام عبد القاهر الجرجانى مبينا: أن كل فعل لابد من أن يكون له فاعل حقيقة لامتناع صدور الفعل لا عن فاعل فهذا الفاعل إن كان هو ما أسند إليه الفعل فلا مجاز وإلا فيمكن تقديره. ويرى أيضا أنه ليس فى قولك: أقدمنى بلدك حق لى عليك مجاز أصلا لأن الإقدام حاصل وغرضه ذلك الحق فإذن لا مجاز فى هذا الكلام اللهم إلا أن يقال: الداعى هو العلم بذلك الحق نفسه فيكون مجازا من هذا الوجه وأما قول الشاعر: "يزيدك وجهه حسنا ..." فالزيادة من الحسن لها فاعل حقيقى وهو الله -سبحانه و-تعالى-[2].

---

[1]- راجع دلائل الإعجاز ٢٩٦،٢٩٧.

[2]- نهاية الإيجاز ١٢١،١٢٣.

وذهب العلامة السكاكى (م.ت ٦٢٦هـ) -رحمه الله- إلى مثل ما ذهب إليه الإمام فخر ا لدين الرازى من أنه ليس هناك مجاز عقلى بدون حقيقة عقلية لامتناع تحقق فرع من غير أصل[1].

وأما الخطيب القزوينى (م.ت ٧٣٩هـ) -رحمه الله- فقد ذهب إلى أن الفعل وما فى معناه فى المجاز العقلى يجب أن يكون له فاعل أو مفعول به (نائب فاعل) إذا أسند إليه يكون الإسناد حقيقة إلا أن معرفة فاعله أو مفعوله الذى إذا أسند إليه يكون الإسناد حقيقة على ضربين:

الأول: معرفة ظاهرة تدرك بأدنى تأمل كما فى قوله -تعالى-: "فما ربحت تجارتهم"[2] أى فما ربحوا فى تجارتهم وكقولنا: سيل مفعم (بضم الميم وفتح العين) أى سيل مفعم واديه. والسبب فى ظهور الفاعل أو المفعول الحقيقى فى الجمل السابقة وما أشبهها أن الناس قد استعملوا تعبيرات حقيقية لهذه الجمل وتعارفوا عليها فقالوا مثلا: ربح التجار فى تجارتهم وواد مفعم بالسيل ولهذا كانت معرفة المسند إليه الحقيقى ظاهرة.

الثاني: معرفة خفيه لا تدرك إلا بعد تأمل ونظر كقولنا: "سرتنى رؤيتك" أى سرنى الله وقت أو عند رؤيتك ونحو قولنا:

١- مفتاح العلوم ٣٩٧،٣٩٨.

٢- سورة البقرة ١٦.

"محبتك جاءت بى إليك" أى جاءت بى نفسى إليك لمحبتك أى جئتك لمحبتك.

وإنما قيل إن الحكم فى هذين المثالين مجاز لأن الفعلين فيهما مسندان إلى السبب والسبب لا يكون فاعلا.

والسبب فى خفاء المسند إليه الحقيقى هنا: أن كثرة استعمال الإسناد المجازى وإهمال الإسناد الحقيقى لهذه الجمل وما ماثلها أخفى الفاعل الحقيقى حتى احتاج فى معرفته إلى تأمل وبعد نظر[1].

هذا: والذى قاله كل من الرازى والسكاكى والخطيب القزوينى صحيح وكل مجاز عقلى يمكن إرجاعه على نحو ما إلى صورة من الإسناد الحقيقى وما المانع فى مثل قولك: سرتنى رؤيتك أن يكون الفاعل الحقيقى هو الله -عز وجل-؟ فهو خالق السرور فى القلوب بيد أن التذوق السليم يوافق الإمام عبد القاهر الجرجانى فى قوله: لم يجر العرف بأن يقال: سرنى الله بسبب رؤيتك وزادنى الله حسنا بسبب وجهك ولكنه جرى باستعمال أسلوب المجاز العقلى وهو: سرتنى رؤيتك والاستعمال الحقيقى منها ليس مستحيلا ولكنه لم يجر العرف به فلا مانع من القول: إن بعض صور المجاز العقلى لا يجرى العرف باستعمال حقائقها اللغوية[2].

١- راجع الإيضاح ١/٩٦-٩٨.

٢- بحوث المطابقة ٢٠٧.

موقف السكاكى من المجاز العقلى:

قال الإمام السكاكى (م.ت ٦٢٦هـ) -رحمه الله- فى بيان المجاز العقلى بأنه هو: الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع كقولك: أنبت الربيع البقل وشفى الطبيب المريض وكسا الخليفة الكعبة .... ثم شرح هذا التعريف وتحدث عن وجوه استعمال المجاز العقلى وصوره (أقسامه) باعتبار طرفيه ثم قال: "هذا كله تقرير للكلام فى هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب من تقسيم المجاز إلى لغوى وعقلى وإلا فالذى عندى هو نظم هذا النوع فى سلك الاستعارة بالكناية بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى[١] بوساطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت وجعل نسبة الإنبات إليه[٢] قرينة للاستعارة[٣] .... ثم يقول: وإننى بناء على

١- وهو الله -تعالى- ولم يصرح به ليبتعد عن سوء الأدب فى تشبيه الربيع بالله -تعالى-.

٢- أى إلى الربيع.

٣- والاستعارة بالكناية عنده هى: أن تذكر المشبه وتريد المشبه به دالا على ذلك بالقرينة وهى أن تنسب إلى المشبه شيئا من لوازم المشبه به المساوية مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفردها بالذكر وتنسب إليها شيئا من لوازم السبع فتقول: مخالب المنية نشبت بفلان" (مفتاح العلوم ٣٧٨،٣٧٩) وهذا يجرى فى جميع الأمثلة السابقة للمجاز العقلى فمثال: "شفى الطبيب المريض" يكون المراد بالطبيب هنا -بناء على مذهب السكاكى- الشافى الحقيقى وهو الله -عز وجل- فقد شبه الفاعل المجازى -وهو الطبيب- بالفاعل الحقيقى فى تعلق الفعل بكل منهما فالفعل "شفى" يتعلق بالطبيب لأنه سبب للشفاء ويتعلق بالفاعل الحقيقى وهو الله -عز وجل- لأنه الشافى الحقيقى ثم أفرد المشبه بالذكر ونسب إليه لازمة من لوازم المشبه به وهى الشفاء وهذه اللازمة هى: قرينة الاستعارة بالكناية.

قولى هذا ههنا وقولى ذلك فى فصل الاستعارة التبعية وقولى فى المجاز الراجع عند الأصحاب إلى حكم للكلمة على ما سبق أجعل المجاز كله لغويا[١].

وبهذا يخرج الإمام السكاكى المجاز العقلى من علم المعانى ويضعه فى علم البيان مع صور الاستعارة بالكناية وحجته فى ذلك: الرغبة فى تقليل الأقسام.

ونحن لا نستطيع أن نوافق الإمام السكاكى وغيره ممن أنكروا[٢] المجاز العقلى لما يلى[٣].

١- مفتاح العلوم ٣٩٣-٤٠١.

٢- وممن أنكروا المجاز العقلى أيضا العلامة يحيى بن حمزة العلوى (م.ت ٧٤٩هـ) حيث عده من المجازات المركبة اللغوية إذ يقول: "اعلم أن هذه المجازات المركبة التى ذكرناها ومثلناها بقوله -تعالى-: "وأخرجت الأرض أثقالها" [سورة الزلزلة/٢] وبقوله -تعالى-: "مما تنبت الأرض" [سورة البقرة/٦١] وقوله -تعالى-: "حتى إذا أخذت الأرض زخرفها" [سورة يونس/٢٤]، وغير ذلك من الأمثلة فإنها كلها مجازات لغوية استعملت فى غير موضوعاتها الأصلية فلأجل هذا حكمنا عليها بكونها لغوية وبيانه هو أن صيغة "أنبت" و "أخرج" و "أخذ" وضعت فى أصل اللغة بإزاء صدور الخروج والنبات والأخذ من القادر الفاعل فإذا استعملت فى صدورها من الأرض فقد استعملت الصيغة فى غير موضوعها فلا جرم حكمنا بكونها مجازات لغوية (الطراز ٧٥/١،٧٦).

٣- الإيضاح ١٠٢/١.

أولاً: يلزم بناء على مذهبه عدة أمور باطلة هى:

١- لزوم ظرفية الشيء فى نفسه وذلك فى قوله -تعالى-: "فهو فى عيشة راضية"[١] لأن الفاعل المجازى هنا هو: "عيشة" أريد به الفاعل الحقيقى -وهو صاحب العيشة- فيكون المعنى: "هو فى صاحب عيشة" وهذا لا معنى له حيث يترتب عليه ظرفية الشيء فى نفسه -وهو أن صاحب العيشة فى صاحب العيشة- وتكون الآية على ذلك باطلة وبطلانها محال لصدورها من رب العزة سبحانه وتعالى وكذا القول فى قوله -تعالى-: "خلق من ماء دافق"[٢] فالفاعل المجازى وهو ضمير الماء -أريد به- على مذهب السكاكى أيضا -الفاعل الحقيقى وهو الإنسان- ويكون المعنى: خلق الإنسان من نفسه وهذا باطل ويلزم منه عدم صحة الآية الكريمة وهذا محال لصدورها من العلى القدير.

٢- لزوم إضافة الشيء إلى نفسه وذلك فى كل مثال أضيف فيه الفاعل المجازى إلى الفاعل الحقيقى ومن ذلك قوله -تعالى-: "فما ربحت تجارتهم"[٣] فالفاعل المجازى هو "تجارة" أريد به الفاعل الحقيقى -وهم أصحاب التجارة- ومع هذا فإن "تجارة"

١- سورة الحاقة ٢١.

٢- سورة الطارق ٦.

٣- سورة البقرة ١٦.

أضيفت إلى ضمير الغائبين المقصود به أصحاب التجارة فيكون ذلك من إضافة الشيء إلى نفسه وهذا باطل يلزم منه عدم صحة الآية المباركة ولاشك في صحتها لصدورها من الكبير المتعال.

٣- يستلزم -على رأي السكاكي أيضا- تعدد المخاطب في كلام واحد وذلك في قوله -تعالى-: "يا هامان ابن لي صرحا"[١] وفي قوله: "فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا"[٢] فإن المعنى يستلزم ألا يكون الأمر بالبناء في الآيتين وبالإيقاد في الآية الثانية لهامان لأن المراد به حينئذ هو العملة أنفسهم ولا يصح ذلك حيث إن النداء في صدر الآيتين له فكيف يكون الأمر في العجز للعملة الذين شبه هامان بهم وهو كلام واحد ويلزم من هذا عدم صحة الآيتين لانفكاك نظم الكلام الواحد بعدم التئام صدره مع عجزه وتعدد المخاطب فيه والمناسب هو اتحاد جهة الخطاب بالذي حدده النداء أي "لهامان" ويكون الأمر كذلك وسبحان من هذا كلامه.

٤- **يستلزم أن يتوقف صحة المجاز العقلي على السماع من الشارع الحكيم وذلك في كل مثال يكون الفاعل الحقيقي فيه هو الله - عز وجل- مثل: "أنبت الربيع البقل وشفى الطبيب المريض**

---

[١]- سورة غافر ٣٦.

[٢]- سورة القصص ٣٨.

وسرتني رؤيتك" فإن كلا من "الربيع" و"الطبيب" و "الرؤية" فاعل مجازى أريد به فاعل حقيقى هو "الله" -عز وجل- ولا يصح أن يطلق على الله -عز وجل- لفظ من ذلك لا حقيقة ولا مجازا إلا بإذن من الشارع لأن أسماء الله -تعالى- -توقيفية والشارع لم يأذن بإطلاق مثل هذه الألفاظ على الله -تعالى- فيلزم على ذلك عدم صحة هذه الأمثلة واللازم باطل لأنها وما أشبهها صحيحة لشيوعها وذيوعها وعدم الاعتراض عليها ممن يقولون بالتوقيف وممن لا يقولون به. ومادامت اللوازم في كل ما تقدم منتفية باطلة فالواجب انتفاء كون المجاز العقلى من باب الاستعارة بالكناية لأن انتفاء اللازم يوجب انتفاء الملزوم[1].

ثانيا: إن ما ذهب إليه الإمام السكاكى من رد المجاز العقلى إلى الاستعارة بالكناية ينتقض بنحو: "فلان نهاره صائم وليله قائم" وما أشبه ذلك مما يذكر فيه الفاعل الحقيقى (وهو المشبه به) مع الفاعل المجازى (وهو المشبه) لأن ذكر طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه وهذان المثالان ذكر فى كل منهما طرفا التشبيه: فالضميران فى "ليله" و "نهاره" هما المشبه بهما و "ليل" و "نهار" هما المشبه.

---

[1]- مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢٦٩/١.

ولهذا عد نحو قولهم: "رأيت بفلان أسدا" و "لقينى منه أسد" تشبيها لا استعارة لوجود طرفى التشبيه فى كل مثال منهما وقد صرح السكاكى نفسه بذلك فى كتابه[1] حيث اعتبر هذين المثالين من التشبيه وليسا من الاستعارة لوجود طرفى التشبيه فى كل منهما. والحق أن المجاز العقلى طريقه غير طريق الاستعارة بالكناية لأنها تقوم كغيرها من الاستعارات على التشبيه وفيه يتحقق وجه الشبه فى الطرفين إلا أنه فى المشبه به أتم وأكمل بخلاف المجاز العقلى الذى لا يتحقق فيه ما قيل فى الاستعارة بدليل أن هذا الكلام لا يتحقق فى تشبيه الربيع بالقادر المختار -عز وجل- فى قولك: أنبت الربيع البقل ونحوه.

ثالثا: إن تقليل الأقسام مما لاشك فيه أنه يفيد الدارس وينفع الباحث ولكن لا يصح أن يكون على حساب المجاز العقلى بأن يلغى هذا البحث من بلاغة العرب وتجاهل خصوصياته فنحن عندما نقرأ صوره وننظر فى شواهده نجد لها مذاقا يختلف وخصوصيات تبتعد عن مذاق الاستعارة المكنية وعن خصوصياتها وكذا القول فى المجاز المركب وفى الاستعارة التبعية ولا يخفى هذا عندما ننظر فى قوله -تعالى-: "فما ربحت تجارتهم" وقوله -عز وجل-: "فهو فى عيشة

---

[1]- مفتاح العلوم ٣٥٤.

راضية" وفى قول الهذلى:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقول الرسول -ﷺ- خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها.

وقولنا للمتردد: "أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى" وقول ابن ميادة:

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

وقول الآخر:

فإن تعافوا العدل والإيمانا فإن فى أيماننا نيرانا

حيث نرى أن الخصوصيات التى اقتضاها المجاز العقلى فى الآيتين الكريمتين تختلف عن الخصوصيات التى اقتضتها الاستعارة المكنية فى بيت الهذلى والاستعارة التبعية فى الحديث الشريف والاستعارة التمثيلية فى القول المذكور وفى بيت ابن ميادة والاستعارة التصريحية فى البيت الأخير وسيتضح هذا عندما ندرس هذه الألوان فى علم البيان -بعون الله- والمهم الآن أن نعرف أن مذاق المجاز العقلى يختلف عن مذاق تلك الألوان ففى الآية الأولى أفاد إسناد الربح إلى التجارة المبالغة فى تأكيد سببية التجارة فى الربح. وفى الآية الثانية نجد أن إسناد الرضا إلى ضمير العيشة أفاد

كمال المبالغة فى رضاهم بها وانسجامهم فيها وفى قول الهذلى نجد أن الغرض الأساسى من صورته هو تصوير المنية وليس إسناد النشوب إليها والأليق بالصورة أن تفسر فى ظلال المجاز اللغوى على الاستعارة المكنية وليس على المجاز العقلى وهكذا نجد للمجاز العقلى مذاقا لا نجده فى الألوان الأخرى فلا مجال لإنكاره ورده إلى الاستعارة المكنية أو إلى المجازات المركبة رغبة فى تقليل الأقسام لأن تقليل الأقسام إذا تنافى مع الخصوصيات التى يقتضيها المقام أو أدى إلى إفساد الصور وتذويب الأغراض فلا عبرة لهذا التقليل ولا يصح الأخذ به.

رابعاً: إن الرغبة فى تقليل الأقسام وجد عكسها تماما فى بلاغة العلامة السكاكى فقد قسم الاستعارة إلى تقسيمات ست كل قسم منها ينقسم إلى أقسام وفعل أكثر من هذه التقسيمات فى باب التشبيه بحيث يتشتت ذهن الباحث فى هذه التقسيمات العديدة التى تقتل الذوق وتميت الاحساس وفى نفس الموطن الذى أنكر فيه السكاكى أسلوب المجاز العقلى ورده إلى الاستعارة بالكناية **نراه يمضى فى ذكر الأقسام التى يقول إنه راغب فى الإقلال منها فهو يقسم المجاز إلى مفيد وغير مفيد. والمفيد إلى استعارة وغير استعارة والاستعارة إلى مصرح بها ومكنى عنها والمصرح بها إلى تحقيقية وتخييلية كلتاهما**

إما قطعية وإما احتمالية للتحقيق والتخييل إلى غير ذلك من الأقسام العديدة المذهبة للذوق والإحساس.

وقد أجاب أصحاب الحواشى عن الإمام السكاكى بأجوبة أعرضنا عنها لأنه لا يصح التطويل بها فى علم البلاغة.

هذا: ويذكر أحد الباحثين المعاصرين نقلا عن العلامة بهاء الدين السبكى -رحمه الله- ملخصا لجملة المذاهب فى هذه القضية فيقول:

تلخص فى نحو: "أنبت الربيع البقل" إذا لم يكن من كافر ولا كذبا .... أقوال أحدها أن المجاز فى "أنبت" وهو رأى ابن الحاجب وهو يوافق السكاكى فى إنكار المجاز العقلى الثانى أنه فى "الربيع" وهو رأى السكاكى الثالث أنه فى الإسناد وهو رأى الإمامين عبد القاهر الجرجانى والخطيب القزوينى الرابع أنه تمثيل فلا مجاز فيه فى الإسناد ولا فى الإفراد (أى فى طرفيه) بل هو كلام أورد ليتصور معناه فينتقل الذهن منه إلى إنبات الله -تعالى- وهو اختيار الإمام فخر الدين الرازى الخامس أنه من التوسع فى الكلام فيحتاج فيه إلى التأويل فقط كما يؤول -نام ليلى- بأنه على تقدير نمت فى ليلى. فجملة المذاهب فى ذلك خمسة .... وأقربها إلى اسلوب اللغة

جعل التجويز فى الإسناد كما ذهب إليه الخطيب وهو مذهب الإمام عبد القاهر إمام هذا الفن لأنه لا تكلف فيه كغيره من المذاهب"[١].

بلاغة المجاز العقلى:

تكمن بلاغة المجاز العقلى فيما يفيده من المبالغة فى التعبير وإيجاز القول وإثارة الخيال عندما يسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقى أو عندما يقع الفعل على غير المفعول كما ترجع بلاغة المجاز العقلى إلى أنه يفتح أمام المتكلم الميدان للتفنن فى القول وتلوين العبارة وإخضاع الكلام لما يريد وتشكيل البناء حسبما يهدف إليه ويرمى فهو يلجأ إليه لنفى تهمة أو للتخلص من جريمة أو لتحقيق مقصد من المقاصد حيث يجد فى إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقى ميدانا رحبا لتحقيق هذه المقاصد ولذا يقول فيه الإمام عبد القاهر الجرجانى: وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان والاتساع فى طرق البيان وأن يجىء بالكلام مطبوعا مصنوعا وأن يضعه بعيد المرام قريبا من الأفهام..... وأنه يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق والكاتب البليغ وحتى يأتيك بالبدعة

---

[١]- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٢٧٢،٢٧١/١ وبغية الإيضاح ٧٠،٦٩/١. وراجع: البيان العربى د/بدوى طبانة ٢٨٩ تجده قد أنكر أثر المجاز العقلى وطالب بضمه إلى مباحث علم الكلام.

لم تعرفها والنادرة تأنق لها"[١] انظر فى قوله -تعالى-: "وأخرجت الأرض أثقالها" تجد أن الفعل قد أسند إلى مكانه وفى هذا الإسناد تخييل محرك ومثير إذ يصور لنا الأرض فاعله جاهدة تخرج أثقالها وتقذف بنفسها ما بداخلها فلا تبقى فى باطنها شيئا. وتأمل قوله -تعالى-: "خلق من ماء دافق" تجد أن الدفق فى أصله للشخص الدافق ولكنه جعل للماء إشارة إلى قدرة الله -عز وجل- فى أن جعل الدفق والدفع من خصائص هذا الماء وكأنه لسرعته وتتابعه فى تلك القناة المظلمة هو الفاعل الحقيقى لهذه المسيرة وأنه شىء يطرد معه بقدرة الله -تعالى- وليس لصاحبه فى ذلك دخل سوى تبنى الأسباب أما الخلق فمن الخالق وحده وتأمل قوله -عز وجل-: "فهو فى عيشة راضية" تجد أن الرضى فى أصله لصاحب العيشةوهى مرضية ولكن لما كان أمر النعيم فى الجنة له من الشمول والسر مدية والإلف لأصحابه لا يملهم ولا يملونه ولا يغيب عنهم فلم يعد صاحبها راضيا فحسب وإنما شمل الرضى العيشة نفسها أيضا فأصبحت هى الأخرى راضية وبذلك تلبس كل من الفاعل والمفعول بالرضى وكأن هذا المجاز على وجازته يحمل فى طياته معنى قول الرسول -ﷺ- "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" وكثيرا ما يلجأ المتكلم إلى المجاز العقلى لتحقيق مقصد

---

[١]- دلائل الإعجاز ٢٩٥.

من المقاصد -كما ذكرت- انظر إلى قولهم: فلان قتله جهله وقضى عليه غروره" وهم يريدون بهذا تبرئة القاتل من جريمة قتله ونفى التهمة عمن قضى على غيره وذلك بإسناد القتل إلى جهل المقتول و"قضى" إلى غرور المقضى عليه وتكبره فقد وجدوا فى المجاز العقلى تحقيقا لهذا الهدف.

بل إن هذا المجاز العقلى يعظم أمره ويلطف موقعه عندما تهيىء العبارة له وتصلحها لذلك بشىء تتوخاه فى النظم كما فى قول الشاعر وهو يصف جملا بحدة النظر ونفاذ الرؤية فى الظلام:

تجوب له الظلماء عين كأنها زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر [١]

فقد أسند "تجوب" إلى "العين" والأصل: يجوب الجمل الظلماء بعينه ولكنه عدل إلى المجاز فأسند الفعل إلى آلته ثم هيأ البيت وتوخى من النظم ما يجعل المجاز ألطف وأوقع فى النفس إذ تراه ينكر العين ليتسنى له وصفها بالجملة الواقعة بعدها ولو قال:

تجوب له الظلماء عينه ما تمكن من وصفها بتلك الجملة وعندما نكر العين وقطعها عن الإضافة إلى الجمل وصلها به بقوله "له" فبدون الضمير فى "له" يصير الكلام لا علاقة له بالجمل.

فبربط صدر الصورة بالجار والمجرور "له" وبربط عجزها

---

[١]- تجوب: تقطع وتنفذ وصفر: خالية وراجع دلائل الإعجاز ٢٩٨،٢٩٩.

بتنكير "عين" وإيقاع الجملة بعدها صفة لها يكون المجاز قد لطف ودقت صنعته حتى ظهرت بلاغته.

وانظر إلى قول كثير عزة:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح[١]

تجد أن المجاز العقلى فى إسناد الفعل "سالت" إلى فاعله المجازى "الأباطح" وحقيقة الإسناد: سارت الإبل فى الأباطح.

كما تجد أن اختيار هذا الجزء من الإبل "الأعناق" قد أضفى على العبارة جمالا وأبرز وجلى ما يفيده المجاز العقلى من تخييل وتصوير الأباطح متحركة تدفع بهذه المطى دفعا وتسيل بها سيلانا وذلك لأن حركة الإبل عندما تسرع فى السير تظهر تمام الظهور فى أعناقهاز ولو سلك الشاعر سبيل الحقيقة لضاعت بلاغة الأبيات لأنه يريد أن يبين مدى ليونة السير وسلاسته. وفى هذا الغرض البلاغى: استعار "السيل" للسير اللين وأسند الفعل "سالت" إلى الأباطح فأفاد سرعة السير وليونته ثم أدخل حرف الجر على "الأعناق" فقال "بأعناق المطى" وعلق الجار والمجرور بالفعل "سالت" لأن السرعة

١- دلائل الإعجاز ٧٤،٧٥،٢٩٤،٢٩٦.

والبطء يظهران غالبا فى أعناق المطى وهكذا تم للشاعر ما يريد بهذا التصرف الحسن فأبدى لأجيال البلاغيين صورتين رائعتين لمجازين (الاستعارة وهى مجاز لغوى والمجاز العقلى وهو مجاز فى الإسناد) وذلك كله فى عجز البيت الثالث "وسالت بأعناق المطى الأباطح"[١] وهكذا تجد المجاز العقلى فى حاجة إلى تهيئة العبارة وتوخى النظم وأن الشاعر أو المتكلم عندما يراعى هذا فيتوخى من النظم ما يلائم المجاز ويهيىء العبارة له فإنه يقع فى النفس موقعه ويحقق ما يقصد الشاعر أو البليغ من الإيجاز والمبالغة والتخييل وما يقتضيه ذلك من تفخيم للمعنى وتعميم للفعل وتجاوز به عن الحد المتعارف عليه وبهذا يكون المجاز العقلى أبلغ من الحقيقة العقلية.

هل يقع المجاز العقلى فى القرآن الكريم؟

ذهب البعض إلى عدم وقوعه فى القرآن الكريم واستدلوا على ذلك بأدلة مردودة كلها[٢] والواقع أن جميع صور المجاز التى عرفتها اللغة العربية قد وجدت لها شواهد فى القرآن الكريم وأن هناك قرينة تصرف الإسناد عن حقيقته إلى مجازه وبها يفترق المجاز العقلى عن الكذب. انظر فى قوله -تعالى-: "يا بنى آدم لا

---

[١]- بحوث المطابقة ٢٠١.

[٢]- راجع المجاز فى اللغة والقرآن الكريم أ.د/ عبد العظيم المطعنى ٢/٦٢٢ وما بعدها.

يفتتنكم الشيطان كما أخـرج أبويكم مـن الجنـة يـنزع عنهما لباسـهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيـث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون"[١] تجد أن الفعلين "يفتن" و "ينزع" أولهما مسند إلى الشيطان والثاني مسند إلـى ضميره والفاعل الحقيقي هو الله -عز وجل- والشيطان مجرد سبب آمر أو مؤثر ولشدة تأثيره في إحداث الفعل أسـند الفعل إليه مرتين وهذا تحذير قرآني كريم من فتنة الشيطان الذي أخرج أبوينا آدم وحواء من الجنة.

وتأمل قوله -عز وجل-: "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون"[٢] تجد أن آيات الذكر الحكيم ليست مجرد سبب مؤثر في إحداث الإيمان في القلوب لأن المتفضل بتنوير القلوب إنما هو ذو الفضل العظيم ولكن هذه الآيات الكريمة تخيل إلى المسلمين أن الآيات هي التي أحدثت هذا الإيمان وزادته في قلوب المؤمنين ومن ثم أسند الفعل "زاد" إلى ضمير الآيات.

واقرأ قوله -تعالى-: "ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا

---

[١]- سورة الأعراف ٢٧.

[٢]- سورة الأنفال ٢.

وأحلوا قومهم دار البوار"[١] ترى أن الفعل "أحل" قد أسند إلى ضمير "أكابر الكافرين" مع أن الفاعل الحقيقى هو الله -عز وجل- وسبب النقمة عليهم: كفرهم.

وعلى هذا النحو ترى المجاز العقلى واقعا فى القرآن الكريم وهو من شواهد البلاغة والإعجاز.

سبب إيراد الحقيقة والمجاز العقليين فى علم المعانى:

قال الخطيب القزوينى -رحمه الله-: "إنما لم نورد الكلام فى الحقيقة والمجاز العقليين فى علم البيان كما فعل السكاكى ومن تبعه لدخوله فى تعريف علم المعانى دون تعريف علم البيان"[٢] وبيان ذلك: أن الحقيقة والمجاز العقليين حالان من أحوال اللفظ -كالتأكيد وعدمه- وأنه يؤتى بهما لأحوال تقتضيهما فعندما تقصد المبالغة فى المعنى والتفخيم فى إحداث الفعل يؤتى بالمجاز العقلى وعندما لا يقصد ذلك يؤتى بالحقيقة العقلية. وبهذا الاعتبار يدخل كل منهما فى تعريف علم المعانى لأنه يبحث فى أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال.

ولكن يلزم على هذا: أن يدخل كل من الحقيقة اللغوية

١- سورة إبراهيم ٢٨.

٢- الإيضاح ٧٢،٧١/١.

والمجاز اللغوى فى علم المعانى لأنهما حالان من أحوال اللفظ وقد يقتضيهما المقام فعندما تقصد المبالغة يؤتى بالمجاز اللغوى وعندما لا تقصد يؤتى بالحقيقة اللغوية ومع هذا فقد ذكرهما الخطيب فى علم البيان. ويكون الاعتراض هنا: لماذا ذكر الخطيب القزوينى وغيره الحقيقة والمجاز العقليين فى علم المعانى وذكر الحقيقة والمجاز اللغويين فى علم البيان مع أن الجميع من أحوال اللفظ العربى والأحوال قد تقتضيها؟ وأجيب عن ذلك بإجابات مختلفة منها[١]:

١- إن الحقيقة والمجاز اللغويين من أحوال الدلالة فيدخلان فى علم البيان الذى هو: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد فى تراكيب مختلفة فى وضوح الدلالة والتراكيب المختلفة هى: أن يعبر عن المعنى الواحد بجملة تراكيب بعضها أوضح دلالة عليه من بعض سواء بطريقة: التشبيه أو المجاز والكناية أما الحقيقة والمجاز العقليان فليسا من أ حوال الدلالة. ورد على ذلك بأنه: يمكن جعل الحقيقة والمجاز العقليين من أحوال الدلالة على المعنى الواحد أيضا فجريان الماء نعبر عنه مثلا بالحقيقة العقلية فنقول: جرى الماء فى النهر ونعبر عنه مرة أخرى بالمجاز العقلى فنقول: جرىالنهر -عند قصد المبالغة- والتعبير الأول أوضح من الثانى على المعنى المراد ولكل منهما مقام يقتضيه.

١- راجع شرح عقود الجمان للمرشدى ٤٧/١ وبغية الإيضاح ٧٢/١.

٢- إن الحقيقة والمجاز العقليين من مباحث علم البيان وإنما أوردهما في علم المعانى استطرادا لأدنى ملابسة وليس بسديد ما علل به بعضهم من أنهما من أحوال اللفظ إذ ليس كل ما كان من أحوال اللفظ يذكر فى علم المعانى لأنه لا يبحث فيه عن جميع أحوال اللفظ بل عن الأحوال التى بها تتحقق المطابقة لمقتضى الحال ... ولم يذكروا للحقيقة والمجاز العقليين أحوالا تقتضيهما كما ذكروا لغيرهما[١].

والخطب فى هذا الخلاف يسير ولكل وجهة فيما ادعاه ولا يصح التمسك فيه برأى دون رأى مادام هناك وجهة نظر مقبولة من جهة ما واعتبار الجهة هو الذى أوجد اختلاف الرأيين فالقائل بأن الحقيقة والمجاز العقليين من علم المعانى نظر إلى أنهما من أحوال اللفظ التى يقتضيها المقام والقائل بأنهما من علم البيان نظر إلى أنهما من التراكيب التى يمكن الإتيان بها فى وضوح الدلالة على المعنى الواحد كالتشبيه والاستعارة والكناية.

وإذ قد انتهينا من دراسة أحوال الإسناد الخبرى فلننتقل إلى دراسة أحوال المسند إليه.

وذلك فى الجزء الثانى بمشيئة الله تعالى

١- المنهاج الواضح ٤/٦٤.

فهرس الموضوعـــات

رقم الإيداع: ٩٧/٤١٨٣

الترقيم الدولى: 2 - 3098 - 19 - 977

مطبعة السلام بالزقازيق